

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس






عاصمة الثقافة العربية



بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجــوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي



الإهداء

- إلى شهداء الجزائر الأبرار الذين قدموا أرواحهم من أجل قيام دولة جزائرية عزيزة مستقلة وموحدة.
- إلى المجاهدين المخلصين لهذه البلاد الطاهرة؛ الذين حققوا المعجزة وحرروا البلاد والعباد.
- إلى شباب الجزائر المستقلة الذين يضحون بكل غالٍ ورخيصٍ في سبيل وحدة الجزائر وازدهارها الثقافي والاقتصادي.
- إلى كل امرأة جزائرية حافظت على قيم شعبها وثوابت أمتها.
- إلى كل هؤلاء جميعا أهدي كتابي المتواضع هذا؛ راجيا من الله أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح بلادي الثقافي.



المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت – في إعداد هذه الدراسات – بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون – بعد تأمل عميق وتجربة واسعة – أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها – مع كثرتها – تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد – بسهولة – من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ـ كل قبيلة ـ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ـ قبل الختام ـ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب التي أتممتها ـ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ـ هنا ـ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، وولديه: **مهند الجهماني**، و**فراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ـ في كل مرة ـ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4. جوان. 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ـ ضمن هذا المجال ـ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ـ معا ـ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ـ منذ الوهلة الأولى ـ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ـ في هذا السياق ـ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة ــ عموما ــ ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي تثبت مواكبة نشأة الدولة ــ في غالب الأحيان ــ للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه ــ في جل الحالات ــ انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ ــ حتما ــ ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: **"فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة"**.[1]

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 646.

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص: 647.**

فما يمكن استنتاجه هنا.. هو أن للعصبية أثرا كبيرا؛ على نشأة الدول وسقوطها في هذه الديار. والدليل على ذلك يظهر من خلال ما واجه المسلمين من أحداث؛ على الرغم من قوتهم، وتعدد جيوشهم، وصدق دعوتهم. حيث واجهتهم – في بلاد المغرب – صعوبات كثيرة؛ عرقلت مساعيهم؛ قصد ترسيخ سلطانهم، وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية. وربما استعصى عليهم تحقيق ذلك الأمر؛ ولم يتمكنوا من تمهيد البلاد إلا في عهد موسى بن نصير؛ كما ذكر ابن خلدون. أما عبد الله المالكي، والرقيق القيرواني؛[1] فيجمعان على استقامة الأوضاع بإفريقية في عهد حسان بن النعمان. ومع هذا يبدو أن استتباب الأمر لم يدم طويلا؛ حيث عادت الفتن، والحروب من جديد؛ ودون توقف. ويرجع السبب في ذلك إلى العصبية المهيمنة، والطابع القبلي؛ الذي يتميز بهما المغرب. هذا بالإضافة إلى ظاهرة البداوة؛ المتفشية في تلك الربوع؛ نظرا لكون الأمازيغ يعتبرون من أهل العصبيات والأنساب؛ كما يقول ابن خلدون ضمن **"فصل في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب <u>قليلة</u>".**[2]

---

[1] رياض النفوس، ج: 1، ص: 57. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

[2] ((وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة. والصنائع من توابع الحضارة؛ وإنما تتم المباني بها؛ فلا بد من الحذق في تعلمها؛ فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني؛ فضلا عن

وإذا كانت للبيزنطيين آثار بارزة ـ لا ينبغي نكرانها ـ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ـ في الحقيقة ـ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ـ في تلك الفترة ـ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كِسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ـ أيضا ـ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ـ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب ـ في تلك الفترة ـ تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 ـ 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 ـ 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 ـ 101. 107 ـــ 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 ـ 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 ـــ 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ـ نتيجة لذلك كله ـ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ـ طبعا ـ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138. 146 ـ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ـ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ـ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـــ 209.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمينيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بني أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ــ حكم من 101هــ(719م) إلى 105هــ(723م) ــ وهشام بن عبد الملك ــ حكم من 105هــ إلى 125هــ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمَّا كان المغرب الإسلامي ــ منذ البداية ــ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ــ من الطرفين ــ اضطهاد الرعية التي لا تنحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر ابن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي).** فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام

ابن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أفأتـمْ بَـنِي مَـرْوَانَ قيسـاً دِمَاءَنَـا
وَفِي اللـهِ إنْ لمْ تُنْصِفُـوا حَكَـمٌ عَـدْلُ

كَأنكـمْ لـمْ تشْـهَـدُوا مَـرْجَ رَاهِـطٍ
ولَـمْ تَعلمُـوا مَنْ كَانَ ثمَّ لـهُ الفَضْـلُ

تعَامَيتـمُ عَنَـا بِعَيْـنٍ جَلِيـةٍ
وَأنتـمْ كـذَا ما قدْ عَلِمْنَـا لنَا فِـعْـلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب)**. فتمادى ـ هو الآخر ـ في لعبة العصبية الخطيرة؛ التي انجر عنها ـ في عهده ـ أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

---

[1] أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فأظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.

وهكذا فمن يحلو له اللعب بالنار؛ يتعرض للاحتراق أحيانا.. حيث استفحلت ظاهرة العصبية القبلية، وأخذت تنخر كيان الدولة الأموية نفسها. فانحدرت بها تلك الظاهرة السلبية إلى مهاوي السقوط والاندثار.[1] لأن خلفاء تلك الدولة استهوتهم اللعبة، فغفلوا عن الأخطار التي يمكن للعصبية أن تفرزها، إذا ما استهين بمفعولها العكسي، وتأثيرها على استقرار دولتهم وسلامتها؛ فلم يكتشفوا جوانبها السلبية؛ وانساقوا خلف إغرائها العابر، وطمعوا في بعض الفوائد الظرفية الزائفة. وشاءت الأقدار أن تتسبب ظاهرة العصبية في تفكك الدولة؛ عندما تمردت بعض القبائل، والعصبيات؛ في الأطراف النائية؛ حيث أنشأت دولا، وإمارات خاصة بها. من ذلك ما حدث في المغرب الإسلامي مثلا؛ إذ تمكن زعماء بعض القبائل، والأحزاب من إقامة كيانات، ودول مستقلة؛ عن الدولتين: الأموية، ثم العباسية بعدها؛ وتبعا لما تفرضه المجتمعات القبلية؛ فقد كانت تلك الكيانات تستند ـ بدورها ـ إلى عصبية القبائل الأمازيغية.

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص 495. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 243. وفجر الأندلس، ص: 142. والمغرب الإسلامي، ص: 119.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات – منذ البداية – قصد تأليف دول وإمارات – هنا وهناك – ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم – في هذه الحال – متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهم عوامل فشلهما ــ على ما يبدو ــ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: **"فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة"**. و**"فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق"**. و**"فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها"**. و**"فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم"**.[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626. 636 ــ 642.

القبائــل مــن تحقيقــه؛ الأمــر الــذي ساعــد عــلى تعزيــز دور العصبيــة الــتي تنتــمي إليهــا.

ولمــا كانــت الدولــة العباسيــة قــد ورثــت الأوضــاع المترديــة في بــلاد المغــرب ــ بعــد سقــوط الدولــة الأمويــة ــ فقــد تعــذر عليهــا إعــادة الكــرة؛ وإخضــاع الــدول الــتي استقلــت عــن الخلافــة مــن قبــل. وهــذا ــ طبعــا ــ يعــود إلى حداثــة الدولــة العباسيــة، وبدايــة عهدهــا مــن جهــة؛ وإلى شــدة العصبيــة الفياضــة؛ الــتي تتميــز بهــا القبائــل المغربيــة؛ تلــك العصبيــة الــتي جعلــت منهــا قــوة لا يستهــان بهــا. هــذا بالإضافــة إلى العامــل الديــني؛ الــذي أضــحى يشــد أفــراد القبائــل بعضهــم إلى بعــض. كمــا أن للعامــل الجغــرافي كلمتــه الــتي لا شــك فيهــا في هــذا البــاب.

****

دول الخـــوارج

هـذه التسميـة (**الخـوارج**) لـم يطلقهـا أصحابهـا علـى أنفسهـم؛ بـل سماهـم بهـا خصومهـم. لذلـك نجـد الإباضييـن في بـلاد المغـرب يستنكـرون إطـلاق هـذه التسميـة عليهـم.[1] وتعـود بدايـة ظهـور المذهـب الخـارجي إلى عهـد علـي بـن أبي طالـب كـرم اللـه وجهـه. وبالتحديـد أثنـاء وقعـة صفيـن؛ أي حيـن رفضـت فئـة مـن المتقاتليـن نتيجـة التحكيـم؛ فخرجـوا عـن صـف علـي، وفارقـوا صفـوف أنصـاره؛ معلنيـن العصيـان، ثـم دعـوا النـاس إلى خلعـه هـو ومعاويـة معـا. فاعتبرهـم أهـل السنـة ــ بسبـب ذلـك ــ خارجيـن عـن الصـف؛ وأسموهـم الخـوارج.[2]

---

[1] أنظـر: كتـاب طبقـات المشائـخ بالمغـرب، للدرجينـي، ج: 2، الصفحـات: 201 ومـا يليهـا. وكتـاب مختصـر تاريـخ الإباضيـة لسليمـان البـاروني، ص ص: 17 ــ 33. وكتـاب الإباضيـة في موكـب التاريـخ، الحلقـة الثانيـة، ص ص: 21 ــ 23. وكتـاب تاريـخ المغـرب الكبيـر، ج: 2، ص ص: 337 ــ 400.

[2] أمـا الشهرستـاني فيقـول: ((كـل مـن خـرج علـى الإمـام الحـق الـذي اتفقت الجماعـة عليـه يسـمى خارجيا؛ سـواء كـان الخـروج في أيـام الصحابـة علـى الأئمـة الراشديـن، أو كـان بعدهـم علـى التابعيـن بإحسـان، والأئمـة في كـل زمـان... اعلـم أن أول مـن خـرج علـى أميـر المؤمنيـن علـي رضي الله عنـه جماعـة ممـن كـان معـه في حـرب صفيـن؛ وأشدهـم خروجـا عليـه ومروقـا في الديـن الأشعـث بـن قيـس الكنـدي، ومسعـر بـن فـدكي التميـمي، وزيـد بـن حصيـن الطـائي؛ حيـن قالـوا: "القـوم يدعوننـا إلى كتـاب اللـه، وأنـت تدعونـا إلى السيـف" حـتى قـال: "أنـا أعلـم مـا في كتـاب اللـه! انفـروا إلى بقيـة الأحـزاب! انفـروا إلى مـن يقـول: كـذب اللـه ورسولـه، وأنتـم تقولـون: صـدق اللـه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ـ بمرور الوقت ـ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ـ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ـ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ـ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ـ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ـ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ـ

نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف

فيما بعد ـ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: **114**. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: **294 ـ 299**. والكامل في التاريخ، ج: **4**، ص: **223**. والبيان المغرب، ج: **1**، ص ص: **58 ـ 59**.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:**1**، ص: **137**. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: **3**، ص: **265**.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: **1**، ص: **146**. وجاء في التعليق **8** من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (**3: 160**) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: **82 ـ 83**.

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ــ منذ البداية ــ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

---

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: **149**. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: **6**، ص ص: **210**. **267** ــ **268**.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ــ بعد مقتل ميسرة ــ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ــ منذ البداية ــ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ــ سطحيا ــ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ــ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ــ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ــ في ذلك الوقت ــ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ــ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ــ 51.

الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ ((**لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية**)).[1] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[2] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت

---

[1] المقدمة ، ج: 2، ص: 599.

[2] يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة]

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ــ 638.

[1] **أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.**

الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ـ بعد ذلك ـ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛ فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولماية ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ـ بذلك ـ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 223 ـ 227. 246 ـ 248. 255 ـ 267. 286 ـ 287. 428 ـ 438.

طابـــع مذهـــبي وديـــني عـــلى مؤسساتهـــا؛ مـــع شيء مـــن التفـــاوت فيمـــا بينهـــا.

غيـــر أنـــه مـــن الضـــروري ــ هنـــا ــ التذكيـــر؛ بكـــون الـــدول الثـــلاث كـــان يغلـــب عليهـــا الطابـــع القبـــلي؛ مصبوغـــا بسمـــات البـــداوة المحـــض؛ معـــززة بمبـــادئ مذهبيـــة، وعقائديـــة؛ منحتهـــا نفحـــة دينيـــة متميـــزة. علمـــا بـــأن دولـــة بـــني رستـــم تفوقـــت عـــلى أختيهـــا؛ في نظمهـــا وفي سيادتهـــا وفي نفوذهـــا. إذ كانـــت تتمتـــع باستقلاليـــة أوســـع منهمـــا. حيـــث كانـــت دولـــة برغواطـــة تعلـــن ولاءهـــا للدولـــة الأمويـــة بالأندلـــس.[1] أمـــا إمـــارة بـــني مـــدرار؛ فقـــد صرحـــت بالدعـــوة لخلفـــاء بـــني العبـــاس ببغـــداد.[2] ومـــع هـــذا فقـــد ظـــل ذلـــك الـــولاء شكليـــا؛ لا يؤثـــر ولا يتأثـــر. فالهـــدف منـــه هـــو كســـب نـــوع مـــن الشرعيـــة؛ قـــد تساعـــد عـــلى الثبـــات والاستقـــرار. والـــذي يحـــث عـــلى تخصيـــص فقـــرات للحديـــث عـــن تلـــك الـــدول؛ في هـــذا المجـــال؛ هـــو مـــا عـــرف عـــن منعتهـــا، وتحديهـــا للـــدول الكبـــرى آنئـــذ. غيـــر أن المعلومـــات الضئيلـــة الـــتي أوردهـــا المؤرخـــون عنهـــا لا تـــفي بالحاجـــة المطلوبـــة. وسيبـــقى أمرهـــا مغلفـــا بالغمـــوض؛ مـــا دامـــت النصـــوص التاريخيـــة الكافيـــة مفقـــودة.

---

[1] المغـــرب، 135. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص: 183. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 224. والعبـــر، مج: 6، ص: 130.

[2] العبـــر، مج: 6، ص: 268. وصبـــح الأعـــشى، ج: 5، ص: 165.

وجملـــة القــول؛ فهــذه الــدول نشــأت في أعقــاب الفشــل الــذي لحــق بالقبائــل الصفريــة والإباضيــة؛ أمــام ولاة إفريقيــة والمغــرب؛ طــوال الفتــرة الزمنيــة الممتــدة مــن عــام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيــث تفرقــت – نتيجــة لذلــك الفشــل – القبائــل الأمازيغيــة (الصفريــة والإباضيــة) في ربــوع المغربيــن: الأقــصى والأوســط؛ أيــن تحصنــوا في المناطــق النائيــة، وشيــدوا دولهــم الخاصــة بهــم.

****

1)ـ الدولـــة البرغواطيـــة:

أدى فشـــل الصفريـــة والإباضيـــة أمـــام الدولـــة الأمويـــة ببـــلاد المغـــرب؛ إلى قيـــام الدولـــة الصفريـــة الأولى في أقـــصى البـــلاد؛ ممثلـــة ببرغواطـــة سنـــة 127هـــ (744م). وذلـــك عندمـــا لجـــأت فلولهـــم ــ مـــع طريـــف الصفـــري ــ إلى إقليـــم تامسنـــا (بمنطقـــة الـــدار البيضـــاء حاليـــا)؛ حيـــث تـــرأس بعـــض القبائـــل ــ هنـــاك ــ مـــن: مصمـــودة وزواغـــة وزناتـــة، وقبائـــل أخـــرى.[1] وبعـــد موتـــه خلفـــه ابنـــه صالـــح؛ الـــذي نسبـــت إليـــه النحلـــة البرغواطيـــة. وبذلـــك يكـــون طريـــف وابنـــه صالـــح قـــد وصـــلا إلى مرتبـــة الرئاســـة والســـؤدد في قبائـــل متعـــددة؛ مـــع أنهمـــا لا ينتميـــان إلى عصبيتهمـــا. فكيـــف حصـــل ذلـــك؟

الإجابـــة عـــلى هـــذا توجـــد عنـــد ابـــن خلـــدون؛ الـــذي ذكرهـــا ضمـــن: **"فصـــل في أنـــه يحـــدث لبعـــض أهـــل النصـــاب الملـــكي دولـــة؛ تستغـــني عـــن العصبيـــة"**.[2]

---

[1] وكانـــوا أحيـــاء مـــن قبائـــل كثيـــرة؛ ذكرهـــم البكـــري بقولـــه: ((وأن قبائـــل برغواطـــة الذيـــن يدينـــون لهـــم؛ وهـــم عـــلى ملتهـــم: جـــراوة، وزواغـــة، والبرانـــس، وبنـــو أبي ناصـــر، ومنجصـــة، وبنـــو أبي نـــوح، وبنـــو واغمـــر، ومطغـــرة، وبنـــو يـــورغ، وبنـــو دمـــر، ومطماطـــة، وبنـــو وزكسينـــت؛ وعددهـــم ينتـــهي أزيـــد مـــن عشـــرة آلاف فـــارس. وممـــن يديـــن لهـــم مـــن المسلميـــن، وينضـــاف إلى مملكتهـــم زناتـــة الجبـــل، وبنـــو يليـــت، ونمالتـــة، وبنـــو واسينـــت، وبنـــو يفـــرن، وبنـــو وناغيـــت، وبنـــو النعمـــان، وبنـــو إفلوســـة، وبنـــو كونـــة، وبنـــو يسكـــر، وأصـــادة، وركانـــة، وإيزميـــن، ومنـــادة، وماسينـــة، ورصانـــة، وترارتـــة؛ ومبلـــغ عددهـــم اثـــني عشـــر ألـــف فـــارس)). المغـــرب، ص ص: 140 ــ 141.

[2] المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ــ أيضا ــ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ــ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ــ المتواجدة بمنطقة تامسنا ــ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ــ بالعدوة الأندلسية ــ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في

أبـــرز القـــادة والأمـــراء الأمازيـــغ. أضـــف إلى ذلـــك كلـــه مـــا للعامـــل الديـــني مـــن أثـــر عـــلى الأوضـــاع؛ حيـــث كـــان للمذهـــب الصفـــري دوره في تعزيـــز اللحمـــة وشحـــن النفـــوس بالغيـــرة وروح التضحيـــة. ذلـــك لأن الديـــن يزيـــل خلـــق التكبـــر والحســـد والتنافـــس. وبمـــرور الوقـــت نسيـــت قبائـــل تامسنـــا نســـب طريـــف الأول، وخفيـــت عـــن التابعيـــن الكيفيـــة الـــتي وصـــل بهـــا إلى الحكـــم. وهكـــذا أصبـــح منسوبـــا إليهـــم وفي عدادهـــم.

هـــذا مـــن جهـــة؛ ومـــن جهـــة أخـــرى ثمـــة مـــن لا يضـــع الدولـــة البرغواطيـــة في عـــداد الـــدول الصفريـــة أصـــلا؛ نظـــرا لكونهـــا انحرفـــت عـــن تعاليـــم المذهـــب الصفـــري الخـــارجي نفســـه؛ بـــل هنـــاك مـــن يتهـــم أمراءهـــا بالارتـــداد عـــن الديـــن الإســـلامي أيضـــا؛ حيـــث أجمعـــت المصـــادر التاريخيـــة عـــلى ذلـــك تقريبـــا؛ تبعـــا لمـــا يدعيـــه البرغواطيـــون مـــن النبـــوة، وزعمهـــم بنـــزول الـــوحي عـــلى رابـــع أمرائهـــم (يونـــس)؛ الـــذي يقـــال أنـــه ابتـــدع النحلـــة البرغواطيـــة، وألـــف مـــا أسمـــاه قرآنـــا.[1] عـــلى أن بعـــض المؤرخيـــن ينسبـــون ادعـــاء النبـــوة إلى جـــدّه صالـــح؛ ويقولـــون أنـــه هـــو الـــذي ابتكـــر هـــذه

أربعـــة مراكـــب؛ حـــتى نـــزل في ساحـــل البحـــر بالأندلـــس؛ فيمـــا يحـــاذي طنجـــة؛ وهـــو المعـــروف اليـــوم بجزيـــرة طريـــف؛ سميـــت باسمـــه لنزولـــه هنالـــك؛ فأغـــار منهـــا عـــلى مـــا يليهـــا إلى جهـــة الجزيـــرة الخضـــراء، وأصـــاب سبيـــا ومـــالا كثيـــرا؛ ورجـــع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيـــان المغـــرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغـــرب، ص ص: 134 ـــ 141. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 223 ـــ 227. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 182 ـــ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـــ 435.

النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[1] وهذا طبعا يخرجه – مع أتباعه – من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول – كما تشير مصادر عديدة – كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة – الممثل بالمذهب الصفري – قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

---

[1] المغرب، ص: 135.

وظهور النحلة البرغواطية ــ فيما بعد ــ بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية، وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة ــ مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب ــ ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا ــ أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى ــ قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي برباط بالجنوب

---

[1] أنظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: 139 ــ 140. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 226 ــ 227.

الغربي من بلاد الأندلس؛ وعلى ذلك فقد سمي كل من اتبعه ـ في بداية الأمر ـ برباطي؛ ومع الوقت حرفت التسمية تبعا لنطق الناس آنذاك؛ فقالوا في كل من أتبع مذهب صالح الصفري برغواطي.[1] غير أن عددا من المؤرخين يخالفون

---

[1] وعن صالح ونحلته يقول ابن أبي زرع: ((وكان أصله ـ لعنه الله ـ من بَرباط من عمل شذونة من بلاد الأندلس؛ فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برباطي؛ فعربته العرب، وقالوا برغواطي؛ فسموا برغواطة. وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا يهودي الأصل؛ من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام؛ نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق؛ فقرأ على عبيد الله المعتزلي القَدَري، واشتغل بالسحر؛ فجمع منه فنونا كثيرة. وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا؛ فوجد بها قبائل من البربر هالا؛ فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع؛ فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه؛ وأراهم من نوارجه [أي نميمته] وتمويهاته؛ فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته؛ فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه؛ فادعى النبوة، وتسمى بصالح المؤمنين. وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد e؛ وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك في سنة خمس وعشرين ومائة... وأنهم يصومون شهر رجب، ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات: خمسا بالليل، وخمسا بالنهار؛ وإن الأضحية واجبة على كل مسلم في الحادي والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين. وصلاتهم إيماء؛ لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات. ويقولون عند الطعام والشراب: باسم "ياكس"؛ وزعم أن تفسيره باسم الله. وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء؛ ولا يتزوج من بنات عمه؛ ويطلقون ويرجعون ألف مرة في اليوم. فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك. وأمرهم بقتل السارق حيث وجد؛ وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف. وأمرهم بالدية من البقر. وحرم عليهم رأس

هذا الرأي؛ من بينهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يكذب الأخبار التي تنسب صالحا هذا إلى اليهود، أو ترجع موطنه الأول إلى بلدة برباط، أو تقول أنه ذهب إلى المشرق؛ أين تعلم السحر، أو تزعم أنه قرأ على عبيد الله المعتزلي؛ ثم عودته إلى المغرب؛ أين وجد قوما من زناتة جهلة... إلخ. ثم ينتهي إلى القول: **((ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر. وهو من الأغاليط البينة. وليس القوم من زناتة؛ ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم؛ وليس من غيرهم؛ ولا يتم التغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه، دخيل في نسبه. سنة الله في عباده؛ وإنما الرجل في برغواطة؛ وهم شعب من شعوب المصامدة معروف)).**[1] ومع ذلك فما قاله ابن خلدون في هذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وفحص؛ فهو عندما نسب برغواطة إلى المصامدة. وحين أرجع مصدر تلك الأخبار ـ المرفوضة

كل حيوان؛ والدجاجة مكروه أكلها؛ وقد وقتهم في الأوقات الديكة؛ وحرم عليهم ذبحها وأكلها؛ ومن ذبح ديكا وأكله أعتق رقبة... ووضع لهم قرآنا يقرؤونه في صلواتهم)). الأنيس المطرب، ص: **83.** كما تكلم البكري أيضا عن بعض التفاصيل الأخرى تخص هذه النحلة. المغرب، ص ص: **135 ـ 140.** وقد أشار إليها أيضا ابن عذاري وابن الخطيب. البيان المغرب، ج: **1**، ص ص: **225 ـ 227.** أعمال الأعلام، ق: **3**، ص ص : **182 ـ 183.**

[1] العبر، مج: **6**، ص: **435.**

لديـه ــ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ــ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ــ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكري.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] المغرب، ص: 135.

[2] العبر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 432.

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ـ حسبما يبدو ـ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـــ 636.

[2] العبر، مج: 6، ص: 428.

الـذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. ويقول ابن خلدون أن أول ظهور له كان في عهد هشام بن عبد الملك.

أما ما راج من مزاعم تنسب طريفا أو صالحا إلى اليهود؛ يظهر أنها لم تكن سوى شكل من أشكال النبز والشتيمة.. والذي عزز تلك الافتراضات – حسبما يظهر – هي أسماء أجدادهما مثل: شمعون ويعقوب وإسحاق؛ ثم بعض الإشارات الأخرى التي تنبعث من معتقداتهم وأساطيرهم؛ التي وردت في قرآنهم المزعوم. وحتى إن صح نسبهم لليهود؛ فقد يكون ذلك حصل قبل الفتح؛ إذ يحتمل أن يكون طريف قد انحدر من أسرة كانت تعتنق ديانة يهودية؛ قبل أن يدخل الإسلام إلى ديار المغرب. وهذا أمر كان موجودا في تلك الربوع؛ إذ ذكرت مصادر تاريخية عديدة اعتناق بعض القبائل الأمازيغية للديانة اليهودية، إلى جانب المسيحية في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي. وطبعا فما المانع من التسليم بدخول من كان يهوديا أو نصرانيا إلى الإسلام؛ ضمن الأفواج التي دخلت فيه من أتباع الديانات الأخرى؟

ـ حكومة إلياس بن صالح البرغواطي:

وتقول بعض المصادر أن صالحا استخلف ابنه إلياس، ثم سافر إلى المشرق سنة 128هـ(745م). وذلك بعد أن أوصاه بإخفاء ديانتهم؛ حتى يقوى شأنهم؛ فيتسنى له ـ عندئذ ـ قتل المخالفين. كما أوصاه بأن يلتزم بموالاة ملوك بني أمية في الأندلس. وتقول بعض الروايات أيضا أنه أخبره بموعد عودته المقبلة؛ التي حددها بحلول عهد الملك السابع من ملوكهم؛ حيث قال أنه سيظهر لهم في شخص المهدي؛ الذي يقتل الدجال، ويملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا. ثم قال له: إن عيسى بن مريم عليه السلام سيكون من بين جنوده؛ إذ يصلي خلفه. ومن خلال ما جاء في بعض الروايات؛ تكون مدة حكم صالح قد دامت نحو ست سنين. ولما انتصب إلياس ملكا على قبائل برغواطة عمل بوصية والده؛ فلم يظهر شيئا من نحلة برغواطة؛ وتقول المصادر أنه كتمها ولم يخض في شأنها؛ وبالمقابل كان يظهر الإسلام، ويتحلى بالعفاف والصلاح. وبقي في الحكم ما يقارب الخمسين سنة.

ـ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ **شالة** حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[2] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا

---

[1] قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر، مج: **6**، ص: **430**.

[2] نقل البكري قائلا: (("قال أبو العباس فضل بن مفضّل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بَربَط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوت بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية)، ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ، ونظر في الكلام والجدال؛ وأخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الأندلس؛ فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة؛ فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب، ص ص: **137** ـ **138**.

الناس على إتباع نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربعِ على سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال

---

[1] **وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ ـ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم ـ)). المغرب، ص: 136.**

لـــه **بَهْــت**؛ فأحـــدث فيـــه مـــن القتـــل والتمثيـــل مـــا لا حصـــر لـــه. وكانـــت لـــه كذلـــك حـــروب عظيمـــة مـــع الأدارســـة؛[1] وقـــد خســـر في تلـــك الحـــروب كثيـــرا مـــن أتباعـــه وأراضيـــه؛ حـــتى **شالـــة** ــ عاصمـــة دولتـــه نفسهـــا ــ سقطـــت في أيـــدي إدريـــس بـــن إدريـــس؛ بالإضافـــة إلى مناطـــق واسعـــة مـــن تامسنـــا.[2]

---

[1] أعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 186. دولـــة الأدارســـة، ص: 280.

[2] وأبـــو غُفَيـــر هـــذا هـــو الـــذي جـــاء ذكـــره في القصيـــدة الـــتي قالهـــا سعيـــد بـــن هشـــام المصمـــودي؛ يهجـــو فيهـــا برغواطـــة؛ منهـــا:

قِــفِي قَبْــل التَّفَــرق فَاخْبِرينَــا
وقــُولِي وَاخْبِــرِي خَبَراً مُبِينَــا
هُمُــومَ بَرَابِر خَسِــرُوا وَضَلــُّوا
وخَابُــوا لاَ سُقُوا مَــاءً مَعِينَــا
يَقُولُــونَ: النــَّبِيُّ أبــُو غَفِيــرِ
فَأَخْــزَى اللَّـــهُ أَمَّ الكَاذِبِينَـــا
أَلَمْ تَسْمَــعْ وَلَمْ تَــرَ يَوْمَ بَهْــتٍ
عَــلَى آثَــارِ خَيْلِهِــمُ رَنِينَـــا
رَنِيــنَ البَاكِيَــاتِ بِهِــمْ ثُكَــالَى
وَعَاوِيَــةٍ وَمُسْقِطَــةٍ جَنِينَـــا
هُنَالِــكَ يُونُــسُ وَبَنُــو أَبِيــهِ
يُوَالُــونَ البَـــوَارَ مُعَظِّمِينَـــا
فَلَيــْسَ اليَــوْمَ رِدَّتُكُــمْ وَلَكِــنْ
لَيَــالِي كُنْتُــمُ مُسْتَيْسِرِينَـــا

(يقصـــد بكلمـــة مستيسريـــن أنهـــم كانـــوا مـــن أتبـــاع ميســـرة المطغـــري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه

---

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت ـ منذ نشأتها ـ إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو ـ بالطبع ـ شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي ـ في عهد المنصور بن أبي عامر ـ بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.

وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: **((بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله)).**[2] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم؛ مع أن الأثير الإسلامي متوفر أيضاً.

---

[1] المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.

[2] المغرب، ص: 140.

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ــ طيلة القرون التي عاشتها ــ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ــ من جهة أخرى ــ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**".

و**"فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها"**.[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ــ ولو بإيجاز ــ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ــ بعض الشيء ــ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)).

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ــ 589. 607 ــ 609.

وهذه العبارة توحي للقارئ باحتمال اعتناق سقوط للمذهب الخارجي. غير أن قول ابن حيان هذا قد يكون من قبيل التشنيع بسقوط؛ وتذكير الناس بأسلافه الصفرية. المهم أن سقوط وابنه ــ حسبما جاء في المصادر ــ لا علاقة لهما ببدع الامارات البرغواطية الأولى؛ وكل ما يربطهما ببرغواطة هو أنهما ينحدران من أصول عرقية برغواطية؛ كما أن جيشهما مكون ــ في معظمه ــ من شتات قبيلة برغواطة.

ــ حكومة سقوط البرغواطي:

تجمع المصادر على أن هذه الإمارة نشأت في سبتة وطنجة؛ بقيادة سقوط أو (سكوت) بن محمد البرغواطي، وبمساعدة زميله أبي العطاف رزق الله البرغواطي أيضا؛ والذي كان في طنجة. وربما تكون هذه الإمارة قد بدأت في الظهور لأول مرة؛ في شكل ولاية من ولايات الدولة الإدريسية الحمودية التي كانت قائمة بمالقة؛ ويرجح أن ذلك حصل بعد مقتل الفتى الصقلبي نجا في سنة 434هـ(1042م)؛ الأمر الذي أبقى سبتة خالية من شخص قوي يتولاها. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي أصبح فيه سقوط هذا واليا عليها.[1] وكل ما

---

[1] **لقد تضاربت الأقوال حول التاريخ الذي ولي فيه سقوط بسبتة. وقد ذكر ابن بسام أن يحيى بن علي بن حمود هو الذي ولى سقوط على سبتة؛ (المجلد الثاني من القسم الثاني، ص: 657. أنظر إلى ما جاء في التعليق**

عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ـ بعد إدريس بن علي بن حمود ـ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[1]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن على بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[2] ومرت فترة من

بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: 481.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ـ عندما جاز للأندلس ـ إلى أخيه إدريس بن علي؛ الذي كان ـ في عهد أبيهما ـ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي؛ خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 288. والمعجب، ص: 61). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 63). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول ابن عذاري: ((وكان سوَّجَّات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوَّجَّات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناضرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250. وهذا الخبر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ــ المتقدم الذكر ــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ــ لأول وقته يومئذ ــ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ــ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد ـ بعد ذلك ـ أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك ـ بالفعل ـ سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

الخضــراء ضمــن مملكتــه؛ وقــد تصاعــد خلافهمــا حــتى وصــل إلى الاقتتــال في البحــر سنــة 457هـ(1064م).[1] وكــان يشــد أزره ابنــه يحــيى؛ الــذي يقــوم مقــام وزيــره، إذ هــو المتصــرف في شئــون الدولــة؛ خاصــة بعــد أن كبــر سقــوط، وبعــد أن أثقلتــه السنــون. وظهــر هــذا مــن خــلال معارضتــه لأبيــه؛ حيــن أراد مساعــدة المرابطيــن ضــد قبائــل غمــارة [وعنــد ابــن بســام زناتــة]؛ فأقنعــه بالعــدول عــن ذلــك الأمــر.[2] المهــم أن

---

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((كــان سبــب ذلــك باعتقــال عبــاد لرجــل مــن تجــار سبتــة؛ في شــيء حضــره بحضرتــه؛ فاعتــدى عليــه سقــوت؛ فاعتقــل لــه عــدة تجــار؛ فنشــأت لذلــك بينهمــا وحشــة سنــة سبــع وخمسيــن [وأربعمائــة]؛ فامتطيــا لهــا ظهــر اللجــج؛ عــلى مــا بينهمــا مــن التطــام اللجــج؛ فتهافتــا عــلى القطيعــة، واجتمعــا عــلى عقــد البحــر بينهمــا؛ فتلفــت فيــه رؤوس وأمــوال، وهلكــت مــن أجلهــا نفــوس رجــال؛ يطــول في صفتهــا المقــال؛ إلى أن أكمــل عبــاد مــن أسطــول أنشــأه نحــوا مــن ثمانيــن قطعــة؛ فأجراهــا إلى سبتــة؛ فخــرج عليهــا أسطــول لسقــوت؛ فكــان الظهــور لابــن عبــاد؛ ثــم افترقــت الأساطيــل؛ بعــد حــروب وسفــك دمــاء؛ وانقطــع بحــر الزقــاق بينهمــا مــدة استهمــا اجتــرار منافعــه فيهــا. ثــم يضيــف ابــن بســام قائــلا: ثــم غلــظ أمــر سقــوت؛ حــتى أخــاف القريــب والنــازح، واقتــاد الحــرون والجامــح، وانبثــت سرايــاه في البحــر والبــر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ــ 660.

[2] يقــول ابــن بســام ((ودارت النوبــة عــلى سقــوت بــن محمــد؛ فتطــرف أميــر المسلميــن ــ رحمــه اللــه ــ بلــده للفــراغ ممــن شــذ عنــه مــن زناتــة؛ وقــد التفــوا بأحــد محــاش الفتنــة، ووألــوا إلى موضــع يعــرف بالدمنــة؛ فنــزل بساحتهــم أميــر المسلميــن؛ سنــة إحــدى وسبعيــن [وأربعمائــة]؛ عــلى مقربــة مــن بــلاد سقــوت؛ فهــم بالانحيــاش إليــه؛ فقــد كــان آل وآيــل عليــه؛ فنهــاه حزبــه الذميــم السعــي، وثنــاه ابنــه الفائــل الــرأي)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقــال أحمــد الناصــري: ((إلى أن استقــل [سقــوط] بالأمــر، واقتعــد كــرسي عملهــم [عمــل الحموديــين] بطنجــة وسبتــة؛ وأطاعتــه قبائــل غمــارة؛ واتصلــت أيــام ولايتــه إلى أن

جيش لمتونة ــ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ــ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: ((ألاّ **يسمع قرع طبله في ملكه))**.[1] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ــ 31.

[1] مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] **الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ـ 56.**

[2] **قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم**

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ــ مرة أخرى ــ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ــ لأول ذلك اليوم ــ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ــ يومئذ ــ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ــ رحمه الله ــ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ــ رحمهما الله ــ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ــ 664.

ليلة بكاملها. ويقول صاحب مفاخر البربر: أنه لما مثل أمام المعز بن يوسف بن تاشفين ((**فطلب منه المال؛ فقال له: "ألخازن أبيك كنت نجمع المال؟" فحلله الحسام، وحكم فيه الحمام**)).[1] وانتهى بذلك أمر ضياء الدولة العز بن سقوط؛ إذ قتل في ربيع الآخر من سنة 477هـ(1084م). وبذلك انتهت دولة سقوط البرغواطي نهائيا.

****

[1] **مفاخر البربر، ص ص: 56 ــ 57.**

- **الحضارة والحركة الثقافية:**

يبدو أن سبتة في عهد سقوط البرغواطي لم تكن في مستوى يؤهلها للقيام بدور ثقافي معين بين سكانها. وعلى الرغم من أنها كانت كرسيا لحكم بعض الأدارسة من الحموديين؛ إلا أنها لم تظهر أي دور ثقافي وعلمي يستحق التنويه. وإن كان البكري ـ الذي عاصر سقوطا ـ يقول عن سبتة: ((**ولم تزل دار علم**)).[1] ومع هذا فلا بد أن يكون للأندلس بعض الأثر في الحركة الثقافية بتلك المدينة، خاصة في بعض المنجزات الحضارية والعمرانية كالمساجد والحمامات. غير أنه سجل في الزمن الذي تلا عصر سقوط هذا؛ ازدهار علمي ملحوظ في سبتة؛ تلك المدينة التي أضحت مركز علم وثقافة مرموق في المغرب والأندلس.[2] أما عصر سقوط فيمكن أن يعبر عنه خطابه لابن جهور أمير قرطبة؛ الذي يقال أنه طلب فيه منه أن يرسل إليه قارئا للقرآن. وربما دل هذا على ندرة القراء في سبتة في تلك الأثناء.[3] كما أن

---

[1] المغرب، ص: 103.

[2] للتوسع في هذا الأمر يمكن الرجوع إلى كتاب المقري أزهار الرياض في أخبار عياض؛ ففيه ما يفيد.

[3] أورد ابن عذاري خبرا قال فيه: ((وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال: "وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات [سقوط] صاحب سبتة يطلب قارئا يقرأ القرآن". فوجه من طلبة قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح. وعجب أبو الوليد

الإشـــارة الساخـــرة الـــتي أطلقهـــا أبـــو الوليـــد الشقنـــدي في رسالتـــه الـــتي يفاخـــر فيهـــا ببـــلاد الأندلـــس والأندلسيـــين؛ تبـــرز صـــورة سقـــوط الـــتي كانـــت في ذهـــن المثقفيـــن آنئـــذ؛ وذلـــك حيـــن قـــال لأبي يحـــيى بـــن المعلـــم الطنـــجي: ((**وباللـــه إلا سميـــت لي بمـــن تفخـــرون قبـــل هـــذه الدعـــوة المهديـــة** [يقصـــد دعـــوة الموحديـــن] **أبسقـــوط الحاجـــب؟ أم بصالـــح البرغـــواطي؟**)).[1] ومـــع هـــذا لا سبيـــل إلى نكـــران أن بـــلاط ضيـــاء الدولـــة يحـــيى ابـــن سقـــوط بسبتـــة احتضـــن ــ يومـــا مـــا ــ شاعـــرا مثـــل عـــلي بـــن عبـــد الغـــني الحصـــري الضريـــر؛[2] صاحـــب القصيـــدة الذائعـــة الصيـــت الـــتي يقـــول فيهـــا:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَـــامُ السَّاعَةِ مَوْعِـــدُهُ

رَقَدَ السُّمَّـــارُ فَأَرَّقَـــهُ أَسَـــفٌ لِلبَيْـــنِ يُـــرَدِّدُهُ

وقـــد اتصـــل هـــذا الشاعـــر الفحـــل ــ أثنـــاء مقامـــه بسبتـــة وطنجـــة ــ بضيـــاء الدولـــة يحـــيى بـــن سقـــوط

مـــن ذلـــك وقـــال: "جاهـــل يطلـــب قارئـــا، وعلمـــاء يطلبـــون الأباطيـــل")). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 250.

[1] نفـــح الطيـــب، ج: 3، ص: 191.

[2] ذكـــره ابـــن بشكـــوال فقـــال: ((ذكـــره الحميـــدي وقـــال: " شاعـــر أديـــب رخّـــم الشعـــر؛ دخـــل الأندلـــس ولـــقي ملوكهـــا؛ وشعـــره كثيـــر، وأدبـــه موفـــور. وكـــان عالمـــا بالقـــراءات وطرقهـــا؛ وأقـــرأ النـــاس بالقـــرآن بسبتـــة وغيرهـــا. أخبرنـــا عنـــه أبـــو القاســـم بـــن صـــواب بقصيدتـــه الـــتي نظمهـــا في قـــراء نافـــع؛ وهي مائتـــا بيـــت وتسعـــة أبيـــات. قـــال لقيتـــه بمرسيـــة سنـــة إحـــدى وثمانيـــن وأربعمائـــة. وتـــوفي بطنجـــة سنـــة ثمـــان وثمانيـــن وأربعمائـــة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ــ 433.

البرغـــواطي؛ حيــث كانــت لـــه حظـــوة عنـــده؛ وهـــذا مـــا سجلـــه ابـــن بســـام حيـــن قـــال: ((**وأفضـــت الدولـــة البرغواطيـــة إلى الحاجـــب المعـــز ابنـــه** [أي ابـــن سقـــوط] **شهـــاب أفلاكهـــا، وخيـــرة أملاكهـــا. هـــبَّ الأدب ريحـــا، ونفخـــت دولتـــه في أهلـــه روحـــا. أعـــرض بـــه الشعـــراء وأطالـــوا، ووجـــدوا بـــه السبيـــل إلى المقـــال فقالـــوا. وممـــن خيـــم في ذراه، ونـــال مـــن الحـــظ الجسيـــم مـــن دنيـــاه؛ الحصـــري الضريـــر؛ فـــإن لـــه فيـــه مـــا اذهـــل الناظـــر عـــن الرقـــاد، وأغـــنى المسافـــر عـــن الـــزاد؛ والحاجـــب يكحـــل عينيـــه بزينـــة دنيـــاه، ويفتـــق لهاتـــه بمواهبـــه ولهـــاه. وكـــان** [يحـــيى] **سهـــل الجانـــب للقصـــاد، طلـــق اليـــد بالمواهـــب الأفـــراد**)).[1] لـــذا فـــلا يستبعـــد أن يكـــون بـــلاط سقـــوط ـــ وخاصـــة ابنـــه ضيـــاء الدولـــة ـــ قـــد عـــرف حركـــة ثقافيـــة ـــ ولـــو متواضعـــة ـــ إذ يكونـــان قـــد أرادا بذلـــك تقليـــد ملـــوك الأندلـــس والمغـــرب.

****

---

[1] الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ـــ 662. أنظر أيضا مفاخـــر البربـــر، ص: 55.

2)ـ دولة بني مدرار:

تنسب هذه الدولة ـ أيضا ـ إلى مدينة سجلماسة ذات الموقع القريب من مدينة تافيلالت الحالية. ويبدو أن هذه الدولة نشأت قبل تشييد مدينة سجلماسة[1] المنسوبة إليها أصلا؛ إذ كانت عبارة عن إمارة قبلية؛ ذات طابع بدوي. وقد سميت ـ أيضا ـ بدولة بني واسول؛ وهو أحد أجداد بني مدرار. هذا وقد تباينت الأخبار ـ بعض الشيء ـ حول بدء قيامها؛ غير أن المهم ـ هنا ـ هو أن هذه الدولة تأسست في عام 140هـ(757م)؛[2] بعد أن تجمعت فئات من قبيلة

---

[1] أنظر رأي ابن خلدون في الكيفية التي يحدث بها ذلك النشوء؛ ضمن "فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار؛ وأنها إنما توجد ثانية عن الملك" إذ يقول: ((وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة كما قدمناه؛ وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة، وبناء كبير؛ وهي موضوعة للعموم، لا للخصوص؛ فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون؛ وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى؛ حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطرين بعصا الملك؛ أو مرغبين في الثواب والأجر؛ الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 966.

[2] أما البكري فقال أنهم شرعوا في بناء سجلماسة في عام 104هـ؛ وهذا لا يتطابق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر. لذا فالراجح أن يكون ما ورد في المغرب تحريفا في النسخ. المغرب، ص: 149.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ـ في حقيقة الأمر ـ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكـــذا نـــرى كيـــف يتكـــرر بطـــش الصفريـــة بأمرائهـــم؛ فبعـــد قتـــل أميـــر الصفريـــة الأول (ميســـرة)؛ بتدبيـــر مـــن أصحابـــه؛ يقتـــل أميـــر ثـــان ــ مـــرة أخـــرى ــ بواسطـــة أتباعـــه مـــن الصفريـــة بسلجماســـة.[1]

ــ حكومـــة أبي القاسم سمغـــون بن واســـول المكنـــاسي:

وبعـــد أن قتـــل الصفريـــة إمامهـــم عيـــسى بـــن يزيـــد؛ ولـــوا عليهـــم بـــدلا منـــه أبـــا القاســـم سمغـــون بـــن واســـول بـــن يـــزلان بـــن يـــزول المكنـــاسي.[2] ويقـــول ابـــن خلـــدون أن أبـــا القاســـم سمغـــون[3] هـــذا هـــو الـــذي حمـــل

طلـــوه بالعســـل، وتركـــوه حـــتى قتلتـــه الزنابيـــر والنحـــل؛ فســـمي ذلـــك الجبـــل جبـــل عيـــسى؛ وولـــوا بعـــده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[1] للتوســـع في موضـــوع دولـــة مكناســـة بسجلماســـة يستحســـن الرجـــوع إلى: كتـــاب المغـــرب، ص ص: 148 ـــ 152. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 156 ـــ 157. والعبـــر، مج: 6، ص ص: 267 ـــ 273. وأعمال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

[2] وذكـــر ابـــن الخطيـــب أن أبـــا القاســـم هـــذا هـــو الملقـــب بالمـــدرار. دخـــل جـــده الأندلـــس مـــع طـــارق ابـــن زيـــاد. كمـــا قـــال أنـــه كـــان حـــدادا مـــن أهـــل الربـــض بقرطبـــة؛ فلجـــأ إلى سجلماســـة؛ حيـــث تقـــرب مـــن أبي الخطـــاب الصفـــري رئيـــس الصفريـــة فيهـــا بســـلاح صنعـــه بنفســـه؛ فاستحســـنه أبـــو الخطـــاب وقربـــه وقدمـــه عـــلى غيـــره. ولمـــا تـــوفي أبـــو الخطـــاب سنـــة 191هـــ ولي مكانـــه.

[3] عـــرف ابـــن خلـــدون بـــأبي القاســـم هـــذا بقولـــه: ((واجتمعـــوا بعـــده [أي بعـــد عيـــسى ابـــن يزيـــد الأســـود] عـــلى كبيرهـــم أبي القاســـم سمغـــون بـــن مصـــلات بـــن أبي يـــزول؛ كـــان أبـــوه سمغـــون مـــن حملـــة العلـــم؛ ارتحـــل إلى المدينـــة؛ فـــأدرك التابعيـــن؛ وأخـــذ عـــن عكرمـــة مـــولى بـــن عبـــاس؛ ذكـــره عريـــب بـــن حميـــد في تاريخـــه. وكـــان صاحـــب ماشيـــة؛ وهـــو [أبـــو القاســـم] الـــذي بايـــع لعيـــسى بـــن يزيـــد؛ وحمـــل قومـــه عـــلى طاعتـــه؛ فبايعـــوه مـــن بعـــده)). العبـــر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 268. أمـــا البكـــري فيـــرى أن أبـــا القاســـم هـــو الـــذي لـــقي عكرمـــة بإفريقيـــة وسمـــع منـــه. المغـــرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى ابن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ــ للمرة الثانية ــ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هذا ولا يعرف ـ بالضبط ـ سبب ذلك الخلاف بين الأخوين. كما لا يعرف إن كان ميل الرعية إلى ابن تقية مبعثه إلى صلاحه وتقواه، أم إلى سبب آخر؛ ربما تعلق بالعصبية القبلية التي ترى في أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أنها من أسرة ليست مكناسية منهم. هذا ولم يطل الزمن بمدرار بعد تلك الأحداث حتى مات سنة 253هـ(866م)؛ وقد دام ملكه كله زهاء خمس وأربعين سنة. أما ولده ميمون بن تقية فقد بقي في الحكم حتى توفي سنة 263هـ(876م).

ـ حكومة محمد بن ميمون المكناسي:

وبموت ميمون بن تقية تولى الحكم من بعده ولده محمد الذي ـ كما قال ابن خلدون ـ كان متمذهبا بالإباضية. وهنا تبرز إشارة لما يمكن أنه حدث من تحول مذهبي في عهد الأمير مدرار. ويقول ابن الخطيب أن محمدا هذا غزا أرض القبلة ـ أي الجنوب ـ حيث تغلب على **"تافلبالت"** [ربما كانت تابلبالت الحالية القريبة من بشار]. هذا وقد توفي محمد بن ميمون في سنة 270هـ(883م). ومع ذلك فقد كانت أخبار عهد محمد هذا شحيحة، وغير كافية لتحديد صورة واضحة لها.

ـ حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ ـ مع ابنه أبي القاسم ـ إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع ـ الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه ـ فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده ـ بدوره ـ يكتنفه غموض كثيف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم ابن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ــ قبل عودته إلى إفريقية ــ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: ((**واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ــ 642.

[2] نفسه، ص: 638.

رجــلا مــن بــني مــدرار ليأمــن شغبهــم؛ فــولى عليهــا **المعتــز بــن محمــد)).**[1] وحــتى إن كــان هــذا التعليــل صحيحــا؛ فــلا يمنــع أن اختيــار مكناسيــا؛ مــن البيــت المالــك في سجلماســة يكــون قــد أراحــه نفسيــا. هــذا وقــد بــقي المعتــز في الحكــم إلى أن تــوفي في عــام 321هـ(933م). ثــم تــلاه بعــد مماتــه ولــده محمــد بــن المعتــز الــذي تــوفي بــدوره في سنــة 331هـ(942م). ثــم خلفــه ولــده الصــبي المنتصــر سمغــون؛ فتولــت جدتــه تدبيــر شئونــه؛ ولكــن ابــن عمــه محمــد بــن الفتــح الملقــب بالشاكــر ثــار ضــده، وأخرجــه مــن سجلماســة سنــة 332هـ(943م).

ـ حكومــة الشاكــر محمــد بــن الفتــح المكنــاسي:

انتقــل محمــد الشاكــر ـ هــذا ـ نقلــة مخالفــة تمامــا لمــا كــان عليــه أسلافــه؛ إذ دعــا إلى نفســه في المنابــر؛ ثــم تــسمى بالشاكــر، وتلقــب بأميــر المؤمنيــن؛ ثــم ســك سكــة عرفــت بالدراهــم الشاكريــة. ومــع هــذا فقــد أبــقى عــلى الدعــوة لبــني العبــاس بغــرض التمويــه؛ كمــا يعتقــد ابــن خلــدون؛ وأهــم نقلــة انتقلهــا هي تخليــه عــن المذهــب الخــارجي؛ حيــث أخــذ بالمذهــب المالــكي الســني.[2] وتجمــع المصــادر أنــه عــرف بالعــدل والصــلاح؛ وذكــر ابــن حــزم أنــه:

---

[1] أعمــال الأعــلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغــرب، ص: 151. والعبــر، مج: 6، ص: 270. أنظــر كتــاب نقــط العــروس في تواريــخ الخلفــاء لابــن حــزم، ((رسائــل ابــن حــزم الأندلــسي) ج: 2، ص: 85.

((كـان غايـة في إظهـار العـدل، وتسـمى الشاكـر لله، وإليـه تنسـب المثاقيـل الشاكريـة)).[1] ويعتبـر موقـف الشاكـر هـذا كافيـا لاستثـارة الفاطمييـن؛ الذيـن شغلتهـم ـ في البدايـة ـ فتـن بـني أبي العافيـة، وأبي يزيـد مخلـد ابـن كيـداد. ولمـا استتـب الأمـر للدولـة أرسـل المعـز لديـن اللـه الفاطـمي جيشـا مـن كتامـة وصنهاجـة إلى سجلماسـة؛ ووضـع عـلى رأس ذلـك الجيـش جوهـر الكاتـب (الصقـلي)؛ فتغلـب عليهـا. وقـد تمكـن الشاكـر ـ في بدايـة الأمـر ـ مـن الإفـلات واللجـوء إلى حصـن قريـب مـن سجلماسـة يسـمى تاسكـرات؛ ولكـن سـوء حظـه أوقعـه في قبضـة الفاطمييـن؛ عندمـا دخـل سجلماسـة متنكـرا؛ فعرفـه رجـل مـن قبيلـة مطغـرة؛ فأخبـر الفاطمييـن عنـه؛ الأمـر الـذي سهـل القبـض عليـه؛ حيـث نقلـه جوهـر معـه إلى القيـروان في سنـة 347هـ(958م). أيـن حبـس في رقـادة حـتى مـات في سجنـه سنـة 354هـ(965م). أمـا سجلماسـة فقـد أسنـد جوهـر الكاتـب ولايتهـا إلى مبـادر بـن زيـري.

---

[1] رسالـة نقـط العـروس في تواريـخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

---

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ـــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ـ كسابقتها دولة برغواطة ـ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ــ بدءا بعهد مدرار ــ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ــ المتعطشين للعلم ــ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2]

---

[1] المغرب، ص ص: 149 ــ 150.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ــ 113. ج: 2، ص: 502.

من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم – مع أبي يزيد ابن كيداد – في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا – طبعا – على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

****

3)– الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت – بعد ذلك – تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه – أيضا – في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 – 110.

شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد بن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

---

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين ومباية هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو غيضة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: 68.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حوْلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ ... وَيَومُ الهَوَى حَولٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ

وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى ... وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ

سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً ... بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحلُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا ... وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها ـ حسب بعض الروايات ـ بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[1] حيث ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَانْشَقَّتِ العَصَى
تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَلُّ
سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِقْ يَوْمَ بَيْنِنَا
سَلاَماً وَلَكِنْ فَارَقَتْ وَبِهَا ثُكْلُ
وَمَا هِيَ آمَاقٌ تَفِيضُ دُمُوعُهَا
وَلَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَتَنْسَلُّ)).

البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 198 ــ 199.

[1] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها [عدَّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُّول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتُش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا أن بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ــ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ـ ولو شكلية ـ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ـ بعد أن مات بعلها في الحج ـ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ـ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ـ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

[1] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ـ 30.

[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 968.

ومن الضروري التنبيه – هنا – إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 – 638.

لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ــ بهذا الاعتبار ــ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ــ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ــ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[1] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد

---

[1] ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـ من أهل النظر منهم ـ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي رضي الله عنه؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته ـ في بداية الدولة ـ ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال ـ بعد فترة ـ مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 83 ـ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ـ في الأول ـ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ـ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

---

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.

[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ـ 47.

بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا.

وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ـ مدة طويلة ـ قبل أن تتمكن من التغلب

---

[1] السير، ص ص: 88 ـ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ـ 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

عليهـم؛ بمساعـدة جماعـة مـن نفوسـة.[1] والقصـة طويلـة؛ ولكـن خلاصتهـا في النهايـة؛ انتهـت بهزيمـة الواصليـة في مجـالات الحـرب، والمجـادلات الكلاميـة. وعندهـا اختـار أصحابهـا مهادنـة الدولـة. وثمـة مـن يعتقـد بـأن محـرك هـذه الجماعـة هـو شيـخ أوربـة بأوليـلي إسحـاق بـن محمـد بـن عبـد الحميـد الأوربي؛ المبايـع لإدريـس بـن عبـد اللـه؛ وكـان ــ كمـا قـال البكـري ــ معتزليـا. ومـن جهـة أخـرى فقـد ذكـر الشهرستـاني ــ في فصـل الواصليـة ــ أن فئـة منهـم

---

[1] وعـن هـذا يقـول أبـو زكريـاء: ((وهـم قـوم مـن البربـر؛ أكثرهـم مـن قبائـل زناتـة؛ وذلـك حيـن أحسـوا ببعـض الفرقـة في الإباضيـة؛ وأرادوا أن ينتهـزوا بعـض الفرصـة؛ فبلـغ الإمـام ذلـك؛ فاعتـذر إليهـم مـرة بعـد مـرة؛ وقـد نشـأ إذ ذاك مـن الواصليـة شـاب حـدث السـن، شجـاع، عظيـم، بطـل لا يقـاوم لـه شيء؛ وهـو ابـن سيدهـم، وعمدتهـم. وفيهـم رجـل منتحـل للمناظـرة؛ يـذب مـن مذهبـه؛ وقـد جـرت بينـه وبيـن الإمـام مناظـرات كثيـرة؛ وكـان شديـد المعارضـة، حديـد العارضـة. فتكاثفـت كلمـة الواصليـة، واجتمعـوا مـن كـل نقـب، وجـازوا مـن كـل أوب؛ فانحـازوا عـن تاهـرت، وأخـذوا جبالهـا؛ وهـم أصحـاب العمـود؛ وأظهـروا مخالفـة الإمـام ــ رضي اللـه عنـه ــ فاعتـذر إليهـم؛ وخـرج إليهـم بعساكـر كثيـرة؛ فقاتلهـم مـرة بعـد مـرة. وكـان الفـتى المعـروف بالنجـدة والشجاعـة؛ لا يـدرك أحـدا إلا قتلـه... فلمـا رأى الإمـام ــ رضي اللـه عنـه ــ ذلـك، وأن حربهـم جـد؛ أرسـل إلى جبـل نفوسـة يستمدهـم؛ أن يبعثـوا إليـه جيشـا نجيبـا؛ يكـون فيـه رجـل ذو علـم بفنـون الـرد عـلى المخالفيـن، ورجـل عالـم بفنـون التفسيـر، ورجـل شجـاع بطـل نجـد يبـارز الفـتى المعتـزلي الموصـوف بالشجاعـة... واتفـق رأيهـم عـلى أن يبعثـوا لـه بأربعـة نفـر: أحدهـم مهـدي [النفـوسي الويغـوي]، والآخـر أيـوب بـن عبـاس، والثالـث محمـد بـن يانـس، والرابـع لـم يبلغنـا اسمـه؛ وقـد قيـل أن اسمـه أبـو محمـد فـارس...)). السيـر، ص:102.

متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ـ من بعده ـ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى.

---

[1] الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.

[2] سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 430 ــ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 431. 491 ـ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ـ بدقة ـ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ــ في الحقيقة ــ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث ابن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ــ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها.

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ــ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ــ 82.

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَة قومه في

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدِّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ـ في حياته إذ ذاك ـ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان.

اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَةِ؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزِع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنَى أوَّلُوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوَّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ـ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم ـ وفي عهد أبي بكر هذا ـ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ـ في أواخرها ـ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ـ بدءا بعهد أبي بكر هذا ـ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] **وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.**

ـ حكومـــة أبي اليقظـــان محمـــد بـــن أفلـــح:

بويــع أبــو اليقظـــان بالإمامـــة سنـــة 241هـ خـــارج تيهــرت؛ أثنـــاء الفتنـــة الـــتي تسبـب فيهـــا أخـــوه أبـــو بكـــر. حـــدث ذلـــك بعـــد لجوئـــه إلى حصـــن لواتـــة المحـــاذي لتسلونـــت؛ أيـــن ينبـــع نهـــر مينـــا. ولمـــا ولي شئـــون الدولـــة عمـــل مـــن فـــوره إلى إخمـــاد الفتنـــة، وعقـــد صلحـــا مـــع بـــني مسالـــة الهوارييـــن الذيـــن تغلبـــوا علـــى تيهـــرت. هـــذا وقـــد لعبـــت نفوســـة دورا هامـــا في إعـــادة الميـــاه إلى مجاريهـــا، وتمهيـــد الأمـــر لعـــودة الدولـــة بقيـــادة أبي اليقظـــان. وبالفعـــل دخـــل إمـــام الإباضيـــة مـــن جديـــد إلى تيهـــرت؛ بغـــرض إصـــلاح مـــا تصـــدع، وعـــلاج مـــا أفســـده الدهـــر والعبـــاد.

ومـــع ذلـــك لـــم تجـــد إصلاحـــات أبي اليقظـــان في إنعـــاش هـــذه الدولـــة؛ لأن الـــداء أصبـــح مزمنـــا والعـــلاج مستحيـــلا. خاصـــة عندمـــا اتضح أن العامـــل الديـــني ـــ هـــو بـــدوره ـــ أخـــذ مفعولـــه يتـــلاشى ويضعـــف في حيـــاة تلـــك الدولـــة. كمـــا أصبحـــت عصبيـــة البيـــت المالـــك فاقـــدة لتلاحمهـــا وفاعليتهـــا. عندئـــذ بـــرز الوجـــه الآخـــر للعصبيـــة؛ كاشفـــا عـــن العيـــوب، والسلبيـــات الـــتي كبحهـــا الديـــن وضبـــط مفعولهـــا ومؤثراتهـــا مـــن قبـــل. غيـــر أن بـــوادر هـــذا الأمـــر السلـــبي بـــدأت ـــ في الحقيقـــة ـــ تظهـــر منـــذ عهـــد الأميـــر الثـــاني؛ ولكـــن الدولـــة كانـــت مازالـــت قويـــة بعصبيتهـــا، وبمذهبهـــا الديـــني. ولمـــا حـــل عهـــد أبي بكـــر أخـــذ التنافـــس، والتحاســـد يهيمنـــان علـــى كيـــان التحالـــف القبـــلي المسانـــد للدولـــة.

وهكذا؛ أضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1]

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقنعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ــ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلــت كمــا قــال النــواسي قبلهــا

((عزيــز علينــا أن نــراك تســيــر))

فقلــت جفــاني يوســف بن محمــد

فطــال عــلي الليــل وهــو قــصيــر

أبا حاتــم ما كان ما كــان بغضـــة

ولكــن أتــت بعــد الأمــور أمـــور

فأكرهــني قــوم خشيــت عقابــهــم

فداريتهــم، والدائــرات تـــدور

وأكـــرم عفـــو يؤثـــر الناس أمـــره

إذا مـــا عفـــا الإنســـان وهـــو قديـــر

كمــا قــال لــه لمــا مثــل بيــن يديــه:

مــاذَا يُدَبــرُ رَبنــا فِي أمْــرِهِ

سُبحانــهُ فِي أرْضــهِ وَسمائِــهِ

رَدَّ المُلــوكَ إلَى مَحــلِّ قرَارِهِــمْ

مُسْتبْشِرِيــنَ بِفضلِــهِ وَعَطائِــهِ

فتبَــارَكَ اللــهُ اللطِيــفُ بِصنُعِــهِ

مَا أغفــلَ الثقليْــنِ عَــنْ نِعمَائِــهِ

رَفَـــعَ السمـــاءَ بـــلاَ عِمَـــادٍ بَيِـــنٍ

وَالبَحـــر أمْسَكـــهُ عَلَى أرْجائـــهِ

لـــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَـــادِ بمَوْجِـــهِ

وَعَلى الجبَـــالِ الرَّاسيَاتِ بمَائـــهِ

أخَـــذَ البـــلاَدَ بِسَيفِـــهِ فاستَسْلمَـــتْ

وَبعَدْلـــهِ وَبفضْلِـــهِ وَسَخائـــــهِ

ومـــن شعـــر أبي عبـــد الرحمـــن بكـــر بـــن حمـــاد الزنـــاتي في وصـــف البـــرد بتاهـــرت قولـــه:

مَـــا أخْشَـــنَ البَـــرْدَ وَرَيعَانـــهُ

وَأطـــرَفَ الشمْـــــسَ بتاهَـــرْتِ

تَبـــــدُو مِنَ الغيـــمِ إذا مَا بَـــدَتْ

كأنهَـــا تنشَـــــرُ مِـــن تخـــــتِ

نَحْـــنُ فِي بَحْـــرٍ بَـــلاَ لجَّـــــةٍ

تَجْـــرِي بِنَا الرِّيـــحُ عَلَى السَّمْـــتِ

نفـــرَحُ بِالشَّمْـــسِ إذا مَـــا بَـــدَتْ

كفرْحَـــةِ الـــذمِّي بِالسَّـــبْـــــتِ

ويقـول في تيهـرت بعـد تخريبهـا مـن طـرف الفاطميـين سنـة 296هـ(908م)؛ وهي السنـة نفسهـا الـتي تـوفي فيهـا ابـن حمـاد. فقـال:

زُرنـا مَنـازِلَ قـوْمٍ لمْ يَزُورُونـا

إنـا لـفِي غفلـةٍ عَمـا يُقاسونـا

لو يَنطِقـونَ لقالوا: الزَّاد وَيحَكـمُ

حَلَّ الرَّحِيلُ فمَا يَرْجُـو المُقِيمِينـا

الموْتُ أجْحَـفَ بِالدُّنيـا فخرَّبهَـا

وَفعَلنـا فِعْـلَ قـوْمٍ لاَ يَمُوتونـا

فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكـاءُ لكـمْ

فالحامِلونَ لِعَـرشِ اللـهِ باكونـا

مَاذَا عَسَى تنفـعُ الدُّنيـا مُجَمِّعِهَـا

لوْ كانَ جَمـعَ فِيهَا كنـزَ قارُونـا

ثـم ولـده أبـو زيـد عبـد الرحمـن بـن بكـر بـن حمـاد؛ قـال فيـه ابـن الفـرضي: ((**عبـد الرحمـن بـن بكـر بـن حمـاد التيهـرتي الشاعـر؛ مـن أهـل القيـروان؛ يكـنى أبـا زيـد؛ قـدم الأندلـس. حـدث عـن أبيـه، وكتـب عنـه غيـر واحـد مـن شعـر أبيـه وحديثـه**)).[1] ويقـول ابـن الفـرضي أنـه تـوفي بقرطبـة؛

---

[1] **تاريـخ علمـاء الأندلـس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ تولَوْا
وَلوْ أنِّي هَلكتُ بَكوْا عَليا

فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا

كفَى حُزناً بِأننِي مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبقيتُ حيا

وَلمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا

فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا

تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا

فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا

فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعهَا عَلِيٌّ يَا أخيا

وَليـــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــــارٌ

تـــدُورُ لـــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيـــــا

ورثــاه بقصيــدة أخــرى أيضــا فقــال:

وَهــوَّنَ وَجــدِي أننِي بكَ لاَحِــقٌ

وَأنَّ بَقــائِي فِي الحيــاةِ قليــلُ

وَأنْ ليـــسَ يَبــقَى لِلحَبيبُ حَبيبــهُ

وَليـــسَ ببـــاقِ لِلخليــلُ خلِيــلُ

وَلوْ أنَّ طولَ الحـــزْنِ مِما يَــرُدُّهُ

للاَزَمـــنِي حـــزْنٌ عليـــهِ طوِيــلُ

بلى رُبما دَارَتْ علَى القلبِ لوْعَـــة

فيرجعُهـــا صَبـــرٌ هنـــاكَ جميــلٌ

تبـــدَّدَ مَا قدْ كـــانَ مِنـــكَ مُجمعـــاً

وَجللـــهُ رَمـــلٌ عليـــك مهيـــــلُ

فـــلاَ عَلـــمٌ يُنبيـــكَ أيـــنَ مَحلـــهُ

وَلاَ جَـــدَثٌ يُشـــفَى عليـــهِ غلِيـــلُ

خلاَ أعْظـــمٍ قدْ بـــدِّدَتْ وَمَفاصِـــلٍ

تمِيـــلُ بها الأرْيـــاحُ حَيثُ تمِيـــلُ

وممن ينسب – أيضا – إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلغَ الوُشاةُ عَلَيَّ حَيثُ أرَادُوا
وَاللهُ يَسْألهمْ ومَا قدْ كادُوا

وَاللهُ يَعلمُ أنني مَا قلتُ مَا
قالَ الوُشاةُ تأفكاً وَأعادُوا

فهبِ الوُشاةُ أتوْا بأمرٍ بَينٍ
أينَ الكِرَامُ أبدَّلوا أمْ بادُوا

عفوُ الملوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائحٌ
مَدَحوا نفوسَهمُ بها فأجادُوا

ولما وصل إليه خبر – غير مؤكد – بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلوْ كَافتقادِ الناسِ قبلِي بَيْنهمْ
أتِيحَ لهُ مُوْتٌ وَأضمَرَهُ قبرُ

إذَنْ لصَبَرْتُ النفــسَ ثمَّ احتسبتــهُ

لِيعظُــمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِــهِ الأجــرُ

ولَكِنْ طــوَتْ عنِّي المَقادِيرُ أمــرَهُ

فمالِي بهِ مِنذُ انتــآى شخصُهُ خبــرُ

فرَحْمتــكَ اللهــمَّ قــدْ بلَــغَ الأسَى

نِهاية مَجهودِي وَقدْ غلِــبَ الصَّبــرُ

كمــا كــان جــل أئمــة الدولــة ــ أنفسهــم ــ مــن العلمــاء والأدبــاء. فمؤســس الدولــة عبــد الرحمــن بــن رستــم؛ يعتبــر مــن كبــار علمــاء الإباضيــة، كمــا كــان ولوعــا بأشغــال العمــارة، ويباشرهــا بنفســه؛ وإن اعتبــر مــا ينجــزه منهــا بسيــط المظهــر. أمــا ولــده عبــد الوهــاب فقــد عــرف بتبحــره في العلــوم، وولعــه الشديــد بالكتــب؛ إذ تقــول المصــادر أنــه بعــث إلى المشــرق ألــف دينــار لشــراء الكتــب؛ فأرسلــت إليــه الكتــب الــتي قــدرت بأربعيــن حمــلا. ويقــال أنــه كــان ضليعــا في العلــوم الشرعيــة وعلــم الفرائــض والتنجيــم. أمــا ولــده الإمــام أبــو سعيــد أفلــح فكــان ــ بــدوره ــ عالمــا جليــلا في علــوم وفنــون شــتى؛ ومــن شعــره قصيــدة في مــدح العلــم تصــل أبياتهــا إلى الأربعيــن؛ منهــا:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

وذو حياة على جهل ومنقصة
كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا

لله عصبة أهل العلم إن لهم
فضلا على الناس غيابا وحضارا

وتقول المصادر أنه كان بتيهرت الرستمية مكتبة أسمها المعصومة؛ تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف مجلد؛ انتهى مصيرها إلى النار التي أشعلها في معظم مجلداتها عبد الله الشيعي؛ عندما افتتح تيهرت؛ ولم يأخذ منها سوى ما يناسب مذهبه؛ وما وجد بها من كتب الرياضة والصنائع والفنون.[1] ولو بقيت هذه المكتبة لقدمت للباحثين معلومات وافية عن هذه الدولة الإباضية.

---

[1] وعن الآثار العمرانية لدى الرستميين؛ يقول شارل أندريه جوليان: ((واقتصر الباحثون ـ زمنا طويلا عند تقييم فن بني رستم المعماري ـ على آثار سدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911م. وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية، وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط، وان لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها؛

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ــ حسبما يبدو ــ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ــ أولا: **إمارة بني دمر:** وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ــ في الحقيقة ــ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة **1941**م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: **1835** و **1841**م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: **2**، ص ص: **43 ــ 44**.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ـ مذهبياً ـ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموروور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ـ كما يبدو ـ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.
أما الإمارة الإباضية الثانية:

ـ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين:** وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ـ أيضا ـ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ـ بالقرب من بلدة **يلل ـ بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينمـا ساعدتهـم الظـروف عـلى إقامتهـا ببـلاد الأندلـس؛ خـلال الفتنـة الـتي أطاحـت بالدولـة الأمويـة.

****

4)ـ دولـة بـني بـرزال:

قامـت هـذه الدولـة في بـلاد الأندلـس؛ وذلـك بعـد أن أعلـن البرزاليـون قيامهـا في بلـدة **قرمونـة**؛ الـتي اتخذوهـا عاصمـة لهـم. هـذا وقـد نشـأت هـذه الإمـارة الأمازيغيـة ـ ذات المذهـب الخـارجي ـ بعـد انهيـار الدولـة الأمويـة، وانقسـام بـلاد الأندلـس بيـن شلـة مـن الأمـراء، وبعـض القبائـل العربيـة والأمازيغيـة، وجماعـات مختلفـة مـن المـولي والمماليـك؛ وذلـك في الفتـرة المعروفـة بعصـر الطوائـف. وكانـت هـذه الدولـة إباضيـة المذهـب؛ حسبمـا ذكـر كـل مـن: ابـن حيـان وابـن الخطيـب.

ويرجـع وجـود بـني بـرزال في بـلاد الأندلـس إلى عهـد المستنصـر الحكـم بـن عبـد الرحمـن الأمـوي ـ تـولى مـن عـام 350هـ (961م) إلى عـام 366هـ(976م) ـ . وحـدث ذلـك بسبـب وساطـة قـام بهـا حليفهـم؛ عامـل الفاطمييـن عـلى المسيلـة **جعفـر** ابـن عـلي بـن حمـدون؛ بعـد تمـرده وهروبـه إلى الأندلـس؛ فاستـأذن لهـم مـن الخليفـة الأمـوي في الانتقـال إلى الأندلـس؛ فـأذن لهـم مرحبـا بمقدمهـم؛

بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيس في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانهما للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور ابن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1]

[1] يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون – بعدئذ – محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ــ منذ تلك الفترة ــ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هذا حال بني برزال يوم ظهورهم بالأندلس. أما فيما يخص أصولهم؛ فالمصادر تتفق كلها على أنهم بطن من بطون بني دمر الزناتيين. وكانت مواطنهم الأولى في جبل سالات؛ بجهات المسيلة حاضرة الزاب آنئذ. وكانت أعدادهم وافرة، وسطوتهم قاطعة؛ ونفوذهم واسعا في تلك الجهات. كما كانوا ــ كما يقول ابن خلدون ــ نكارية من الخوارج. ومن أتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد؛ حيث ناصروه وحموه حين ثار على الدولة الفاطمية. ولما ضاقت به الحال هرب إليهم في جبل سالات؛ فوفروا له المأوى والحماية بعض الوقت. ولكنهم عادوا إلى طاعة الدولة الفاطمية عندما فشلت مقاومتهم، ويئسوا من جدوى المدافعة؛ خاصة بعد موت أبي يزيد. ومنذ ذلك التاريخ أضحوا في خدمة جعفر بن علي والي المسيلة. ولما ساءت علاقة جعفر بالدولة الفاطمية سنة 360هـ(970م) انحاز بنو برزال إليه وحالفوه. لذلك تكلم في أمرهم إلى الحكم المستنصر؛ فوافق على استدعائهم إلى بلاد الأندلس؛ أين ألحقهم بجنده؛ مثلهم مثل بقية القبائل الأمازيغية التي التحقت بالدولة الأموية.

وقــد اشتهــر مــن أمــراء دولــة بــني بــرزال بالأندلــس محمــد بــن عبــد اللــه الوردســني البــرزالي.[1] ثــم خلفــه ــ في بعــض الأقــوال ــ ابنــه إسحــاق؛ الــذي يقــال أنــه كــان عظيــم الشــأن، عزيــز الجانــب، شديــد الدهــاء، حــاد الذكــاء.[2] أمــا تاريــخ نشــأة هــذه الإمــارة واستبــداد أمرائهــا ــ بصفــة نهائيــة ــ فيعــود حســب جــل المصــادر إلى سنــة 404هــ(1013م)؛ إذ تــم ذلــك بفضــل العزيمــة الــتي كــان يتحــلى بهــا كــل فــرد مــن

---

[1] وفيــه أقــوال كمــا سبــق ذكــره. أمــا ابــن الخطيــب فيقــوا: ((وكــان هــذا الرئيــس يــلي باديــس ــ مــن ملــوك البرابــرة ــ في جلالــة الشــأن، وقــوة السلطــان؛ بقيــة أمــراء البرابــر المسلطيــن في هــذه الفتنــة، وأعظــم شأنــا في الدهــاء والرجولــة، وأبصرهــم بتدبيــر العساكــر، وأربطهــم جاشــا عــلى الخطــوب المقلقــة. وكــان مشهــورا بذخيــرة عتيــدة مــن صامــت المــال؛ لــم يــزل يجمعهــا؛ حائطــا لهــا بالبخــل الشديــد، واستظهــارا بهــا عــلى الخطــب العتيــد... وتــوفي رئيسهــم [رئيــس بــني بــرزال] محمــد بــن عبــد اللــه عــن جمــع ضخــم مــن قبيــل نجيــب، وخزيــن مــن الطعــام؛ لــم يجمعــه أميــر قبلــه في الفتنــة. وصــار أمــره إلى ولــده إسحــاق)). أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 236 ــ 237.

[2] وهــو كمــا يقــول ابــن الخطيــب نقــلا عــن ابــن حيــان: ((ورأس إسحــاق بعــد مهلــك أبيــه؛ وهــو في حــد الكهولــة. كــان مشهــورا بالحــزم والكفايــة والبــأس والفروسيــة؛ يتحــلى بشعبــة مــن شعــب الكتابــة، ويضبــط شيئــا مــن الحســاب، ويقــرأ الدفاتــر القريبــة. وهــو دون أبيــه محمــد في القســوة والفظاظــة، وأذهــَبُ منــه في فــرط العصبيــة. وكلاهمــا عــلى ذلــك موصــوف بالعفــة والنزاهــة، والبعــد عــن آفــات الملــوك الشائنــة؛ مــع اشتهارهمــا بالنكــوب عــن الجماعــة، واعتقادهمــا بمذهــب النكاريــين مــن فــرق الإباضيــة الخــوارج؛ يستأثــران بذلــك همــا وقومهمــا مــن بــني بــرزال؛ أعمالهــم وأقوالهــم في ذلــك معروفــة)). أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 237. وللتوســع أنظــر أيضــا البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 237 ــ 239. ودول الطوائــف، ص ص: 146 ــ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ـ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ـ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ـ 238.

وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[1] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459 هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 113.

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة ـ في هذا المجال؛ ولو باقتضاب ـ إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث ـ أيضا ـ عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرون. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية ـ بعض الوقت ـ بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها ـ كما يبدو ـ لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا ـ بالضرورة ـ من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ـ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: ((**من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد**))[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ـ يزيد بن عبد الملك ـ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ـ واليا عليها ـ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ـ أعني حرسه ـ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ـ لصلاة الصبح ـ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ـ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم

ونتيجة لذلك استقام الحال ـ بعض الوقت ـ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ـ بعد ذاك ـ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين ـ نهائيا ـ في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب ـ الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) ـ حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغــرب مــن شحنــات مدمــرة.[1] ويبــدو أن الأوضــاع العامــة كانــت جاهــزة للانفجــار؛ ولــم يبــق ســوى الشــرارة الــتي ستشعــل الفتيــل.[2]

ونتيجــة لهــذا فقــد دخلــت بــلاد المغــرب عهــدا جديــدا قاتمــا؛ ســادت فيــه الثــورات، الــتي تسببــت في تقلــص نفــوذ الخلافــة الأمويــة، وتراجعــه. وأصبحــت البــلاد ـ منــذ ذلــك التاريــخ ـ مقسمــة بيــن القبائــل الأمازيغيــة المختلفــة؛ الــتي استطاعــت ـ في ظــل الوضــع المتــردي ـ الخــروج عــن نفــوذ الدولــة الأم؛

---

[1] وفيــه يقــول ابــن عــذاري: ((ثــم إن عمــر بــن عبــد اللــه المــرادي ـ عامــل طنجــة ومــا والاهــا ـ أســاء السيــرة، وتعــدى في الصدقــات والعشــر؛ وأراد تخميــس البربــر. وزعــم أنهــم فيء المسلميــن؛ وذلــك مــا لــم يرتكبــه عامــل قبلــه؛ وإنمــا كــان الــولاة يخمســون مــن لــم يجــب للإســلام. فكــان فعلــه الذميــم هــذا سببــا لنقــض البــلاد، ووقــوع الفتــن العظيمــة المؤديــة إلى كثيــر القتــل في العبــاد. نعــوذ باللــه مــن الظلــم؛ الــذي هــو وبــال عــلى أهلــه)). البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 51 ـ 52. أنظــر عــن هــذا ـ أيضــا ـ تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 100. والكامــل لابــن الأثيــر، ج: 4، ص: 222. والعبــر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقــد أشــار ابــن خلــدون إلى بعــض الأسبــاب الــتي شحنــت النفــوس، وأغضبــت النــاس مــن ولاة الدولــة الأمويــة؛ إذ قــال: ((ولمــا ولي عبيــد اللــه بــن الحبحــاب عــلى إفريقيــة؛ مــن قبــل هشــام بــن عبــد الملــك... استعمــل عمــر بــن عبــد اللــه المــرادي عــلى طنجــة والمغــرب الأقــصى، وابنــه إسماعيــل عــلى الســوس ومــا وراءه. واتصــل أمــر ولايتهــم، وســاءت سيرتهــم في البربــر، ونقمــوا عليهــم أحوالهــم، ومــا كانــوا يطالبونهــم بــه مــن الوصائــف البربريــات، والأفريــة العسليــة الألــوان، وأنــواع طُــرف المغــرب؛ فكانــوا يتغالــون في جمعهــم ذلــك وانتحالــه. حــتى كانــت الصرمــة مــن الغنــم تستهلــك في الذبــح؛ لاتخــاذ الجلــود العسليــة مــن سخالهــا؛ ولا يوجــد فيهــا مــع ذلــك إلا الواحــد ومــا قــرب منــه. فكثــر عيثهــم بذلــك في أمــوال البربــر وجورهــم عليهــم)). العبــر، مج: 6، ص ص: 239 ـ 240.

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ **إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري:** يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك ـ إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية ـ دون تفسير أيضا ـ عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه ـ أيضا ـ جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

---

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل ـ وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم ـ ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم

ـ **إمــارة خالــد بــن حميــد الهتــوري الزنــاتي الصفــري:**

وبعــد أن قتــل ثــوار الصفريــة قائدهــم ميســرة المطغــري في سنـــة 122هــ(739م)؛ أسنــدوا قيادتهــم إلى خالــد بــن حميــد الزنــاتي؛ الــذي ينتــمي إلى بطــن مــن زناتــة يســمى هتــورة. فتــولى أمرهــم بجــدارة واقتــدار؛ إذ قادهــم في معــارك ضــد الأمويــين؛ برهــن فيهــا عــلى قــدرات عسكريــة كبيــرة. افتتــح انتصاراتــه بالهزيمــة الــتي ألحقهــا بجيــش الأمويــين في الموقعــة المسمــاة غــزوة الأشــراف.[1] وكانــت تلــك الهزيمــة ضربــة شديــدة المفعــول؛ بحيــث هــزت الخليفــة الأمــوي هشــام بــن عبــد الملــك وأغضبتــه إلى أبعــد الحــدود؛ فلــم يتمالــك نفســه حيــن قــال بعصبيــة عربيــة واضحــة: ((**واللــه لأغضبــن لهــم غضبــة عربيــة، ولأبعثــن لهــم جيشــا**

الرياســة لأهلهــا... ولا تنتقــل إلا إلى الأقــوى مــن فروعــه؛ لمــا قلنــاه مــن ســر الغلــب؛ لأن الاجتمــاع والعصبيــة بمثابــة المــزاج في المتكــون والمــزاج في المتكــون لا يصلــح إذا تكافــأت العناصــر؛ فــلا بــد مــن غلبــة أحدهــا؛ وإلا لــم يتــم التكويــن. فهــذا هــو ســر اشتــراط الغلــب في العصبيــة)). المقدمــة، ج: 2، ص ص: **598 ــ 599.**

[1] قــال ابــن الأثيــر في ذلــك: ((ثــم التــقى خالــد بــن حميــد [الزنــاتي] ــ ومعــه البربــر ــ خالــد بــن حبيــب [الفهــري] ــ ومعــه العــرب وعسكــر هشــام ــ وكــان بينهــم قتــال شديــد صبــرت فيــه العــرب؛ وظهــر عليهــم كميــن مــن البربــر؛ فانهزمــوا؛ وكــره خالــد بــن حبيــب [الفهــري] أن ينهــزم مــن البربــر؛ فصبــروا معــه؛ فقتلــوا جميعهــم؛ وقتــل في هــذه الوقعــة حمــاة العــرب وفرسانهــا؛ فسميــت وقعــة الأشــراف؛ فانتقضــت البــلاد، ومــرج أمــر النــاس؛ وبلــغ أهــل الأندلــس الخبــر؛ فثــاروا بأميرهــم عقبــة بــن الحجــاج؛ فعزلــوه وولــوا عبــد الملــك بــن قطــن؛ فاختلطــت الأمــور عــلى ابــن الحبحــاب)). الكامــل في التاريــخ، ج: **4**، ص: **223**. أنظــر أيضــا تاريــخ إفريقيــة والمغــرب للقيــرواني، ص ص: **100 ـــ 101.**

أولــه عندهـم وآخـره عنـدي. ثـم لا تركـت حصـنَ بربـري إلا جعلـت إلى جانبـه خيمـة قيـسي أو تميـمي)).[1]
وهكـذا لا تخلـو قولتـه هـذه ـ طبعـا مـن عاطفـة ونزعـة مفعمـة برواسـب العصبيـة العربيـة المعهـودة في بـني أميـة:

وكانـت معركـة الأشـراف إشـارة خطيـرة لبـني أميـة؛ كـان مـن المفـروض تداركهـا بعـلاج سليـم يسمـح بـلأم الجـراح وشفـاء النفـوس العليلـة؛ ولكـن غضـب الخليفـة لـم يتـرك لـه مجـالا لإصـلاح مـا فسـد. وعليـه فيمكـن اعتبـار ردود أفعـال الخليفـة هشـام بمثابـة الخطـوة الخطيـرة؛ الـتي أدت إلى خـروج مناطـق كثيـرة مـن بـلاد المغـرب ـ الأقـصى والأوسـط ـ عـن النفـوذ الأمـوي نهائيـا. هـذا بالإضافـة إلى مـا حـدث مـن عصيـان في بـلاد الأندلـس. تلـك الديـار الـتي ثـار بهـا ـ أيضـا ـ جمـع مـن الأمازيـغ ومـن العـرب كذلـك؛ أولئـك العـرب الذيـن كانـت تتقاذفهـم الصراعـات القبليـة؛ بيـن يمنيـة وقيسيـة. الأمـر الـذي حـال دون أن تتمكـن أي عصبيـة مـن التغلـب عـلى العصبيـات والقبائـل الأخـرى المنتشـرة في ربـوع الأندلـس الواسعـة.

---

[1] تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 111. والكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 223. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 54.

وهذا يؤكد ما فسره ابن خلدون في الفقرات السابقة؛ التي تتكلم عن ضرورة تغلب أحد العناصر على بقية العناصر لكي يتحقق المزاج في المتكون.[1]

وحتى الجيش الذي بعث به الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ـ بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ـ سنة 123هـ (740م)؛ بهدف تأديب الأمازيغ؛ أضحى ـ في حد ذاته ـ عامل فرقة لصفوف العرب؛ أكثر من أن يكون عامل وحدة والتحام. إذ بمجرد وصول طليعة ذلك الجيش العربي ـ التي كان على رأسها بلج بن بشر القشيري (ابن عم الوالي الجديد كلثوم بن عياض القشيري) ـ إلى القيروان؛ حتى انقسم الناس بين عرب استوطنوا القيروان من قبل؛ وعرب وفدوا إليها حديثا. فها هو بلج بن بشر يستفز الناس بعنجهيته، وبعصبيته القيسية الحمقاء؛ حين أراد ـ بكل صفاقة وغرور ـ إنزال عساكره في منازل أهل المدينة. حيث تفوه بكلام أغضبهم ـ كما جاء في المصادر ـ فبعثوا شكواهم إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ الذي كان مرابطا في مواجهة الأمازيغ بتلمسان. فكتب إلى كلثوم بن عياض يقول له: **((إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا. فارحل بعسكرك عنهم؛ وإلا حولنا**

---

[1] **أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.**

أعنـــة الخيـــل إليـــك)).[1] فســـارع كلثـــوم بـــن عيـــاض إلى الاعتـــذار لحبيـــب؛ وضـــرب لـــه موعـــدا في شلـــف. غيـــر أن كلثـــوم بـــن عيـــاض تمـــادى في سلوكـــه الخـــاطئ؛ إذ أن سكوتـــه عـــن حماقـــة بلـــج؛ شجعـــه عـــلى معـــاودة تهـــوره؛ حيـــن اشتبـــك ــ أيضـــا ــ مـــع حبيـــب عنـــد التقائهمـــا بشلـــف.[2] هـــذه هي العصبيـــة عندمـــا تصبـــح قاتلـــة ومدمـــرة. إذ انتـــهى الحـــال بالعـــرب إلى هزيمـــة أفظـــع مـــن الأولى؛ حيـــث كـــان الخـــلاف بينهـــم شديـــدا، والشنـــآن يقســـم صفوفهـــم؛ فـــلا يتفقـــون عـــل خطـــة، ولا يجتمعـــون عـــلى رأي سليـــم.[3]

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54. أنظـــر أيضـــا الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 123. والعبـــر، مج: 4، ص: 406.

[2] وقـــد أورد ابـــن عـــذاري نصـــا مهمـــا يشـــرح مـــا دار بيـــن الطرفيـــن. وهـــذا النـــص التاريـــخي يفســـر الحـــال المزريـــة؛ الـــتي أضـــحى عليهـــا العـــرب في ديـــار المغـــرب. فممـــا قالـــه: ((فاستخلـــف كلثـــوم عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري؛ وســـار حـــتى وصـــل عسكـــر حبيـــب فرفضـــه، واستهـــان بـــه؛ وســـب بلـــج بـــن بشـــر لحبيـــب وتنقصـــه؛ وقـــال: "هـــذا الـــذي يحـــول أعنـــة الخيـــل إلينـــا"؛ فقـــام إليـــه عبـــد الرحمـــن بـــن حبيـــب؛ وقـــال: "يـــا بلـــج! هـــذا حبيـــب! فـــإذا شئـــت؛ فأعـــرض لـــه للمقابلـــة!" وصـــاح النـــاس: "الســـلاح! الســـلاح!" فمـــال أهـــل إفريقيـــة إلى ناحيـــة، ومعهـــم أهـــل مصـــر. ثـــم ســـعى بينهـــم في الصلـــح. فكـــان هـــذا الاختـــلاف سبـــب هلاكهـــم؛ مـــع ســـوء رأي كلثـــوم وبلـــج)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظـــر أيضـــا تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 113.

[3] شـــرح ابـــن الأثيـــر مـــا جـــرى بقولـــه: ((وتقـــدم إليهـــم البربـــر مـــن طنجـــة؛ فقـــال لهـــم حبيـــب: "اجعلـــوا الرجالـــة للرجالـــة، والخيالـــة للخيالـــة؛ فلـــم يقبلـــوا منـــه؛ وتقـــدم كلثـــوم بالخيـــل؛ فقاتلـــه رجالـــة البربـــر فهزمـــوه؛ فعـــاد كلثـــوم منهزمـــا؛ ووهـــن النـــاس ذلـــك؛ ونشـــب القتـــال، وانكشفـــت خيالـــة البربـــر، وثبتـــت رجالتهـــا؛ واشتـــد القتـــال، وكثـــر البربـــر عليهـــم؛ فقتـــل كلثـــوم بـــن عيـــاض، وحبيـــب بـــن أبي عبيـــدة،

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ــ بعد ذاك ــ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ــ في الشام ثم بغداد بعدئذ ــ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ــ منذئذ ــ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ــ من صفرية وإباضية ــ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ـ فجأة ـ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ـ إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري:
ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ـ كما يظهر من اسمه ـ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ـ رفقة أخيه ـ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ـ في ظروف غامضة ـ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ.

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: 114.

وربمـــا رجـــع السبـــب إلى مـــا تفرضـــه سنـــن العصبيـــة؛ الـــتي لا يستهويهـــا ســـوى الانتســـاب المطلـــق إليهـــا؛[1] ولمـــا كـــان عكاشـــة مـــن المنتسبيـــن إلى العـــرب فقـــد قـــل أنصـــاره، وضعفـــت شوكتـــه. غيـــر أن عامـــلي: الديـــن والمذهـــب ساعـــداه ــ شيئـــا مـــا ــ في جمـــع بعـــض الفئـــات الزناتيـــة الساخطـــة عـــلى الحكـــم الأمـــوي. ومـــع ذلـــك لا يكـــفي العامـــل الديـــني والمذهـــبي وحـــده؛ إذ لا بـــد مـــن توفـــر شـــرط العصبيـــة؛ كمـــا قـــال ابـــن خلـــدون ضمـــن: "**فصـــل في أن الدعـــوة الدينيـــة مـــن غيـــر عصبيـــة لا تتـــم**".[2] المهـــم أنـــه انطلـــق بثورتـــه في جهـــات قابـــس؛ منتهـــزا فرصـــة خـــروج كلثـــوم بـــن عيـــاض بالجنـــد إلى طنجـــة. وكـــان كلثـــوم قـــد استخلـــف عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري، وعقـــد لمسلمـــة بـــن ســـوادة القـــرشي لـــواء الحـــرب فيهـــا. فبـــدأ عكاشـــة حركتـــه بإرســـال أخيـــه إلى (صبـــرة) قصـــد تعبئـــة عشائـــر زناتـــة ــ في تلـــك الجهـــات ــ والعمـــل عـــلى التغلـــب عليهـــا.

---

[1] يقـــول ابـــن خلـــدون ضمـــن: "فصـــل في أن الرياســـة عـــلى أهـــل العصبيـــة لا تكـــون في غيـــر نسبهـــم" ((والساقـــط في نسبهـــم بالجملـــة لا تكـــون لـــه عصبيـــة فيهـــم بالنســـب؛ إنمـــا هـــو ملصـــق لزيـــق؛ وغايـــة التعصـــب لـــه بالـــولاء والحلـــف؛ وذلـــك لا يوجـــب لـــه غلبـــا عليهـــم ألبتـــه)). المقدمـــة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظـــر المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 638 ــ 642.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر (**صبرة**) بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ـ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ـ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ـ انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر ـ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2]

---

[1] فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ــ 295.

[2] نفسه، ص: 298.

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ــ في الأفق ــ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري ــ سيأتي الحديث عنه لاحقا ــ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: **((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ــ 299.**

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد – حنظلة بن صفوان – في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] **اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.**

ـ إمـارة عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـواري الصفـري:
كـان ظهـوره الأول في شـرق طرابلـس؛ حيـث استنجـد بـه عكاشـة؛ في قتالـه ضـد عبـد الرحمـن بـن عقبـة. ولمـا انتصـرا في الموقعـة الـتي قتـل فيهـا عبـد الرحمـن؛ اتفـق الاثنـان عـلى الذهـاب إلى المغـرب الأوسـط؛ لـكي يبحثـا عـن أنصـار جـدد، ويحرضـا الصفريـة فيـه عـلى احتـلال مركـز الولايـة الأمويـة بالقيـروان. وبالفعـل تمكـن الاثنـان مـن جمـع أعـداد كبيـرة مـن المتحمسيـن للقضـاء عـلى الحكـم الأمـوي وإزالتـه مـن ديـار المغـرب. وقبـل انطـلاق المتحالفيـن مـن منطلقهـم في ناحيـة مـن نـواحي الـزاب؛ وضعـوا خطـة محكمـة؛ ربمـا كانـت كفيلـة بنجـاح مسعاهـم ـ لـو طبقـت بدقـة ـ إذ تقتـضي الخطـة أن يزحـف جيشـان إلى القيـروان: الأول بقيـادة عكاشـة؛ مـن جهـة الجنـوب؛ والثـاني بقيـادة عبـد الواحـد؛ مـن الشمـال؛ عـلى أن يلتقيـا في وقـت واحـد حـول القيـروان؛ وبذلـك يكونـان كماشـة تنقـض عـلى عدوهمـا؛ فيعجـز عـن المقاومـة ويسقـط فريسـة بيـن أيديهـم.

وبالفعـل انطلـق عكاشـة عبـر السهـول الممتـدة جنـوب الأوراس؛ في اتجـاه تبسـة وباجـة ثـم القيـروان. أمـا عبـد الواحـد فقـد زحـف مـن الشمـال؛ عبـر المناطـق الجبليـة[1] الصعبـة؛ الـتي كانـت كفيلـة بتعطيـل حركتـه؛ كمـا أنـه ـ بسعيـه لجمـع متطوعيـن جـدد

---

[1] تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 116. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.

مـــن القبائـــل الأمازيغيـــة ــ زاد في ثقـــل حركتـــه وبـــطء سيــــره. ولكنه استفـــاد إذ حقـــق نجاحـــات معتبــــرة؛ عندمـــا التحـــق بـــه عـــدد كبيـــر مـــن أبنـــاء تلـــك القبائـــل. وقـــد ــ تمكـــن في خـــط سيـــره ــ مـــن احتـــلال مدينـــة باجـــة؛ أيـــن اشتبـــك ــ هنـــاك ــ مـــع جيـــش القيـــروان مـــرات عديـــدة؛ حالـــف النصـــر فيهـــا عبـــد الواحـــد. وبعدهـــا انتقـــل عبـــد الواحـــد إلى تونـــس فدخلهـــا منتصـــرا. وفي الأخيـــر زحـــف إلى القيـــروان؛ حيـــث وصلـــه خبـــر هزيمـــة حليفـــه عكاشـــة؛ بعـــد أن خالـــف الخطـــة المتفـــق عليهـــا؛ إذ انتهـــز فرصـــة تعطـــل عبـــد الواحـــد؛ فسولـــت لـــه نفســـه الانفـــراد باحتـــلال القيـــروان؛ الأمـــر الـــذي سيساعـــده عـــلى التفـــوق عليـــه؛ وبذلـــك يمكنـــه تعديـــل الكفـــة؛ الـــتي مالـــت إلى صالـــح حليفـــه ومنافســـه عبـــد الواحـــد؛ بحكـــم امتلاكـــه لعامـــل العصبيـــة الأمازيغيـــة؛ تلـــك العصبيـــة الـــتي يفتقـــر إليهـــا عكاشـــة.

وبعـــد سمـــاع عبـــد الواحـــد بهزيمـــة عكاشـــة، والتأكـــد مـــن مقتلـــه؛ اضطـــر إلى خـــوض المعركـــة بجيشـــه منفـــردا. وبالفعـــل حدثـــت المعركـــة الكبـــرى الفاصلـــة؛ في موضـــع يبعـــد عـــن القيـــروان بثلاثـــة أميـــال تقريبـــا؛ يســـمى (الأصنـــام). وكانـــت معركـــة مهولـــة؛ حالـــف النصـــر فيهـــا حنظلـــة بـــن صفـــوان؛ حيـــث تمكـــن جيشـــه مـــن قتـــل آلاف مـــن الصفريـــة؛ بمـــا فيهـــم عبـــد الواحـــد بـــن يزيـــد نفســـه؛ وذلـــك في سنـــة 125هـــ(742م).

هذا وتجدر الإشارة أن أهل القيروان تمكنوا من النصر؛ بفضل شعورهم بوحدة المصير، وبفضل المجهودات التي بذلها علماء المدينة؛ حيث كثفوا نشاطهم في الدعوة إلى القتال، وحث الناس على المقاومة، إذ حذروهم من مغبة الفرقة أو التهاون والخذلان؛ كما ذكروهم بما قد يلحق بهم وبنسائهم من طرف الصفرية؛ الذين يستحلون سبي المسلمات، ويجيزون استعباد الأبناء؛ كما يبيحون سفك دماء المسلمين من أطفال وشيوخ. وبالفعل حققت دعوتهم نجاحات كبيرة؛ إذ حميت همم الناس؛ فكسروا أجفان سيوفهم؛ وخرجوا للقتال ومعهم نساؤهم يحرضنهم ويشحذن هممهم. ونتيجة لتلك العوامل النفسية؛ تمكنوا[1] من التغلب على الصفرية؛ وفتكوا بهم فتكا عظيما؛ على الرغم من قلة عددهم؛ وكثرة أعداد أعدائهم.

ـ إمارة ثابت بن وازيدون الصنهاجي الصفري: لا يعرف عن هذا الرجل ما يمكن به تكوين فكرة واضحة عنه؛ إذ يكتنف أخباره غموض كثيف؛ ويبدو أنه كان من أتباع عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري؛ ولم تذكر المصادر التاريخية عنه سوى خبر ثورته في باجة، وتغلبه عليها سنة 130هـ(747م)؛ في أيام عبد الرحمن بن حبيب

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 119 ـ 122.

الفهـري ــ الـذي عـزل حنظلـة وافتـك منـه القيـروان ــ وبعدهـا صمتـت المصـادر ــ نهائيـا ــ عـن الحديـث في شـأن ثابـت الصنهـاجي هـذا؛ ولـم تشـر إن كـان قـد فـر حيـا أم قتـل.

ــ إمـارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهـاصي الصفـري:
لقـد تـرك هـذا الرجـل ــ وأخـوه المدعـو مكـرم ــ أثـرا سيئـا في تاريـخ إفريقيـة والمغـرب؛ نتيجـة للفظائـع وللوحشيـة الـتي ارتكبهـا هـو وأتباعـه مـن صفريـة ورفجومـة في القيـروان سنـة 138هـ(755م). ويقـول فيـه ابـن الأثيـر: ((**وكـان مقـدم ورفجومـة رجـلا اسمـه عاصـم بـن جميـل؛ وكـان قـد ادعى النبـوة والكهانـة؛ فبـدل الديـن، وزاد الصـلاة، وأسقـط ذكـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلـم مـن الأذان... ودخـل عاصـم ومـن معـه القيـروان. فاستحلـت ورفجومـة المحرمـات؛ وسبـوا النسـاء والصبيـان؛ وربطـوا دوابهـم في الجامـع وأفسـدوا فيـه**)).[1] وذكـر ابـن خلـدون؛ اسـم رجـل آخـر كـان بيـن المرافقيـن لعاصـم بـن جميـل ــ في

---

[1] **الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 280. أمـا القيـرواني فيقـول: ((ودخلـت ورفجومـة القيـروان؛ فاستحلـوا المحـارم، وارتكبـوا العظائـم؛ نـزل عاصـم ــ بعسكـره ــ في الموضـع الـذي يسـمى (مصـلى روح) واستخلـف عـلى القيـروان عبـد الملـك بـن أبي الجعـد النفـزي... ولمـا حكمـت ورفجومـة عـلى القيـروان؛ قتلـوا مـن كـان بهـا مـن قريـش، وسامـوهـم العـذاب؛ وربطـوا دوابهـم في المسجـد الجامـع)). تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 141.**

زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي.
ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري:
قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

ـ إمارة عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري: هكذا سماه ابن عذاري؛ ولا يعرف عن هذا القائد الصفري؛ سوى أنه كان يقود ألفين من الصفرية؛ خلال حصارهم ـ ضمن الحلف الصفري الإباضي ـ لعمر بن حفص بن قبيصة والي إفريقية؛ بمدينة طبنة حاضرة الزاب في سنة 153هـ(770م). غير أن ابن خلدون سماه عبد الله بن سكرديد؛ وقال أنه أحد أمراء الصفرية الصنهاجيين؛ ومن أتباع ثابت ابن وازيدون الصنهاجي المذكور آنفا.

ـ إمارة أبي قرة بن دوناس اليفرني الصفري: ينسبه بعضهم إلى مغيلة؛ غير أن المحققين من المؤرخين ينسبونه إلى بني يفرن.[1] وكان أول ظهور لهذا الرجل ـ في مسرح الأحداث بشكل واضح ـ أثناء زحف عبد الواحد بن يزيد الهوري إلى القيروان؛ حيث ذكرت الأخبار أن عبد الواحد جعله على رأس مقدمة جيشه.[2] وإن كان ـ في الحقيقة ـ من بين زعماء الصفرية؛ المتحالفين في السابق مع ميسرة المطغري؛ إلا أنه لم يلفت نظر المؤرخين.

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 24.

[2] فتوح مصر والمغرب، ص: 299. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري – مع عكاشة – إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب – مرة أخرى – دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد – عند ذلك – عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة – أو الخلافة – من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ـ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ـ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ـ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ـ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ـ أبي قرة ـ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ـ بالطبيعة الإنسانية ـ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"نصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه]]). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:[1]
كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير ابن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

---

[1] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

ـ إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري:
ظهر في عهد والي إفريقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم ـ والي إفريقية ـ قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛ ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد بن المهلب ـ في سنة 156هـ(772م) ـ إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

ـ إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري:
ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـ 162.

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ــ ولو باحتشام ــ هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ــ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ــ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ــ بنواحي مديونة ــ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ــ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ــ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ــ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ــ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ – بعد ذلك – انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

استطاعوا – باعتدالهم وثباتهم – استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت – فيما بعد – لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

***

– إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:

ظهر – لأول مرة – اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: **301**.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: **33**.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ـ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1]
أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[2] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ـ حين اجتمعت ـ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ـ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ـ بالضرورة ـ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

---

[1] يقول القيرواني: ((**وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج**)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.

[2] يقول: ((**وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم**)). العبر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

ويتفق – أيضا – القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3]ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقوا ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 ـ 47.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ـ كما يقول ابن عبد الحكم ـ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ـ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ـ هي الأخرى ـ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

---

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ـ 302.

يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

ـ إمــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافــري الإبــاضي: ينســب هــذا الرجــل إلى قبيلــة معافــر الكهلانيــة اليمنيــة. نشــأ في المشــرق وكــان مــن دعــاة الإباضيــة بالشــام قبــل مجيئــه إلى المغــرب.[1] وقــد كــان مــن بيــن طلبــة العلــم الخمســة؛ الذيــن بعثــوا في سنــة 132هــ(749م)؛ مــن طــرف الإباضييــن في بــلاد المغــرب؛ بغــرض تلــقي العلــم في البصــرة؛ عــلى يــد شيــخ الإباضيــة في المشــرق أبي عبيــدة مسلــم بــن أبي كريمــة.[2] ولمــا عــادوا في سنــة 139هــ(756م)؛ محمليــن بعلــوم المذهــب الإبــاضي؛ بــادروا بإنشــاء دولتهــم الإباضيــة؛ حيــث بايعــوا أبــا الخطــاب عبــد الأعــلى إمامــا عــلى الإباضييــن في ديــار المغــرب. وكــان الإعــلان عــن هــذه الدولــة في سنــة 140هــ(757م)؛ خــارج طرابلــس ـ في بدايــة الأمــر ـ[3] في موضــع غــربي طرابلــس يقــال لــه (صيــاد). وقــد أشاعــوا أنهــم ينظــرون في خــلاف بيــن جماعتيــن عــلى قطعــة أرض. ويبــدو ـ مــن كــلام الرقيــق القيــرواني وابــن الأثيــر ـ أن منشــأ هــذه الدولــة تــم أيــام احتــلال ورفجومــة للقيــروان.[4]

---

[1] سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. والفــرق الإسلاميــة لآلفــرد بــل، ص: 170.

[2] طلبــة العلــم الخمســة هــم: أبــو الخطــاب عبــد الأعــلى بــن السمــح المعافــري، وعبــد الرحمــن بــن رستــم الفــارسي، وعاصــم الســدراتي، وإسماعيــل بــن درار الغدامــسي، وأبــو داود القبــلي النفــزاوي.

[3] أنظــر كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. وكتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـــ 23. ومختصــر تاريــخ الإباضيــة، ص: 33.

[4] وقــد كــان نــص ابــن الأثيــر أكثــر وضوحــا إذ قــال: ((فاتفــق أن رجــلا مــن الإباضيــة دخــل القيــروان؛ لحاجــة لــه؛ فــرأى ناســا مــن الورفجوميــن قــد أخــذوا

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا

من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[1]

برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر ــ أيضا ــ كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي ــ أمير مصر للمنصور ــ إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 ــ 73.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ــ وهو بالقيروان ــ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ــ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي:** وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

ذكرتــه تلــك المصــادر صحيحــا؛ فكيــف ــ إذن ــ يكــون مــن بيــن قــادة الإباضيــة الذيــن حاصــروا عمــر بــن حفــص سنــة 153هــ(770م)؟[1]

ــ **إمــارة أبي هريــرة الزنــاتي الإبــاضي:** هكــذا ورد اسمــه دون تفصيــل. ويبــدو أنــه كــان زعيمــا لبطــن مــن بطــون زناتــة في جهــات طرابلــس؛ ولمــا قتــل أبي الخطــاب؛ انتهــز غفلــة مــن ابــن الأشعــث؛ وهجــم عليــه؛ في ستــة عشــر ألفــا؛ ولكــن ابــن الأشعــث تــدارك الأمــر؛ وتمكــن مــن صــد هــذه القــوة، وقتــل قائدهــا أبي هريــرة الزنــاتي. وتــم ذلــك في السنــة الــتي قتــل فيهــا أبي الخطــاب؛ وهي سنــة 144هــ(761م). والــذي يلفــت النظــر ــ هنــا ــ أن المصــادر الإباضيــة أغفلــت ذكــر أخبــار أبي هريــرة؛ ولــم يشــر إليــه ســوى محمــد عــلى دبــوز في جملــة مقتضبــة.[2] وكذلــك الحــال بالنسبــة للمؤرخيــن السنييــن؛ إذ تجاهــل ذكــره أكثرهــم؛ ولــم يتكلــم عنــه ســوى: ابــن الأثيــر، وابــن عــذاري؛

---

[1] قــال أبــو زكريــاء يحــيى بــن أبي بكــر: ((ثــم إن عاصمــا الســدراتي مــرض مرضــا شديــدا؛ وكــان مــن خيــار العسكــر؛ وهــو أحــد الخمســة الحملــة للعلــم؛ وأشــد شوكــة عــلى أهــل القيــروان. فسمــع أهــل القيــروان بمرضــه؛ وأنــه اشتــهى قثــاة؛ فبعــث أهــل القيــروان رجــلا بياعــا يبيــع القثــاء؛ فسمــوا منهــا قثــاة، وأمــروه أن لا يبيعهــا إلا لعاصــم الســدراتي... واشتــرى لعاصــم أصحابــه القثــاة المسمومــة وأتــوه بهــا فأكلهــا؛ فقطعــه الســم فمــات،؛ وهــرب البيــاع حيــن باعهــا لهــم)). كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 62.

[2] تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 3، ص: 19.

في جملــة قصيــرة أيضــا.[1]وقــد يكــون هــذا القائــد مــن بيــن الزناتييــن الذيــن انسحبــوا غاضبيــن عــلى أبي الخطــاب مــن قبــل؛ ولمــا سمعــوا بهجــوم أبي الأشعــث عــادوا إلى المعركــة؛ فوجــدوا أن المبــادرة خرجــت مــن أيديهــم.

ـ إمــارة عبــد اللــه بــن حيــان الزويــلي الإبــاضي:
وهــو ــ كمــا يبــدو ــ هــواري النســب. وكــان في زمــن أبي الخطــاب رئيســا في زويلــة؛ فبعــث ابــن الأشعــث جيشــا إلى تلــك الجهــات سنــة 145هــ(762م)؛ حيــث افتتــح ودان وزويلــة؛ أيــن قتــل مــن بهمــا مــن الإباضييــن؛ ومــن جملتهــم عبــد اللــه بــن حيــان هــذا.

ـ إمــارة المســور بــن هــانئ الزنــاتي الإبــاضي[2]:
ذكــره بعــض المؤرخيــن ضمــن جيــوش الصفريــة والإباضيــة؛ الذيــن كانــوا محاصريــن لعمــر بــن حفــص بطبنــة في سنــة 153هــ(770م)؛ إذ قالــوا أنــه كــان يقــود عشــرة آلاف مقاتــل مــن زناتــة؛ قدمــوا معــه مــن شمــال تيهــرت. ومــا عــدا هــذا؛ لا يوجــد مــا يمكــن إضافتــه مــن أخبــاره.

---

[1] الكامــل في التاريــخ، ج: 4، ص: 281. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 72.

[2] سمــاه ابــن عــذاري: المصــور ــ بالصــاد ــ الزنــاتي؛ دون الإشــارة إلى مذهبــه هــل هــو صفــري أم إبــاضي. البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 75. أمــا ابــن خلــدون فقــد سمــاه المســور ــ بالسيــن ــ الزنــاتي؛ ثــم ذكــر أنــه إبــاضي المذهــب. العبــر، مج: 4، ص: 413. أمــا في مج: 4، ص: 226؛ فسمــاه المســور بــن هــانئ.

ـ إمارة أبي حاتم يعقوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفت الملزوزي المغيلي المعروف بأبي قادم:[1]

هكذا سماه ابن خلدون؛ إذ نسبه إلى قبيلة ملزوزة المنحدرة عن قبيلة مغيلة. أما المصادر الأخرى فقد اكتفت بالقليل عند سرد اسمه؛ على أن بعضهم ينسبه ـ بالولاء ـ إلى قبيلة كندة العربية.[2] ويقول محمد علي دبوز أن أباه ـ أو أحد أجداده ـ انتقل إلى طرابلس؛ فانتسب إلى قبيلة هوارة بالالتحاق. المهم أن بعض الآراء تقول أن أبا حاتم هذا تولى أمر الإباضيين في سنة 145هـ(762م).[3] أي بعد فترة من مقتل أبي الخطاب. إذ كان يجمع الصدقات، ويبعث بها إلى عبد الرحمن بن رستم؛ قبل أن يتولى ولاية الظهور؛ أي الولاية المعلنة للملأ. وهذا يبعث على الاعتقاد أنه قد ولي أمر الإباضيين سرا في سنة 151هـ(768م) أو قبلها.

---

[1] سماه أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي. كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. أما الدرجيني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري، ج: 1، ص: 36. أما سليمان الباروني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن حبيب، مختصر تاريخ الإباضية، ص: 34.

[2] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 32. والعبر، مج: 4، ص: 412.

[3] كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. وفي كتاب طبقات المشائخ بالمغرب: ولي سنة 154هـ. وفي مختصر تاريخ الإباضية في سنة 154هـ.

هذا وقد سمى أبو زكرياء ولاية أبي حاتم بولاية الدفاع. وذكر أنه بويع خارج طرابلس؛ بالطريقة السرية ذاتها؛ التي تمت في بيعة أبي الخطاب من قبل. إذ تظاهروا أنهم مجتمعون من أجل إصلاح بين زوج وامرأته؛ بينما هم ـ في الحقيقة ـ يأتمرون فيما بينهم لإعلان الإمامة، والبيعة للإمام. ولكن عيون عامل طرابلس كشفت أمرهم؛ فحاول إفساد ما اجتمعوا عليه؛ عندها لم يجدوا أمامهم بدا من إعلان العصيان؛ وانطلقوا إلى طرابلس فاحتلوها وقتلوا من بها من الجند. ثم أمر أبو حاتم أتباعه بالزحف نحو إفريقية؛ وفي الطريق التقوا بجيش القيروان؛ زاحفا في اتجاههم؛ فاشتبكوا معه وهزموه.

وحسب ما يبدو فهذا الأمر يكون قد تم بعد سنوات من التاريخ الذي اتفق فيه الإباضيون على إمامة أبي حاتم. لأن ظهوره بشكل علني ربما حدث في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي تحرك فيها لحصار القيروان؛ منتهزا فرصة غياب الجند عنها؛ أي عندما لاحظ أنهم خرجوا مع والي إفريقية عمر بن حفص؛ بهدف بناء وتحصين عاصمة الزاب طبنة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ـ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ـ عن ذلك ـ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـ 413. ومج: 6، ص: 226.

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ـ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ـ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ـ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي: ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فانوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

مصيـر هـذا الثائـر الإبـاضي؛ ولـم يذكـر إن كـان قتـل أم لا. وحـتى ابـن الأثيـر لـم يشـر إلى مصيـره النهـائي.

ـ إمـارة صالـح بـن نصيـر النفـزي الإبـاضي:[1]
وكـان مـن رؤسـاء نفـزاوة الإباضييـن؛ إذ ثـار مـع قبيلتـه سنـة 161هـ (777م) عـلى والي إفريقيـة بالقيـروان؛ داود بـن يزيـد بـن حاتـم ـ في حيـاة والـده يزيـد الـذي أقعـده المـرض ـ فأرسـل داود إليهـم قـوة لتأديبهـم؛ بقيـادة سليمـان بـن الصمـة بـن يزيـد بـن حبيـب بـن المهلـب؛ في عشـرة آلاف مـن الجنـد؛ ففتـك بهـم، وفـرق جمعهـم؛ غيـر أن صالـح بـن نصيـر ـ كمـا يبـدو ـ استطـاع الإفـلات؛[2] ولـم يعـرف مصيـره بعدئـذ.

ـ إمـارة أيـوب الهـواري: أورد خبـره ـ باقتضـاب شديـد ـ ابـن الأثيـر؛ إذ قـال أنـه ثـار مـع قبيلـة ورفجومـة في الـزاب سنـة 164هـ(780م)؛ خـلال عهـد يزيـد بـن حاتـم؛ الـذي سيـر إليهـم عسكـرا كثيـرا؛ بقيـادة يزيـد بـن مجـزأ المهلـبي؛ حيـث قتـل في تلـك الأحـداث، وانهـزم جيشـه؛ كمـا قتـل فيهـا أيضـا المخـارق عامـل الـزاب. فاسنـد يزيـد بـن المهلـب القيـادة إلى العـلا بـن سعيـد المهلـبي؛ فتمكـن مـن دحـر

---

[1] سمـاه ابـن عـذاري: نصيـر بـن صالـح الإبـاضي. البيـان المغـرب، ج: 1، ص: 83.
[2] أنظـر تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 169. والعبـر مج: 6، ص: 228.

ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[1]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ــ هنا ــ أنه حصل ــ كما يبدو ــ بعض الالتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ــ الرقيق القيروان ــ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[2] ولا يعرف إن كانت ثورة أبي أيوب ــ هذه ــ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصى المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة).

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ــ 162.

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ إمـارة أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد اليفـرني الزنـاتي الملقـب بصاحـب الحمـار: ظهـر هـذا الرجـل في بـلاد قسطيليـة بالنـواحي الجنوبيـة مـن إفريقيـة؛ بعـد سقـوط الدولـة الرستميـة الإباضيـة؛ وبعـد أن التهمهـا الفاطميـون. وتتلمـذ هـذا الثائـر الخـارجي ـ في صغـره ببـلاد قسطيليـة ـ عـلى بعـض النكاريـة؛ منهـم عبـد الحميـد بـن عبـد اللـه الحميـدي الحجـري؛ الملقـب بـأبي عمـار الأعـمى؛ الـذي قـال عنـه محمـد الصنهـاجي أنـه كـان مقدمـا في الإباضيـة، وقـال فيـه ابـن خلـدون أنـه رأس النكاريـة.[1] كمـا تذكـر مصـادر الإباضييـن أنـه درس عـلى بعـض العلمـاء في سجلماسـة. ونظـرا لفقـر أبي يزيـد، وشـدة حاجتـه؛ فقـد عمـل في تعليـم القـرآن للصبيـان؛ فكانـت فرصـة لـه؛ كي يبـث فيهـم مذهـب النكاريـة.

وتقـول المصـادر التاريخيـة أنـه ذهـب إلى الحـج، وعـاد في سنـة 325هـ(926م)؛ حيـث أخـذ ـ بعـد عودتـه ـ في التشويـش والمشاغبـة وتأليـب العامـة عـلى الحكـام. فقبـض عليـه ابـن فركـان ـ مقـدم تـوزر ـ وأودعـه السجـن؛ بتهمـة مـا كـان يدعـو إليـه مـن تكفيـر المسلميـن، وسـبِّ عـلى كـرم اللـه وجهـه؛ ومـا كـان يصـرح بـه مـن وجـوب الخـروج عـن السلطـان. عـلى أن أبـا يزيـد استطـاع التخلـص مـن سجنـه؛ إمـا بتقديـم بعـض الأعـذار؛ كمـا جـاء في قـول؛ وإمـا

---

[1] أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 30. والعبـر، مج: 7، ص: 27.

بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[1] عندها اتجه أبو يزيد ـ أولا ـ إلى وركلا، ثم التجأ ـ بعد ذلك ـ إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[2] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[3]

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن ـ في البداية ـ من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره ـ في البداية ـ من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى ـ سنية أم خارجية ـ تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[4] ومن جهة

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

[4] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه"؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رَجُلاً رَجُلاً. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] وأظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر ـ رضي الله

أخرى فقد استغل كراهية فئة عريضة من القبائل والعشائر في بلاد المغرب لحكام الدولة الفاطمية. أضف إلى ذلك كله؛ أن علماء المذاهب السنية في هذه الديار أشاعوا على الفاطميين صفات كريهة؛ وضعتهم في مصاف المخالفين لشرع الله، واتهمتهم بانتحال البدع والأكاذيب؛ بل اتهمتهم بالكفر أحيانا؛ كما كذبوا رواية انتسابهم إلى فاطمة البتول رضي الله عنها.[1]

عنهما ــ ودعا الناس إلى جهاد الشيعة؛ وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأزواجه؛ حتى ركزوا بنودهم عند الجامع؛ فلما كان يوم الجمعة؛ اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح؛ ومعهم البنود والطبول... فلما اجتمع الناس، وحضر الإمام، وطلع إلى المنبر؛ خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب؛ ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه؛ ثم نزل فخرج، وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار؛ فلم يزل قاهرا لهم، غالبا عليهم، قاتلا لجنودهم؛ حتى لم يبق لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 217 ــ 218.

[1] أورد ابن عذاري بعض التهم التي وجهت إلى الفاطميين؛ منها نحلة التشريق الإلحادية؛ التي زعم أعداؤهم أنها صدرت عنهم وعن أنصارهم. وأورد أيضا موجزا لما خطه محمد بن سعدون بن علي في كتابه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان؛ من هيجان الفتن، وتقلب الأزمان" وكان هذا الكتاب مشحونا بالتهم والأوصاف الكريهة للفاطميين؛ الذين يسميهم العبيديين؛ وينكر نسبهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ــ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ــ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ــ بالإضافة إلى هوارة ــ وهي قبيلة أمه ــ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ــ بعد فترة ــ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: **195**.

الملة، ويستبيح الغنائم والسبي فيهم.[1] وعليه فقد أعتبره الإباضيون الوهبيون نكاريا ومخالفا لمذهبهم.[2] وصنفوه ضمن فئات الخوارج المتطرفين. ومع هذا فقد كان يرى في نفسه الوارث الشرعي للدعوة الإباضية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية. لذا فقد حاول استعادة مجد الإباضيين، والنهوض بدولتهم من جديد؛ ولكنه فشل في الأخير.[3] وانتهت حركته

[1] أجمعت المصادر التاريخية كلها على سماح أبي يزيد بسفك دماء المسلمين المنتمين لغير مذهبه؛ كما أجمعت على استباحته للمحرمات، وتحريضه على سلب أموال المسلمين، وسبي نسائهم واستعباد أطفالهم. وهذا نص ـــ كعينة ـ كتبه أبو زكرياء ـ وهو أحد العلماء الإباضيين ـ يصف فيه أبا يزيد بصفات تضعه في مصاف الكفرة؛ إذ قال: ((ثم إن عدو الله [يقصد أبا يزيد] سار يريد القاسم بالقيروان؛ وكل قرية ومدينة مر بها ـ في طريقه ـ خربها، وسبا ذريتها، وغنم أموالها؛ كفعل نافع بن الأزرق وغيره من الخوارج؛ بل قد زاد عليهم وأربى... وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده ـ في إفريقية ـ ثلاثون ألف قرية؛ لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة... وبلغنا أنه نزل بالساحل؛ فاخذ أهل عسكره صبيتين؛ فجاءته أمهما تشكو إليه؛ فقالت له:"يا شيخ؛ إن العزابة سبوا لي ابنتين؛ وهما حرتان؛ وغصبوهما"؛ فلم يجبها عدو الله بجواب؛ غير أنه قال: "هل في إفريقية حرة". فخافت المرأة على نفسها؛ فهربت ونجت بنفسها)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 180 ـ 182.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـ 187. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـ 104. فكلها تتبرأ منه، وتخرجه من المذهب الإباضي الوهبي.

[3] وهذا ما جعل أبا القاسم بن عبيد الله يقول: ((لقد فتح فيهم [أي في الإباضيين] بابا؛ إلا أنه لم يحسن السيرة)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم؛ ص: 181.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ــ بعض الوقت ــ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ــ في بدية أمره ــ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ــ بواسطة الدعوة الدينية ــ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2]

---

[1] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ــ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ــ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ــ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ــ 125.

[2] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتُفرِدْ الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ــ وإن كانوا أضعافهم ــ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

غير أنه عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ بسبب ما كان يصدر عنه من نزوات؛ لم يتمكن من كبتها.[1] حيث أدى الشك في صدق دعوته إلى نكسة؛ أثرت على حركته؛ فأخذ العامل الديني يتلاشى؛ بفعل الشكوك التي غزت بعض أنصاره؛ فضعف تماسكهم، وانحلت وحدتهم؛ بفساد العصبية المناصرة له وتفككها[2]، وافتراق القبائل المتحالفة

[1] فمما قاله محمد الصنهاجي: ((وكان أبو يزيد في أول أمره يلبس خشن الثياب، ويمسك العصا، ويسمى شيخ المسلمين؛ ثم انتقل عن ذلك، وركب عتاق الخيل، ولبس الديباج؛ وكان يرى الجمع بين الأختين بملك اليمين، ويستبيح نساء المسلمين ممن خالفه، ويسفك الدماء. وكان أصحابه البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس؛ كائنا من كان؛ عيثا وعبثا؛ خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إياها؛ فرارا من الجوع والحصار؛ ويشقون بطونهم أحيانا فتشا عن المال؛ توهما منهم أنهم ابتلعوه)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: 31. وقال أيضا ابن خلدون: ((واستخف أبو يزيد بالناس؛ بعد قتل ميسور؛ فلبس الحرير، وركب الفاره؛ ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد... وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا؛ فتاب وأقلع؛ وعاود لبس الصوف والتقشف)). العبر، مج: 7، ص ص: 30 – 31.

[2] ويشرح ابن خلدون الكيفية التي تنكسر فيها العصبية؛ تبعا لضعف الصبغة الدينية؛ يقوله: ((واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها؛ دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها؛ ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة)). المقدمة، ج: 2، ص: 638.

معــه؛ حيــث عــادت إلى سابــق عهدهــا؛ عصبيات عديــدة؛ تفرقهــا الأهــواء والأطمــاع.[1]

وهنــا تظهــر الحاجــة إلى العصبيــة، والدعــوة الدينيــة معــا. فغيــاب إحداهمــا؛ يخــل باستقــرار الأخــرى. وهكــذا أخمــدت ثــورة أبي يزيــد؛ بواسطــة عصبيــة أقــوى مــن عصبيتــه؛ كانــت هي الأخــرى معــززة بدعــوة دينيــة تتمتــع بفعاليــة وقــدرة عــلى تحقيــق أهدافهــا. وربمــا عــاد سبــب فشلــه ــ في تحقيــق هدفــه ــ إلى مــا لاقــاه مــن خــذلان، وتنكــر مــن قبــل حلفائــه قبائــل زناتــة؛ وذلــك بعــد تخليهــم عــن مناصرتــه ومساندتــه؛ في أشــد الظــروف الــتي مــرت بــه؛ حيــث تركــوه فريســة سهلــة؛ بيــن براثــن أعدائــه. هــذه هي العصبيــة القبليــة؛ حيــن تظهــر في زيهــا السلــبي البشــع.

فثــورة أبي يزيــد كانــت ــ فــي الظاهــرــ ثــورة خارجيــة المذهــب؛ نشبــت ــ بضــراوة ــ ضــد دولــة شيعيــة المذهــب؛ ومــع هــذا فتلــك الثــورة لا تخلــو مــن نفحــات العصبيــة القبليــة ونزواتهــا؛ حيــث كانــت تلــك الثورة تتغــذى بشحنــات مــن العصبيــة الأمازيغيــة الزناتيــة والهواريــة؛ تلــك العصبيــة المناهضــة لتسلــط قبائــل كتامــة، وقبائــل صنهاجــة؛ الــتي تستتــر تحــت ستــار المذهــب الشيــعي. لأن الفكــرة المذهبيــة ــ في الحقيقــة ــ

---

[1] أنظــر أخبــار بــني عبيــد وسيرتهــم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامــل في التاريــخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعــاظ الحنفــا، ص ص: 115. 116. والعبــر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ــــ 33

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ـ كقبيلة هوارة ـ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ـ في الظاهر ـ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ـ أيضا ـ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ـ بالمقابل ـ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ـ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.

وهكذا تبددت أحلام زناتة؛ في إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الإسلامي؛ بزعامة أبي يزيد. وبهذا بقي الحديث عن ثورة أبي يزيد في حدود الكيان الثائر، المتمرد؛ الذي لم يصل إلى مرتبة الدولة؛ لأنه ــ حتى وإن كاد أبو يزيد أن يقضي على الدولة الفاطمية ــ لا يمكن وضع كيانه في مصاف الدول؛ إذ لم يكن سوى ثائر؛ حالفه الحظ أحيانا، وخانه أحيانا أخرى.

ــ إمارة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي:

وهو من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين. وقد قام هذا الرجل ــ مع رفيقه وصنوه في العلم ــ **أبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني** ــ بثورة مضادة للدولة الفاطمية؛ وذلك في بلاد قسطيلية أيضا سنة 358هـ(968م). أي بعد ثلاث وعشرين سنة ــ تقريبا ــ من مقتل أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتقول المصادر أن السبب في تلك الثورة كان بدافع الثأر؛ وليس بحافز عقائدي أو سياسي. وحدث ذلك بعد إعدام أحد علماء الإباضية الأعيان ــ ظلما كما يقال ــ من طرف سلطان الدولة الفاطمية ــ آنذاك ــ المعز لدين الله تميم ابن إسماعيل.

وهذه الحركة الإباضية ــ في الحقيقة ــ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ــ كما يعتقدون ــ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ــ بدورها ــ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر

---

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه ؛ أن أبا القاسم رضي الله عنه تحدث مع يهودي؛ فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم رضي الله عنه ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ــ إن شاء الله ــ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ــ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

من ذلك.[1] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له ــ بعد تحقيق هدفهم الأول ــ ولاية الظهور؛[2] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[3] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ــ بعض الوقت ــ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب.

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.

[2] قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر (رضي الله عنه) عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ رضي الله عنه فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.

[3] يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ــ ومن معه ــ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ــ فيما قيل والله أعلم ــ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة ــ التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان ــ أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم ــ فجأة ــ علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت ــ بفعل عواملها السلبية ــ في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة ــ فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات ــ فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 ــ 130.

وبهــذا القــدر مــن المعلومــات ــ حــول دور العصبيــة القبليــة في تشييــد دول الخــوارج، وتحريــك كياناتهــم الثائــرة ببــلاد المغــرب والأندلــس ــ يمكــن إنهــاء هــذا الفصــل؛ عــلى أن يتبعــه ــ لاحقــا ــ فصــل آخــر، يعالــج موضــوع نشــأة الدول العلويــة بتأثيــر العصبيــة القبليــة بهــذه الديــار أيضــا.

****

الدول العلوية

المقصود بالدول العلوية هي تلك الدول التي أنشأها أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو المنتسبون إليه من أهل الشيعة. وقد يحدث أن تكون الدولة علوية النسب؛ ولكنها سنية المذهب. وهذا هو الخط الفاصل بينها وبين الدولة الشيعية؛ ذات المذهب المخالف للمذاهب السنية؛ في الجوانب الكلامية والفقهية. أما الجانب السياسي؛ الذي ينص على وجوب إسناد الإمامة إلى عائلة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ فهو متفق عليه؛ بين أنصار النموذجين من هذه الدول. ولا يدخل في هذا المجال الدول الشيعية التي يحكمها أمراء من غير العلويين؛ مثل: بني زيري أمراء إفريقية والمغرب، وبني أبي الحسين أمراء صقلية.

بدأت الخلافات السياسية تظهر، وتنمو بين المسلمين؛ منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان منطلقها؛ اختلافهم في اختيار خليفة له. فأهل يثرب قالوا بأنهم أجدر الناس بمنصب الخلافة؛ لكونهم أنصار محمد عليه الصلاة والسلام. ولكن المهاجرين تصدوا لهم؛ وأعطوا لأنفسهم الحق في الخلافة؛ كونهم أهل رسول الله، وأسبق الخلق إسلاما.

ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء علي بن أبي طالب. وعليه فقد ثار ـ نتيجة لذلك ـ العلويون وشيعتهم ـ مرات عديدة ـ بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ــ من شتات وتشرد في الآفاق ــ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ــ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ــ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعانًا للعصبية التي لهم، وأمنًا أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)ـ الدولـــة الإدريسيـــة:

نشـأت الدولـــة الإدريسيـــة بواسطـــة إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي كـــرم اللـــه وجهـــه.[1] وذلـــك سنـــة 172هـــ (788م) ببلـــدة وليـــلي في المغـــرب الأقـــصى؛ حيـــث تـــم ذلـــك في حمايـــة قبيلـــة أوربـــة البرنسيـــة. ولمـــا كـــان إدريـــس مـــن أهـــل النصـــاب الملـــكي؛ فقـــد انقـــادت إليـــه هـــذه القبيلـــة الأمازيغيـــة بسهولـــة ويســـر؛ وذلـــك حينمـــا قبـــل أعضاؤهـــا بتوليـــه الحكـــم فيهـــم؛ ملكـــا وإمامـــا. وقـــد تعـــزز انقيادهـــم وتحقـــق قبولهـــم بـــه نظـــرا لأنـــه حفيـــد لرســـول اللـــه محمـــد صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم.

وهكـــذا تحقـــق ـــ أيضـــا ـــ مـــا قـــرره ابـــن خلـــدون؛ مـــن أنـــه يحـــدث لأهـــل النصـــاب الملـــكي؛ أن يقيـــم أحدهـــم دولـــة؛ بفضـــل عصبيـــة أخـــرى؛ غريبـــة عنـــه؛ فتغنيـــه عـــن الحاجـــة إلى عصبيتـــه الخاصـــة.[2] وهكـــذا.. فقيـــام الدولـــة الإدريسيـــة ببـــلاد المغـــرب جـــاء ـــ إذن ـــ كنتيجـــة طبيعيـــة لمـــا وصلـــت إليـــه عصبيـــة بـــني هاشـــم

---

[1] أنظـــر جمهـــرة أنســـاب العـــرب لابـــن حـــزم، ص: 49.

[2] وذلـــك بقولـــه: ((لمـــا انتبـــذ الطالبيـــون مـــن المشـــرق إلى القاصيـــة، وابتعـــدوا عـــن مقـــر الخلافـــة، وسَمَـــوْا إلى طلبهـــا مـــن أيـــدي بـــني العبـــاس؛ بعـــد أن استحكمـــت الصبغـــة لبـــني عبـــد منـــاف. لبـــني أميـــة أولا، ثـــم لبـــني هاشـــم؛ مـــن بعدهـــم. فخرجـــوا بقاصيـــة المغـــرب، ودَعَـــوْا لأنفسهـــم، وقـــام بأمرهـــم البرابـــرة؛ مـــرة بعـــد أخـــرى؛ فأوربـــة، ومغيلـــة؛ للأدارســـة. وكتامـــة، وصنهاجـــة، وهـــوارة؛ للعبيدييـــن. فشيـــدوا دولهـــم، ومهـــدوا بعصائبهـــم أمرهـــم. واقتطعـــوا مـــن ممالـــك العباسييـــن المغـــرب كلـــه، ثـــم إفريقيـــة)). المقدمـــة، ج: 2، ص: 635.

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنٍ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ـ هنا ـ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة **170**هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت أزلية ـ

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعتـــه طوعـــا؛ عـــلى السمـــع والطاعـــة؛ اعترافـــا منهـــا بفضلـــه ونبلـــه، وتبركـــا بنسبـــه الشريـــف. هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى يبـــدو أنهـــا وجـــدت فيـــه عامـــلا هامـــا؛ يساعدهـــا في كبـــح أطمـــاع ولاة القيـــروان.

هـــذا ولـــم يبـــق إدريـــس في موقـــف المنتظـــر بعـــد إعـــلان البيعـــة لـــه؛ بـــل نهـــض إلى الغـــزو والجهـــاد بمجـــرد إحساســـه باكتمـــال قوتـــه. فزحـــف عـــلى بقايـــا اليهـــود والنصـــارى والوثنييـــن؛ في: قنـــدلاوة وبهلوانـــة وفـــازاز وتامسنـــا وشالـــة وتادلـــة. ولمـــا أخضـــع تلـــك الديـــار بقبائلهـــا؛ اتجـــه شرقـــا؛ حيـــث فتـــح تلمســـان صلحـــا؛ بعـــد أن خـــرج إليـــه محمـــد بـــن خـــزر بـــن صـــولات المغـــراوي؛ طالبـــا الأمـــان، ومقدمـــا بيعتـــه، وبيعـــة أعيـــان قبيلـــه، ووجـــوه تلمســـان.[1]

وهكـــذا أصبحـــت الدولـــة الإدريسيـــة قـــوة يحســـب حسابهـــا. فأحـــس الخليفـــة العباســـي ــ هـــارون الرشيـــد ــ بالخطـــر الـــذي يمثلـــه إدريـــس؛ بوجـــوده عـــلى رأس تلـــك الدولـــة النائيـــة؛ والـــتي تـــزداد قـــوة وثـــراء كلمـــا مـــر الزمـــن. كمـــا تشتـــد صلابـــة وحصانـــة مـــع مـــرور الأيـــام؛ بفضـــل تلـــك القبائـــل الأمازيغيـــة الملتفـــة حولهـــا، والحارســـة عـــلى أمنهـــا وأمـــن عـــدوه. ولمـــا شعـــر بهـــول الموقـــف؛ قـــرر مـــن فـــوره اللجـــوء إلى الأسلـــوب المتـــاح لديـــه؛ والأكثـــر أمانـــا لـــه ولجيوشـــه. ويتمثـــل ذلـــك الأسلـــوب في الخديعـــة والاغتيـــال.

---

[1] **الأنيـــس المطـــرب بـــروض القرطـــاس، ص ص: 7 ــ 8. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ــ 192. والعبـــر، مج: 4، ص: 24.**

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ـ عن نفسه وعن الخليفة ـ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال:"إنما جيتك وحملت

وتم ـ بالفعل ـ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ـ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ـ بتنفيذ الخطة بدقة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ـ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ـ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ـ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ـ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ـ في جماعة من أصحابه ـ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ـ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ـ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ـ 194.

ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ـ كما تقول بعض المصادر ـ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

---

[1] في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس ـ حين وفاته ـ ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. ـ قال عبد الملك بن محمود الوراق ـ في كتاب المقباس ـ والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله ـ لما توفي ـ لم يترك ولدا مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له ـ مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة ـ حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس ـ بعد فراغه

ـ حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية، والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي ـ أيضا ـ إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر ـ كذلك ـ أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة ـ هذه المرة ـ يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس

من دفن إدريس ـ فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه – مولاه راشد – في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها – ولاة القيروان – والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً ـ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ـ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي ـ أيضا ـ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ـ مرة أخرى ـ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدَيْتُ رَاشِداً
وَإنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إدْرِيسَ رَاصِدُ
تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَحْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ
وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدِ
وَقَدْ كُنْت فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.

[2] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه

غير أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون ــ يوما بعد يوم ــ مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى ــ مرة أخرى ــ تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة.

كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسي ــ من قيس غيلان ــ وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على إدريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان ـ الثاني في الدولة ـ لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد ـ بنفسه ـ الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ــ على الخصوص ــ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ــ الحاضرة الجديدة للدولة ــ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ــ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ــ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[1] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود،

---

[1] ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:

قُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَا
لاَ يَحْسدَنَّكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفَةَ
هَيْهَاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَّا رَأيْتُكَ لِلِّئَامِ مُصَافِياً
أيْقَنْتُ حَقّاً أنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] المغرب، ص: 123.

ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[1]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[2] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن

---

[1] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ــ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ــ 205.

والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ــ 28.

عبد الله.[1] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي ابن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[2] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

ـ حكومة ابني محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ـ بعد وفاته ـ ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ـ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[1] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م) ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[2] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة

---

[1] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[2] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي ابن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

الإدريسية في عهده كما قيل.[1]حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة....**)).[2]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ــ 30.

[2] العبر، مج: 4، ص: 30.

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة ـ حسب قولهم ـ من عهد الدولة الإدريسية.

ـ حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم ـ بعد ذلك ـ والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومـــة عـــلي بـــن عمـــر بـــن إدريـــس:

كـــان هـــذا الأميـــر يحكـــم بـــلاد الريـــف؛ ولمـــا ثـــار سكـــان فـــاس عـــلى أميرهـــم يحـــيى؛ استـــدعى أعيـــان الدولـــة عليـــا هـــذا ليتـــولى الحكـــم بفـــاس؛ فقـــدم إليهـــا في ظـــروف غامضـــة؛ حيـــث بويـــع مـــن طـــرف أهـــل الحـــل والعقـــد. ولـــم تشـــر المصـــادر المتوفـــرة إلى تاريـــخ ولايتـــه، ولا تاريـــخ سقـــوط حكمـــه. وكـــل مـــا ذكـــر هـــو أن الدولـــة في عهـــده مـــرت بمراحـــل حرجـــة ـ نتيجـــة لظـــروف خارجيـــة وداخليـــة ـ ســـادت فيهـــا الاضطرابـــات والفتـــن بيـــن الأميـــر عـــلي وبعـــض الثـــوار مـــن الصفريـــة؛ بقيـــادة عبـــد الـــرزاق الفهـــري الخـــارجي؛[1] الـــذي كـــان متمركـــزا بجبـــال ويـــلان بمديونـــة؛ جنـــوب فـــاس. فتغلـــب هـــذا الثائـــر الصفـــري عـــلى عـــلي بـــن عمـــر، وأخرجـــه مـــن فـــاس؛ ثـــم اضطـــره للفـــرار إلى بـــلاد أوربـــة. هـــذا ولـــم يتمكـــن عبـــد الـــرزاق الصفـــري مـــن الاستيـــلاء عـــلى عـــدوة القيروانييـــن؛ فاكتـــفى بعـــدوة الأندلسييـــن؛[2] حيـــث بـــقي فيهـــا إلى أن ظهـــر الأميـــر يحـــيى بـــن القاســـم. وهـــو كمـــا يظهـــر مـــن اسمـــه يتبـــع الفـــرع الثـــالـــث مـــن أبنـــاء إدريـــس؛ أي فـــرع القاســـم ابـــن إدريـــس.

---

[1] سبـــق الحديـــث عنـــه عنـــد التطـــرق للأمـــراء الثائريـــن مـــن الخـــوارج؛ في الفصـــل السابـــق.

[2] تبـــقى الفتـــرة الزمنيـــة الفاصلـــة مـــا بيـــن مـــوت عـــلي بـــن محمـــد؛ وتـــولي يحـــيى ابـــن إدريـــس بـــن عمـــر غامضـــة وغيـــر واضحـــة المعالـــم. والمصـــادر التاريخيـــة كلهـــا تتخلـــص مـــن الموضـــوع بجمـــل خاطفـــة لا تفيـــد.

ـ حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:

ولما انهزم علي بن عمر أمام عبد الرزاق الصفري؛ ودخول هذا الأخير عدوة الأندلسيين؛ أرسل أهل العدوة الأخرى في طلب يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس الملقب بالمقدام أو العدام؛[1] وقد تمكن هذا الأمير الحازم من استرجاع عدوة الأندلسيين؛ بعد أن طرد منها الخوارج. وشدد ـ من هناك ـ الضغط على أولئك الثوار الصفرية، ولاحقهم في معاقلهم، وكانت له معهم وقائع هامة؛ ولكنه لم يهنأ طويلا؛ إذ اغتاله شخص سمته المصادر ـ دون توضيح يذكر ـ بالربيع بن سليمان سنة 292هـ (904م). وبموته عاد عرش الدولة إلى أسرة عمر بن إدريس مرة أخرى؛ من خلال الأمير يحيى بن إدريس بن عمر. وعلى الرغم من الأحداث الكبرى التي عرفتها هذه الفترة ـ ولو كانت قصيرة ـ فإن المصادر التاريخية وقفت عاجزة عن تقديم شيء مهم للقارئ.

[1] يقول البكري وابن الخطيب: أنه عرف باسم العدام، أما ابن أبي زرع وابن عذاري فيسميانه العوام، أما ابن خلدون فيسميه الصرام. ويبدو أن الاسم تعرض للتحريف.

ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس ـ من جديد ـ إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثـرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ـ صاحب تسول وبلاد تازا ـ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة ـ كما سبق ذكره ـ حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان ـ في تلك الديار ـ بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر ـ من فوره ـ إلى منح شيخ مكناسة ـ موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي ـ

الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه ـ في قوم من وجوه عسكره ـ فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: **48 ـ 49.**

ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء ـ المتخذ من طرف مصالة ـ يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى بن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان ـ في الحقيقة ـ يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى ابن العافية؛ وسجنه عنده زهاء عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ــ التي كانت آنئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ــ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولى مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلَسْتُ بحَاجِمٍ
وَلَكِنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجِمِ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

---

[1] الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

[2] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ـ أخي الحسن ـ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر

الحسن الحجام: ((**القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري**)).[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: ((**وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض**)).[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـــ 33.

[1] **الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.**

[2] **المقدمة، ج: 2، ص: 666.**

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ـ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ـ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ـ كما سبق ذكره ـ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: **"فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"**.[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ـ أيضا ـ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ـ في الغالب ـ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ـ في الغالب ـ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ـ بالملك والترفه ـ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجـزر؛ خلـص الأمـر إلى سقـوط مـا بـقي مـن قـلاع للصمـود في الدولـة الإدريسيـة؛ تحـت ثقـل الدولـة الأمويـة بالأندلـس سنـة 365هـ (975م). ولكـن كيـف حـدث كـل ذلـك..؟

****

ــ عصــر التفكــك والشتــات:

أخـذت الدولـة الإدريسيـة في التفكـك إلى أجـزاء صغيـرة، وأطـراف منفصلـة؛ اعتبـارا مـن تاريـخ سقـوط حكومـة الحسـن الحجـام؛ أي في بدايـة العقـد الثـاني مـن القـرن الرابـع الهجـري ــ حيـث غـدت تشبـه قطـرة مـن زئبـق سقطـت عـلى مسطـح؛ فتفتتـت إلى جزيئـات؛ تناثـرت في كـل الجهـات. ومـع هـذا فقـد بقيـت خلايـا تلـك الدولـة تنبـض بالحيـاة؛ وإن تفككـت

عـلى رجـاء مـن مراجعـة الأحـوال الـتي كانـت للجيـل الأول؛ أو عـلى ظـن مـن وجودهـا فيهـم. وأمـا الجيـل الثالـث فينسـون عهـد البـداوة والخشونـة كـأن لـم تكـن، ويفقـدون حـلاوة العـز والعصبيـة؛ بمـا هـم فيـه مـن ملكـة القهـر؛ ويبلـغ فيهـم التـرف غايتـه؛ بمـا تفنقـوه [أي تنعمـوا] مـن النعيـم، وغضـارة [أي النعمـة والسعـة] العيـش؛ فيصيـرون عيـالا عـلى الدولـة؛ ومـن جملـة النسـاء والولـدان المحتاجيـن للمدافعـة عنهـم؛ وتسقـط العصبيـة بالجملـة... وهـذه الأجيـال الثلاثـة عمرهـا مائـة سنـة عـلى مـا مـر. ولا تعـدو الـدول ــ في الغالـب ــ هـذا العمـر؛ بتقريـب قبلـه أو بعـده؛ إلا إذا عـرض لهـا عـارض آخـر؛ مـن فقـدان المطالـب؛ فيكـون الهـرم حاصـلا مستوليـا؛ والطالـب لـم يحضرهـا؛ ولـو قـد جـاء الطالـب؛ لمـا وجـد مدافعـا. "فـإذا جـاء أجلهـم لا يستأخـرون ساعـة ولا يستقدمـون" [مـن الآيـة 61 مـن سـورة النحـل])). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الأول ابن محمد بن القاسم بن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ـ مرة ـ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـ ومرة أخرى ـ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنال؛ في نواحي الريف بجبال غمارة. أما الإمارة الثانية فهي لبني عمر بن إدريس بن إدريس؛ بقيادة أبي العيش[1] بن إدريس بن عمر بن إدريس؛[2] وقامت في جهات تيقيساس (تيكيساز) وسبتة وطنجة من بلاد غمارة. وعلى هذا تكون قبيلة غمارة قد برهنت على أنها من أخلص قبائل المغرب لبني إدريس؛ حيث احتضنوهم، وآووهم في بلادهم، وأخلصوا الطاعة لهم جميعا؛ سواء كانوا من بنى إبراهيم بن محمد بن القاسم، أو من بني عمر بن إدريس.[3]

---

[1] منعا لكل التباس؛ من الواجب التنبيه إلى أن اسم أبي العيش مستعمل في عائلتي الأدارسة وبني سليمان. وثمة عدد من الأشخاص يسمون بهذا الاسم.

[2] يقول البكرى: ((وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر ابن إدريس؛ وبولده تكرر الأمر؛ إلى أن أكثرهم بنو محمد بن القاسم. ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة؛ يكنى أبا العيش؛ ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله... وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين [يقصد أبا العيش محمدا ويحيى الذي تولى الملك بفاس]؛ ولهم عقب كثير)). ثم يضيف: ((وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى. فأما يحيى فله بنون بتازغدرا. وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة. فأما علي فولي الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة)). المغرب، ص ص: 132 ــ 133.

[3] يقول ابن خلدون في هذا: ((واستولى ابن أبي العافية على فاس، وأعمال المغرب؛ وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر؛ وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات؛ واستجدوا بتلك الناحية ملكا؛ توزعوه قطعا. كان أعظمها لبني محمد هؤلاء، ولبني عمر بتيفيساس ونكور وبلاد الريف)). العبر، مج: 6، ص: 448.

غيــر أن مــوسى بــن أبي العافيــة لــم يكتــف بمــا افتكــه مــن أيــدي الأدارســة؛ بــل شحــن عليهــم بسعيــه في مطاردتهــم عبــر البــلاد المغربيــة كلهــا؛ إذ عمــل جاهــدا لتصفيتهــم نهائيــا، وإزالــة وجودهــم مــن تلــك الديــار؛ ســواء كــان ذلــك بالقتــل، أو بالنــفي الأبــدي.[1] حــدث ذلــك بعــد أن تغلــب مــوسى بــن أبي العافيــة عــلى معظــم المغــرب الأقــصى؛ وبعــض والأجــزاء الغربيــة مــن المغــرب الأوســط. وطــارد الحسنييــن في كــل مكــان؛ حــتى أوشــك أن يقــضي عــلى وجودهــم نهائيــا مــن تلــك البــلاد. ولــم يفلــت مــن مخالبــه أو يتــقي سطوتــه إلا الذيــن انحــازوا إلى الريــف؛ متحصنيــن بقلعــة حجــر النســر المنيعــة؛ كمــا سبــق قولــه. وحــتى هــؤلاء حــاول استئصالهــم نهائيــا لــولا المعارضــة الــتي واجهــه بهــا أصحابــه.[2]

---

[1] وصفــت بعــض المصــادر والمراجــع مــا أحدثــه ابــن أبي العافيــة مــن مجــازر في بــلاد المغــرب؛ كــان الأدارســة مــن ضحاياهــا. وقــال إسماعيــل العــربي؛ دون أن يشيــر إلى مصــدره: ((وعقــب ذلــك؛ بــدأ ابــن أبي العافيــة في مطــاردة الأدارســة وتقتيلهــم جماعــات وأفــرادا؛ حــتى أطلــق عــلى نهــر فــاس اســم النهــر الأحمــر؛ لغــزارة الدمــاء ــ دمــاء الأدارســة خصوصــا ــ الــتي سالــت فيــه)). كتــاب دولــة الأدارســة، ص: 154.

[2] قــال في هــذا ابــن أبي زرع: ((واستــولى ابــن أبي العافيــة عــلى جميــع بــلاد المغــرب؛ وبايعــه القبائــل والأشيــاخ؛ فأجــلا جميــع الأدارســة مــن بلادهــم، وأخرجهــم مــن ديارهــم، وملــك مدينــة أصيــلا، ومدينــة شالــة وغيرهــا مــن بلادهــم. وســاروا بأجمعهــم إلى قلعــة حجــر النســر؛ مقهوريــن، مغلوبيــن؛ فانحصــروا بهــا؛ وهي حصــن منيــع؛ بنــاه محمــد بــن إبراهيــم بــن القاســم بــن إدريــس؛ طلــع في عنــان السحــاب. فنــزل عليهــم ابــن أبي العافيــة؛ واشتــد عليهــم الحصــار؛ وأراد استيصالهــم،

وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء ـ نهائيا ـ على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير ـ في تلك

وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس

الأثناء ـ داخلا في طاعة الفاطميين؛ فحاصره ابن أبي العافية، وأخرجه من تلمسان، ومن جراوة في سنة 319هـ (931م)؛ واضطره للالتحاق بمدينة مليلة؛ حيث تحصن بها؛ إلى أن تحين الفرصة المواتية. وبعد ذلك توجه ابن أبي العافية إلى مدينة نكور؛ فاحتلها هي الأخرى سنة 320هـ (932م). وكان في هذه الأثناء؛ قد نقل بيعته من الفاطميين بإفريقية، إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بالأندلس.

وتعتبر هذه الخطوة التي قام بها ابن أبي العافية هي بداية نهايته؛ إذ أرسل عبيد الله الشيعي جيشا فاطميا ـ في البداية ـ بقيادة حميد بن يصليتن أو يصلي (عمه هو مصالة). فتمكن من طرد موسى من فاس، وإجباره على التحصن في نواحي تسول. ولما لم تكن حملة يصلي حاسمة فقد جرد عبيد الله الشيعي جيشا آخر بقيادة

العلوي. ودارت بينهما محاربات ومواقعات. وبنى الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا؛ بجبل بينه وبين جراوة أربعة أميال؛ وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها؛ يسكنها مثل زواغة ونفزة وغير ذلك. وفي ذلك يقول بكر بن حماد [كامل]:

سَائِلْ زُواغَةَ عن طعان سُيوفِه ... وَرماحه في العَارِضِ المُتَهَلِل

وديار نَفزة كَيفَ دَاسَ حَرِيمَها ... والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبَّل

وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلَّة ... وسقىَ جَراوة من نَقِيع الحنظل)).

وجراوة في البيت الأخير؛ تعني القبيلة؛ وليست المدينة. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ـ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك ــ على الأخص ــ انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس ــ بفرعيهم ــ حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] اختلفت الأقوال ــ أيضا ــ حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.

فكانــوا بذلــك يترصــدون الأحــداث، ويتربصــون حلــول الفــرص المناسبــة ــ مــن تلــك المواقــع المنيعــة ــ للانقضــاض عــلى أعدائهــم. وقــد اضطــروا أحيانــا؛ إلى عقــد أحــلاف، وعهــود مــع خصومهــم السابقيــن؛ مــن أجــل تحقيــق أهدافهــم الأساسيــة؛ الــتي تتمثــل: في القضــاء عــلى عدوهــم الرئيــسي مــوسى بــن أبي العافيــة؛ ثــم العــودة إلى فــاس؛ الأمــر الــذي يحقــق لهــم تطهيــر أراضيهــم بعــد ذلــك نهائيــا مــن الدخــلاء والمحتليــن؛ ســواء كانــوا مــن الفاطميــن الشيعــة، أم مــن الأموييــن.[1]

وبالفعــل فقــد سارعــوا إلى عقــد حلــف مــع الفاطمييــن ــ وإن كــان ذلــك لبعــض الوقــت ــ حينمــا كانــت جيــوش الشيعــة تطــارد مــوسى بــن أبي العافيــة؛ الأمــر الــذي مكنهــم مــن استرجــاع معظــم أملاكهــم بالمغــرب.[2] كمــا سعــوا إلى مصانعــة، الأموييــن

---

[1] كانــوا ينــاورون بيــن الأموييــن والفاطمييــن. أنظــر: المغــرب، ص ص: 128 ــ 134. وروض القرطــاس، ص ص: 53 ــ 59. والعبــر، مج: 6، ص ص: 448 ــ 454.

[2] وممــا قالــه عنهــم البكــري: ((ثــم قــدم ميســور الفــتى إلى المغــرب في سنــة ثــلاث وعشريــن وثــلاث مايــة... حاصــر مــوسى بــن أبي العافيــة؛ وتــولى معاظــم تلــك الحــروب بنــو إدريــس؛ حــتى جــلى مــوسى بــن أبي العافيــة إلى الصحــراء؛ وصــار مــا كــان بيــده إلى آل إدريــس؛ والرياســة منهــم في بــني محمــد بــن القاســم بــن إدريــس بــن إدريــس؛ وهــم: حســن وجنــون [كنــون] وإبراهيــم؛ بنــو محمــد بــن القاســم؛ وكــان محمــد متخلفــا في اخوتــه وعشيرتــه؛ لا قــدر لــه؛ ثــم صــارت النباهــة والقــدر لبنيــه؛ وإبراهيــم بــن محمــد هــو المعــروف بالرهــوني. وكــان الــذي يلــزم صخــرة النســر منهــم جنــون [كنــون] وحنــون ابنــا إبراهيــم؛ واســم جنــون [كنــون] القاســم... وكــان أعــلى بــني محمــد كلهــم أيــدا أبــو العيــش بــن جنــون [كنــون] بــن محمــد؛ وكــان لــه مــن البلــد مــا بيــن أجاجــن؛ وهــو بقــبلي حجــر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولَمِّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعته، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكـذا فما أن خلصـوا مـن أطمـاع مـوسى بـن أبي العافيـة والشيعـة؛ حـتى تورطـوا في أطمـاع أخـرى أشـد وأكثـر شراهـة ونفـاذا؛ تلـك هـي أطمـاع عبـد الرحمـن الناصـر حاكـم الأندلـس؛ الـذي وضـع كـل مـا في حوزتـه مـن قـوة ودهـاء؛ لـكي يمنـع وصـول الفاطميـن إلى حـدود مملكتـه. إذ أن خوفـه مـن امتـداد نفـوذ الفاطميـن الأقويـاء إلى حـدود دولتـه الجنوبيـة؛ في الطـرف المقابـل مـن العـدوة؛ ألزمـه وحتـم عليـه العمـل الجـاد؛ لـكي يحـول بيـن الفاطميـن وبيـن تحقيـق أهدافهـم البعيـدة المـدى. تلـك الأهـداف الـتي تـرمي إلى الانفـراد بالخلافـة الإسلاميـة غربـا وشرقـا؛ بحكـم أنهـم يـرون في أنفسهـم أحـق النـاس بهـا؛ لأنهـم مـن أبنـاء فاطمـة الزهـراء؛ الـتي تجعلهـم خيـر مـن يمثـل أهـل البيـت.

إليـه، والاعتـراف بحقـه)). دولـة الأدارسـة، ص: 158. هـذه حـال بـني إدريـس؛ بعـد أن غـزت الشيخوخـة دولتهـم، وبعـد فسـاد عصبيتهـم. وعليـه فقـد وجـد الخليفـة الأمـوي الأرضيـة صالحـة لاكتسـاح بلادهـم وضـم أراضيهـم وأملاكهـم إليـه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ـ بعد ذلك ـ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ـ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ـ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ـ بسهولة ـ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ـ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ـ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ـ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ـ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ـ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ـ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ـ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ـ في الأيام الأخيرة ـ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم

ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون):

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها

تغلب عليهم المروانيون، وأثخنوهم إلى الأندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـ بسبب ذلك ـ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـ بعد ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن إدريس؛ لأنهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الإدريسية.

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه – في حقيقة الأمر – لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع – بعد مدة – أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغرب؛ وانقياد القبائل الأمازيغية إليه؛ بعث إليه يستأذنه في الانتقال إلى الأندلس بهدف الجهاد في الثغور. فلبى عبد الرحمن طلبه؛ مبديا فرحه وسروره.[1] وتقول المصادر أن حياة أبي العيش انتهت باستشهاده في ميدان الجهاد بالأندلس سنة 347هـ (958م).[2] وكان أبو العيش قد استخلف في أعماله ـ عند مسيره للأندلس ـ أخاه الحسن بن قنون (كنون). وهذا الأخير هو صاحب الدولة الإدريسية الثانية بالبصرة وفاس. كما يعتبر آخر ملوك هذه الدولة في المغرب الأقصى. وهنا لا بد من عرض الكيفية التي وقعت بها تلك الأحداث.

---

[1] يقول في هذا ابن أبي زرع: ((فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة؛ كتب إليه ـ إلى قرطبة ـ يستأذنه في الجهاد؛ فأذن له؛ وأمر أن يبنى له في كل منزل ينزله قصرا؛ من الجزيرة الخضراء إلى الثغر؛ وأن يجرى له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة؛ ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر. فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر. فكانت منازله في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلا)). الأنيس المطرب، ص: **54**. أنظر أيضا المغرب، ص: **120**. وأعمال الأعلام، ق: **3**، ص ص: **218** ــ **219**.

[2] اختلفت الأقوال حول تاريخ وفاته؛ فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان أنها حدثت في سنة **343**هـ؛ بينما يرى ابن الخطيب أنها وقعت في سنة **346**هـ؛ بينما يخطئ البكري حين يقول أنها حصلت في سنة **332**هـ. أما إسماعيل العربي فيجزم بأنها حدثت في سنة**347**هـ. الأنيس المطرب، ص: **54**. وأعمال الأعلام؛ ق: **3**، ص: **219**. والعبر، مج: **6**، ص: **450**. ودولة الأدارسة، ص: **179**.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ــ من مخرج ــ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ــ طبعا ــ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ـ على جميع بلاد المغرب ـ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ــ بعد ذلك ــ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ــ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ــ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ــ آنئذ ــ إذ لا تسند إليه ــ في العادة ــ إلا المهمات الصعبة

---

[1] **المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.**

والخطيرة. ووصفه ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

- ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة.

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ــ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ــ هذه المرة ــ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ــ لهذه الحملة ــ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن الأسطـــول ـــ بجيشـــه ـــ متجهـــا إلى طنجـــة. [1] ومـــع ذلـــك لـــم يتوقـــف مـــدد المستنصـــر لجيـــش غالـــب بالعساكـــر والمـــال والعتـــاد الحـــربي؛ بـــل استمـــر ذلـــك الخليفـــة الحـــازم في إرســـال التعزيـــزات وراء التعزيـــزات؛ دون تحفـــظ أو تـــردد.[2]

---

[1] قـــال ابـــن حيـــان: ((وفي جمـــادى الآخـــرة احتـــل الوزيـــر القائـــد الأعـــلى غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن بمحلـــة فحـــص الســـرادق ـــ شـــرقي قرطبـــة ـــ مستـــدعىً مـــن مـــولاه الخليفـــة الحكـــم؛ مهيبـــا بـــه لحـــرب الغـــوي حســـن بـــن قنـــون؛ المنـــازع لـــه عملـــه بـــأرض العـــدوة؛ عندمـــا تفاقـــم أمـــره، وأعيـــا مراســـه، وأثخـــن في قتـــل الجنـــد، وانتحـــل ولايـــة الـــدعي الشيـــعي معـــد. فاضطـــرب غالـــب بمحلتـــه تلـــك ـــ يومئـــذ ـــ في يوميـــن في الدَّهـــم [أي العـــدد الكثيـــر] الذيـــن أمـــر باستنفارهـــم؛ مـــن حشـــد الثغـــر الأعـــلى إلى مـــن استنهضهـــم مـــن جيـــش السلطـــان لديـــه؛ ثـــم تقـــدم بهـــم في اليـــوم الثالـــث إلى الزهـــراء وطـــن الخليفـــة مـــولاه؛ مشتقـــا قرطبـــة؛ واجتهـــر أهلهـــا مـــن احتفـــال جيشـــه، واكتمـــال عـــدده واطـــراد ترتيبـــه مـــا امتـــلأت بـــه قلوبهـــم فرحـــا،= =وشمخـــت لـــه أنوفهـــم عـــزا. وأقـــام بقرطبـــة أيامـــا؛ اتصـــل فيهـــا عمـــل السلطـــان ورجالـــه في تجهيـــزه، وإزاحـــة عللـــه، وتقويـــة أيـــده؛ إلى أن بلـــغ منـــه مـــا ارتضـــاه؛ ففصـــل عنـــد ذلـــك في جموعـــه يـــوم الثلاثـــاء لتســـع خلـــون مـــن رجـــب منهـــا)). ((وفي هـــذا الوقـــت [أي شهـــر رمضـــان] ورد الخبـــر بركـــوب الوزيـــر القائـــد الأعـــلى غالـــب بـــن عبـــد الرحمـــن البحـــر في الأسطـــول؛ مـــن مدينـــة الجزيـــرة؛ فرضـــة المجـــاز إلى بلـــد الأندلـــس؛ بعـــد طـــول مقامـــه فيهـــا؛ بعـــد أن استكمـــل أهبتـــه فيهـــا؛ وقـــدم إجـــازة الأجنـــاد والخيـــل والأثقـــال وآلات الحـــروب؛ فتوافـــت إلى هنـــاك كاملـــة؛ وإن ركوبـــه مـــن الجزيـــرة كـــان في يـــوم الأحـــد لاحـــدى عشـــرة ليلـــة خلـــت مـــن شهـــر رمضـــان منهـــا؛ وأقلـــع رافعـــا إلى جهـــة طنجـــة مـــن أرض العـــدوة)). المقتبـــس في أخبـــار بلـــد الأندلـــس، ص ص: 102. 115.

[2] وهاتـــان عينتـــان لذلـــك: ((وورد كتـــاب صاحـــب الشرطـــة وقائـــد البحـــر عبـــد الرحمـــن بـــن رماحـــس؛ يذكـــر حركتـــه بالأسطـــول إلى أصيـــلا؛ لمـــا في القـــرب مـــن الوزيـــر القائـــد الأعـــلى واجتمـــاع الأسطوليـــن مـــن صـــواب التدبيـــر، والأخـــذ بالحـــزم... وأرسلـــت إليـــه [إلى غالـــب] كـــسي فخمـــة، وســـرج وألجـــم محـــلاة؛ ففضهـــا فيمـــن

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[1]

جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ـ خامسًا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]

ـ سادسًا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: **97**. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: **140**.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أما الجانب الإعلامي فقد تولاه ــ في غالب الأحيان ــ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن ابن قنون.[1] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ــ كلما ذكر ــ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[2] حيث تم نقله ــ

البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدِّه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ إسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛ وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رائق، ومرأى فائق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: **116**.

[1] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الإعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: **108 ــ 109**.

[2] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛

مع أهله وحاشيته ـ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ـ مع أهله أيضا ـ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1]

فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ـ على ملك الأندلس ـ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز

قوتها ـ إلى قدرة نافذة، وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت دولة الأولين؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

****

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب ـ هي الأخرى ـ قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك المدينة التي أضحت ـ في عهدهم ـ مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية: ـ المغرب

---

[1] **يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري ـ وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من**

للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ـ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ـ الدينية منها والثقافية ـ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون

هوارة ـ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)). ((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)). ((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ـ 16. 23. 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا – آنئذ – بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ – أيضا – أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما – قبل ذلك العهد – إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين – الذي بنته فاطمة الفهرية – أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول – مع الأيام – إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: ((**بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا**)).[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى.

[1] العبر، مج: 4، ص: 24.

ومن الشعر المنسوب إلى إدريس الثاني هذه المقاطع:[1]

لَوْ مَالَ صَبَري بصَبَرِ الناسِ كُلِّهِمُ

لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي

وَمَا أريعُ إلَى يَأسٍ لِيسْلِينِي

ألا [..........] يَأس إلى طمعِ

وكَيفَ يَصبْرُ مَطوِيٌّ هَضَائِمُهُ

عَلى وَسْوَاسِ هَمٍّ غَيرِ مُنقطِعِ

إذا الهُمُومُ توَافتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ

كرَّتْ عَلَيهِ بِكأسٍ مُرَّة الجُرَعِ

بَانَ الأحِبةِ واستَبْدَلت بُعْدَهُمُ

هَماً مُقِيماً وَشَمْلاً غَيْرَ مُجْتَمِعِ

كَأنِّي حِينَ يُجرِي الهَمُّ ذِكرَهمُ

عَلى ضَمِيرِي مَخْبولٌ مِنَ الفَزَعِ

---

[1] قد يشك بعضهم في صحة إسناد هذه النصوص إلى إدريس؛ غير أن المهم هنا هو تقديم عينة من النصوص الأدبية التي قيلت في ذلك الوقت؛ ولا يهم ـ في هذه الحال ـ إن كان قائلها هو إدريس نفسه، أو قيلت نيابة عنه؛ من طرف أدباء كانوا في بلاط دولته.

تأوِي هُمــومِي إذْ حَرَّكَــت ذِكرَهــمُ

إلَى جَوَانِــحِ جسْــمٍ دَائِــمِ الوَلَــعِ

كمــا بعــث بأبيــات ــ نسبتهــا المصــادر إليــه ــ محــذرا شيــخ قبيلــة مطغــرة بهلــول بــن عبــد الواحــد مــن مغبــة انسياقــه في المؤامــرة الــتي يحــوك خيوطهــا إبراهيــم بــن الأغلــب؛ فقــال:

أبَهْلــولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَــكَ خُطــة

تبَدَّلــتَ منِهَــا ضَلَــــة برَشَــــادِ

أضَلَــكَ إبرَاهِيــمُ مِــنْ بعْــدِ دَارِهِ

فأصْبَحْــتَ مُنقــاداً بغيــرِ قِيَــادِ

كَأنكَ لمْ تَسْمَــعْ بِمَكــرِ ابْنِ أغلــبٍ

وَقدْمــاً رَمَى بِالكيــدِ كــلَّ بــلاَدِ

وَمِنْ دُونِ مَا مَنَتــكَ نفسُــكَ خَالِيــاً

وَمَنــاكَ إبرَاهيــمُ شــوْكَ قتــــادِ

وثمــة أبيــات أخــرى نسبــت إليــه أيضــا؛ وهي موجهــة إلى ابــن الأغلــب؛ يقــول فيهــا:

أذكــرُ إبْرَاهِيــمَ حــقَّ مُحَمَّــدٍ

وَعِترَتِــهِ وَالحَــقُّ خيْــرَ مَقــولِ

وَأدْعوهُ لِلأمْــرِ الذِي فِيهِ رُشْــدُهُ
وَمَــا هوَ لــوْلاَ رَأيــهُ بِجهــولِ
فــإنْ آثــرَ الدُّنيــا فــإِنَّ أمامَــهُ
زَلاَزِلَ يــوْمٍ لِلعقــابِ طوِيــلِ

ومما نسب إليه من نثر؛ هذه الخطبة التي ألقاها يوم بيعته في سنة 188هـ (803هـ)؛ وجاء فيها: ((**الحمد الله، أحمده وأستغفره، وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ به من شرّ نفسي، ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً. أيها الناس: إنا قد ولِّينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا**)).[1]

---

[1] الأدب المغربي، ص ص: 121 ــ 122. وكما يظهر فقد اقتبس هذه العبارة الأخيرة من خطبة أبيه. راجع ما سبق.

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتركُكُ لِلرَاغِبِ الغرْبَ نَهباً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيلاً وَندْبا

وَأسْمو إلَى الشرقِ فِي هِمةٍ
يعِزُّ بها رُتباً مَنْ أحَبَّا

وَأتركُ عِيسَى عَلَى رَأيهِ
يُعَالجُ فِي الغرْبِ هَمًّا وَكرْبا

وَلوْ كانَ قلبِي عَن قلبهِ
لكنتُ لهُ فِي القرَابةِ قلبَا

وَإنْ أحدَثَ الدَّهرُ مِنْ رَيبهِ
شِقاقاً عَليْنا وَأحدَثَ حَرْبا

فإنِّي أرَى البُعْدَ سِتراً لنا
يُجَدِّدُ شَوقاً لدَينا وَحبا

ولَمْ نَجْنِ قطعاً لأرْحامنا
نلاَقِي بهِ آخِرَ الدَّهرِ عَتبَا

وَتبْــقَى العَــدَاوَة فِي عَقبنـــــا

وَأكــرِمْ بـــهِ حِينَ نعْقِــبُ عَقبَــا

وَأوفــقُ مِنْ ذَاكَ جَــوْبُ الفــلاَةِ

وَقطــعِ المَخارِمِ نقبــاَ فنقبَـــــا

هــذا عــن ملــوك وأمــراء الدولــة الإدريسيــة؛ أمــا الأدبــاء والشعــراء مــن عامــة النــاس؛ فالمعلومــات عنهــم ــ هي الأخــرى ــ شحيحــة للغايــة؛ ومــع هــذا يمكــن الاستشهــاد ببعــض العينــات المتناثــرة في عــدد مــن المصــادر والمراجــع. وكمثــال عــلى ذلــك يــأتي: أحمــد ابــن القاســم بــن إدريــس وأبــو العيــش عيــسى بــن إبراهيــم بــن القاســم بــن إدريــس أميــرا البَصْــرة (أو كــرت كمــا تســمى أيضــا) في مقدمــة الذيــن يهتمــون بــالأدب والشعــر؛ إذ كانــا يستقبــلان في مجالسهمــا الشعــراء مــن كــل الأقطــار؛ ويقصدهمــا الشعــراء والأدبــاء مــن ربــوع المغــرب والأندلــس كلهــا؛ حيــث كانــوا يتوافــدون إلى مجالسهمــا الثريــة الزاهيــة. ويفهــم مــن بعــض المصــادر أن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي التاهــرتي كــان يراســل أحمــد بــن القاســم ــ إن لــم يكــن قــد زاره في بلاطــه ببصــرة ــ ويمدحــه بقصائــد كثيــرة؛ لــم يصلنــا منهــا إلا هــذه القطعــة الــتي يقــول فيهــا:

إنَّ السَّمَاحــةَ وَالمُــرُوءَة وَالنــدَى
جُمِعــوا لأحْمَــدَ مِنْ بَنِي القاسِــمِ
وَإِذَا تفاخــرَتِ القبَائِــلُ وَانتمَــت
فَافخــرْ بِفضــلِ مُحمَّــدٍ وَبِفَاطِــمِ
وَبِجَعْفــرِ الطيــارِ فِي دُرَجِ العُــلَى
وَعَلِيٍّ العَضبِ الحُسَــامِ الصــارِمِ
إِنِّي لمشتــــاقٌ إليــــكَ وَإِنمَــــا
يَسموا العقــابُ إِذَا سَمَــا بِقــوَادِمِ
فابعــثْ إِلَيَّ بِمركــبٍ أسْمــو بــهِ
عَــلي أكــونُ عليــكَ أوَّلَ قــادِمِ
وَاعْلَــمْ بِأنــكَ لــنْ تنــالَ مَحبــة
إلاَّ ببعــضِ ملاَبــسٍ وَدَرَاهــــمِ

وقــال ابــن عــذاري هنــا: (**(فبعــث إليــه ببغلــة سنيــة، وصلــة جزلــة. وكــان لــه فيــه أمــداح كثيــرة**)).[1] ويفهــم مــن البيتيــن الأخيريــن أنــه ربمــا يكــون زار بــلاط أحمــد بــن القاسـم. ومــن بيــن الشعــراء الذيــن وفــدوا عــلى أبي العيــش عيــسى الشاعــر التاهــرتي أحمــد بــن الفتــح؛ حيــث مدحــه بقصيــدة استهلهــا

---

[1] **البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 236**

ـ كعـادة العـرب ـ بالنسيـب ووصـف جمـال نسـاء البصـرة؛ فقـال:

قبَّـحَ الإلـهُ اللهْـوَ إلاَّ قيْنـةٌ

بصْرِيّـة فِي حمْـرَةٍ وَبيـاضِ[1]

الخمْـرُ فِي لَحَظاتِهَـا وَالورْدُ فِي

وَجَنَاتِهَـا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفـاضِ

فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْـكِ مُهَاجـرِ

وَعفـافُ سُنِيّ وَسَمْـتِ إبـاضِ

تاهـرْتُ أنـتِ خليَّـة وَبريـة

عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْـرَة فاعْتـاضِ

لاَ عُـذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلـفِي بِهَـا[2]

أوْ تَسْتفيـضَ بِأبحُـرٍ وَحيـاضِ

مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيـسَى ربهَـا

مَلِكُ المُلوكِ وَرَايـضُ الـرُّوَاضِ

---

[1] جـاء هـذا البيـت في الأدب المغـربي هكـذا:

مَا حَـازَ كُلُّ الحُسْـنِ إلاَّ قَيْنَـةَ   بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَـاضِ، ص: 109.

[2] الحمـراء هنـا هـي بصـرة؛ إتسـمى بهـذا الاسـم أيضـا، كمـا تسـمى بصـرة الكتـاب، وبصـرة الذبـان. المغـرب، ص: 110.

وهــذا مقطــع قالــه شاعــر آخــر عــاش في القــرن الرابــع الهجــري اسمــه إبراهيــم بــن محمــد الأصيــلي؛ وهــو في مــدح حيّ مــن هــوارة يعــرف ببــني زيــاد؛ كانــوا ساكنيــن حــول مدينــة أصيــلا:

سَقَى غــرْبِيَّ أرْضِ بَــنِي زِيَــادٍ
سَحَائِــبُ مَا يَجِــفُّ لهَــا غــرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيــمُ يَعُــــمُّ قوْمــاً
إزَاؤُهــمْ مِــنَ الشــرقِ الكثِيــبُ

ومــن شعــراء ذلــك الزمــن الشاعــر محمــد بــن إسحــاق المعــروف بالبجيــلي أو النحيــلي؛ وهــو القائــل في عــدوة القروييــن بفــاس:

يا عــدْوَة القرَوِييــنَ التِي كرِّمــتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُــورِ مَسْطــورَا
وَلاَ سَرَى اللـــهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمتِــهِ
أرْضٌ تَجنبَــتِ الآثــامَ وَالــزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتـرَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصيدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنِيمِ لأنتمُ
شَرٌّ الورَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتدِ
إنْ كانَ جَنونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبِيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً وَلِي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بِالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حيِيتُ وَلوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ الناسِ

وممن هجا فاسا ـ في ذلك الزمن أيضا ـ قاضي تاهرت أحمد بن فتح بقوله:

أسْلـحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَـرَرْتَ بـهِ
فِي العُدْوَتيْـنِ مَعاً لاَ تبقِيـنَ أحَـدَا

قومٌ غـذُّوُا اللـؤْمَ حَتَّى قالَ قائِلِهـمْ
مَنْ لاَ يكونُ لئيمـاً لمْ يَعِـشْ رَغـدَا

ومن الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة أيضا محمد بن السمهري الذي هجا القاسم بن إدريس بن إدريس صاحب طنجة بقوله:

قـُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَـا
لاَ يَحْسدَنـكَ فِي بـلاَدِكَ حَاسِـدُ

مَنتـكَ نَفْسـُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفَـة
هَيْهـاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِـكَ بَـارِدُ

لَمـا رَأيْتـكَ لِلئـامِ مُصَافِيـاً
أيْقَنـتُ حَقـا أنْ جَـدَّكَ رَاشِـدُ

****

2)ـ دولــة بــني حمــود بقرطبــة:

تعتبــر هــذه الدولــة بمثابــة امتــداد وتواصــل للدولــة الإدريسيــة في بــلاد المغــرب. وقيامهــا في بــلاد الأندلــس حــدث نتيجــة لتحــول ساحــة الصــراع بيــن الأدارســة والأموييــن إلى أرض الأندلــس؛ بسبــب مــا حصــل مــن نقــل أفــراد الأســرة الإدريسيــة بكاملهــم إلى تلــك الديــار؛ مــن طــرف الخليفــة الأمــوي المستنصــر باللــه؛ خاصــة في سنــتي: 365هــ (975م) و375هــ(985م). هــذا وينتــمي الملــوك الأول مــن الأدارســة ــ في الأندلــس ــ إلى فــرع عمــر بــن إدريــس. وقــد كانــوا منافسيــن لبــني عمومتهــم: أبنــاء القاســم بــن إدريــس؛ الذيــن يعتبــرون آخــر مــن تــولى ملــك الأدارســة في المغــرب. ويبــدو أن تلــك المنافســة كانــت سببــا في تغــاضي الخليفــة الأمــوي المستنصــر عــن محاولــة نفيهــم ــ هــم الآخريــن ــ مــع الحســن بــن قنــون إلى مصــر.

هــذا ولــم تشــر جــل المصــادر ــ بوضــوح ــ إلى مكــان إقامــة بــني حمــود في الأندلــس؛ حينمــا بــدأت الفتنــة. وقــد انفــرد ابــن الخطيــب ــ تقريبــا ــ بالحديــث عــن ذلــك؛ ولكــن باقتضــاب شديــد؛ حيــث ذكــر أنهــم كانــوا ((**مــن جملــة أمــراء المغاربــة المترسميــن في ديــوان بــني أميــة بقرطبــة**)).[1] دون تحديــد الفتــرة الزمنيــة؛ هــل تــم ذلــك قبــل نــفي الحســن بــن قنــون إلى مصــر، أو بعــد نفيــه؟.

---

[1] **أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 128.**

وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛ في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ـ في سياق آخر ـ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها.

---

[1] قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شول سنة **400**؛ إذ ولي القاسم بن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من افخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: **51**.

[2] المغرب، ص ص: **131 ـ 133**.

ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[1] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ـ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ـ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛ وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي بن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.

[2] قال ابن بسام: ((وكان هشام ـ عند ما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه ـ صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ـ 38.

وهنا يتبادر إلى الذهن احتمال عودة السبب في انتقال علي بن حمود إلى الأندلس من جديد ـ بعد أن تغلب على سبتة؛ خلال موجة الاضطرابات ـ إلى الخطاب الذي ورد إليه من هشام المؤيد؛ كما جاء في الذخيرة ومصادر أخرى. ذلك الخطاب الذي يسند فيه هشام ولاية العهد إليه. ومن هنا يبدو أنه لم يعبر المضيق نحو الأندلس لمجرد التضامن مع سليمان بن الحكم، أو بدافع الغيرة عليه بحكم العصبية، أو حبا في الوقوف معه ضد أعدائه من أهل قرطبة. بل حدث ذلك بدافع المصلحة؛ التي أملت عليه العمل بجد في سبيل تحقيقها.

على كل حال؛ فانزواء بني حمود هذا، واختفائهم عن الأضواء ـ سواء في بلاد الأندلس أو في المغرب ـ مكنهم من اصطياد الفرصة المواتية للانقضاض على عرش الخلافة بالأندلس. وقد تحقق لهم ذلك؛ حينما ترنحت دولة الأمويين؛ ومالت نحو الانهيار؛ بعد سقوط مؤسساتها الفاعلة، وتفكك قواعدها الأساسية. وجملة القول هي أن جل المصادر التاريخية بدأت ـ لأول مرة ـ تتحدث عن علي بن حمود وأخيه القاسم في بلاد الأندلس؛ اعتبارا من سنة 403هـ (1012م). حين تناقلت ـ ما ذكره ابن حيان ـ عنهما وعن الموضع الذي عسكرا فيه مع جيشهما المشكل من المغاربة؛ وكان ذلك بالقرب من الزهراء وقرطبة؛ وبالتحديد في شَقنْدة. حيث كانا ضمن جيش سليمان بن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِل ـ مع من نُقِل من بني عمه الأدارسة ـ إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا ـ كما هو ـ ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 ـ 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

ولابد – هنا – من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[1] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛ إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده – هذا الأخير – مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه – بعد أن تحقق له النصر – مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء.

---

[1] وفي ذلك يقول: **((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم – وكان الأسن – على الجزيرة الخضراء)).** العبر، مج: 4، ص: 330.

ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ـ من بين قواد جيوشه ـ في اختيار علي بن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنَق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذكِر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟" قال: "نُفِذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

باب الغيرة والحسد لعلي بن حمود وأخيه؛ أو ربما يكون ذلك بتأثير من معتقده الخارجي.

المهم أن ذلك حدث بموافقة سليمان وبقرار منه. ولعله لم يكن في يده القدرة على الرفض أو المعارضة؛ نظرا لكون علي قد سيطر بالفعل ــ من قبل ــ على سبتة؛ كما جاء في نصي: ابن بسام وابن الخطيب. خاصة وأن ابن حزم قال أن سبتة كانت ولاية القاسم بن حمود منذ شوال سنة 400هـ(1009م).[1] وبهذا فما صدر ــ بعدئذ ــ عن سليمان لم يكن سوى مصادقة وموافقة على أمر واقع بالفعل. وهكذا فمن ذلك التاريخ برز الدور الخطير والفعال للأدارسة في بلاد الأندلس؛ ممثلين بعلي بن حمود بن ميمون بن حمود ــ وحمود اسمه الحقيقي أحمد ــ بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله.[2] وكما سبق ذكره فهذا الأمير يعتبر من بقايا الأدارسة؛ الذين أجبرتهم الظروف على العيش في ظل الدولة الأموية؛ بعد أن تغلبت على ملكهم ببلاد المغرب.

---

[1] الجمهرة، ص: 51.

[2] نفسه، ص: 50.

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ـ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ـ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ـ منذ قيام دولتهم الأولى ـ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ـ كان الأسنّ ـ على الجزيرة الخضراء.

وتشير بعض المصادر ـ أيضا ـ إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: " لا يقتل الزلطان إلا الزلطان"**)). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي ابن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية ابني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

****

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري ـ على سبيل المثال ـ في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود ـ على عجمته، وبعده من الفضائل ـ يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان ابن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ـ 484.

ـ حكومة الناصر لدين الله علي بن حمود بقرطبة:

وخلاصة القول فقد ظل علي بن حمود يترقب الفرصة المواتية للانقضاض على كرسي الخلافة بقرطبة. إذ كان يتابع ـ من قرب وبعناية ـ كل ما يجري في ديار الأندلس. حيث يراقب الأحداث التي تمت بعد نشوب الاضطرابات ـ في بدايتها ـ داخل البيت الأموي، وبعد زوال حكم العامريين؛ نتيجة للانقسامات التي حدثت بين أنصار الدولة الأموية؛ عندما انحازت كل فئة من المصطنعين، والقبائل إلى أمير من الأمويين. فانضم جمع كبير من الأمازيغ ـ وبنو حمود معهم طبعا ـ إلى سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله؛ الذي قام ضد خصمه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي. وذلك لأن الأمازيغ كرهوا ابن عبد الجبار (المهدي)؛ بسبب ما أعلنه من عداء لهم؛ وما أبداه من تعصب شديد ضدهم ـ في بداية عهده ـ إذ كان يَكِنُّ لهم كراهية ملحوظة؛ الأمر الذي أجج حقدهم عليه، وعلى أتباعه من العامة والدهماء؛ الذين ارتكبوا مجازر رهيبة في حق الأمازيغ بقرطبة. لذا كان رد الفعل عندهم ـ على اختلاف قبائلهم ـ هو العمل باستماتة على نصرة خصمه اللدود ومنافسه العنيد سليمان بن الحكم (المستعين بالله).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ــ طبعا ــ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ــ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ــ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] **وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ــ 279. 281. 287. 293 ــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ــ 398. 405. 417. 427 ــ 430.**

[2] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.**

بكراهيتهـم. وأمـر المهـدي أن لا يركبـوا ولا يتسلحـوا؛ وَرُدَّ بعـض رؤوسهـم في بعـض الأيـام مـن بـاب القصـر؛ فانتهبـت العامـة دورهـم؛ وشكـا بعضهـم إلى المهـدي مـا أصابهـم؛ فاعتـذر إليهـم، وقتـل مـن اتهـم مـن العامـة في أمرهـم؛ وهـو مـع ذلـك مظهـر لبغضهـم؛ مجاهـر بسـوء الثنـاء عليهـم. وبلغهـم أنـه يريـد الفتـك بهـم...)).[1]

ويقتـضي الحـال هنـا وقفـة قصيـرة؛ لمحاولـة فهـم مـا جـرى بقرطبـة في تلـك الأثنـاء. فمـن الواضـح أن الوضـع تطـور خـلال درجـات ومراحـل متتابعـة. فـفي البـدء اقتصـر الصـراع عـلى أهـل البـلاط بقرطبـة؛ وبالتحديـد داخـل الأسـرة المالكـة؛ أو بالأحـرى بيـن العصبيـة الأمويـة العربيـة وبعـض المـوالي والمصطنعيـن؛ ممـن أراد الخليفـة إعدادهـم وتجهيزهـم ضـد مـن تسـول لـه نفسـه ــ مـن عصبيتـه ــ أن يخـرج عليـه، أو يتطلـع لمشاركتـه في مجـد الملـك والسلطـان.[2] وفي المرحلـة المواليـة بـدأ نجـم المنصـور بـن أبي عامـر يبـرز ويسطـع عـلى الأندلـس كلهـا. ولمـا أراد هـذا الوزيـر الحاجـب الحـازم ــ الـذي كـان وصيـا عـلى العـرش ــ أن يستبـد بالأمـر؛ لـم يكتـف

---

[1] نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 427.

[2] وهـذا يتوافـق مـع مـا ذكـره ابـن خلـدون ضمـن: ((فصـل في أنـه إذا استقـرت الدولـة وتمهـدت قـد تستغـني عـن العصبيـة)). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصـل في استظهـار صاحـب الدولـة عـلى قومـه وأهـل عصبيتـه بالمـوالي والمصطنعيـن)). نفسـه، ص ص: 677 ــ 678.

باصطناع الموالي والمصطنعين ــ كالفتيان العامريين ــ بل مد نظره بعيدا؛ إلى الطرف الآخر من العدوة؛ حيث الأرض التي تفيض بالقبائل، وأبطال الحرب والنزال؛ تلك الأرض المغربية الخصبة بالرجال البواسل، والزاخرة بالقبائل التي لا تحصى؛ تلك القبائل التي ما زالت تعيش في محيط بدوي متقشف؛ محيط بعيد عن ليونة الحضارة وطراوتها، والنائية عن تياراتها المفسدة لشروط الصلابة والبسالة.[1]

وقد يكون من الحوافز التي جعلت المنصور يتحمس إلى جلب فرسان الأمازيغ إلى الأندلس؛ تلك النتائج المشجعة التي انبثقت عنها تجربة سيده المستنصر؛ حين استخدم بني برزال. فاتضح له أنهم كانوا أهلا للمهمة التي أنيطت بهم؛ حيث أضحوا للخليفة الأموي حراسا أوفياء، وللبلاد فرسانا مغاوير. ونتيجة لذلك فقد عمل المنصور على جلب عدد كبير من القبائل الأمازيغية وفرسانهم الأبطال إلى بلاد الأندلس؛ بحجة الجهاد، والدفاع عن أمن الدولة الإسلامية من تحرشات النصارى. فأجزل لهم العطاء، وخصهم بكل غال وثمين من أموال وإقطاع. وبذلك أصبحت في يده

[1] أنظر إلى ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ــ 589. و((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم)). نفسه، ص ص: 589 ــ 591.

قوة لا تقهر في الأندلس؛ مكنته من الاستبداد والتصرف في شئون الدولة كما يحلو له.[1] ثم أتت الفترة الموالية؛ التي شهدت الصراع الخطير والانقسام المذهل الذي فتت الدولة إلى طوائف وإمارات صغيرة هنا وهناك؛ حيث هيمنت خلالها فئات عديدة ومتفرقة في المجتمع: قبائل عربية، وقبائل أمازيغية، وموالي من أجناس شتى، ومماليك صقالبة وسودان.. ألخ. وضمن هذا البحر المتماوج من العصبيات المختلفة ـ قبلية وفئوية وعرقية ومذهبية ـ كان بعض الفئات المنعزل، والبقايا الضائعة من بني أمية تظهر فوق السطح أحيانا، وتختفي تحت الأمواج أحيانا أخرى. وفي هذه الأثناء ظهرت العصبية الهاشمية؛ ممثلة بالأدارسة من بني أبي طالب. غير أن عصبيتهم الفاعلة والموجودة في الميدان كانت هي العصبية الأمازيغية؛ نظرا لما حصل من اندماج قديم بين الأدارسة والأمازيغ. ومن هنا يتضح التداخل بين العصبيتين؛ كما يتضح سبب الجفاء الذي لاقاه الأدارسة من قبل الأندلسيين؛ ذلك الجفاء العائد ـ في الحقيقة ـ إلى عدم التمييز والفصل بينهم وبين الأمازيغ.

---

[1] أنظر أيضا: ((فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 680 ـ 681. و((فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)). نفسه، ص ص: 682 ـ 683.

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود ـ كما سبق ذكره ـ مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتين الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي ــ كما قيل ــ خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 ــ 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها ــ بعد استقراره وضبط أموره ــ حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء.

طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد ــ وهو محبوس ــ خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" ــ يعني سليمان ــ "فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

كما بعث في سنة 405هـ(1014م) إلى حبوس أمير بني زيري والفتى خيران العامري يعلمهما بخطاب العهد الذي وصله من هشام المؤيد؛ ويطلب منهما مساعدته للإطاحة بسليمان.[1] ثم تحرك نحو مدينة مالقة التي استولى عليها، وربما قتل قائدها حسب قول ابن عذاري.[2] ومن ثمة اجتمع مع خيران في المرية؛ وانضم إليه أيضا زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن بن زيري في قبيلة صنهاجة.[3] فانطلقوا جميعا نحو قرطبة؛ ضمن قوة كبيرة من الأمازيغ والعامريين.

---

[1] قال ابن عذاري نقلا عن المظفري؛ وهو كتاب محمد بن عبد الله بن الأفطس: ((لما خرج علي عن طاعة المستعين؛ أخرج كتابا نسبه إلى= =هشام بن الحكم؛ يقول فيه:"أنقذني من أسر البرابر والمستعين؛ وأنت ولي عهدي". ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري؛ فقال له انهض إلى مالقة؛ وبها يتم أمرنا؛ فأقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها واستولى عليها)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. وقد اشار إلى هذا أيضا المراكشي في المعجب، ص: 44.

[2] انفرد ابن عذاري بخبر قتل والي مالقة. البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. أما المراكشي فقال أنه عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ وذكر أنه أخرجه من مالقة؛ ولم يشر إلى قتله. المعجب: ص: 44. أما ابن الأثير فيقول أنه اتفق مع علي على الثورة؛ وخرج من مالقة بإرادته وسلمها لعلي بن حمود. الكامل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

ولمـا وصلـت أخبـار علـي بـن حمـود وحلفائـه إلى سليمـان خـرج إليهـم بجيشـه المكـون مـن الأندلسييـن، وقلـة مـن الأمازيـغ سنـة 407هـ(1016م). ولكنـه لـم يصمـد أمامهـم، ومـني بهزيمـة نكـراء؛ حيـث انكشفـت المعركـة عـن سقوطـه ــ مـع أخيـه وأبيـه ــ في الأسـر. ولمـا دخـل علـي بـن حمـود إلى قصـر قرطبـة واستـولى علـى عرشهـا؛ بـادر فـورا بقتـل سليمـان وأخيـه وأبيـه ــ ذلـك الشيـخ الـذي ناهـز عمـره 72 سنـة ــ ويقـال أنـه قتلهـم بيـده. أخـذا بثـأر هشـام المؤيـد كمـا زعـم.[1] هـذا هـو منطـق الملـك في أبشـع صـوره.

وهكـذا تـم مـا أراده اللـه. فـفي لحظـات أصبـح الحلفـاء أعـداء؛ يقتـل بعضهـم بعضـا. فمـا هـو السبـب؛ وكيـف حـدث هـذا..؟ ومـا الحـافـز والمحـرك

---

[1] قـال ابـن بسـام: ((فانهـزم سليمـان؛ وقبـض عليـه وعـلى أخيـه وأبيـه؛ وسيقـوا أُسَـارَى إلى عـلي بـن حمـود. ودخـل القصـر وخيـران يطمـع أن يجـد هشامـا المؤيـد حيـا. فلـم يوجـد؛ وذكـر أنـه قتـل؛ وعـرض عليـه قبـره. فأمـر عـلي بنبشـه. فأخـرج الشخـص؛ وشهـد أنـه هشـام؛ وسليمـان يتبـرأ مـن دمـه؛ ومـا كـان في جسـده شـيء مـن أثـر السـلاح؛ فتوهـم فيـه الخَنْـق. وأمـر عـلي بتجهيـزه إلى أهلـه؛ وأنـذر طبقـات النـاس للصـلاة عليـه؛ فدفـن لزيـق أبيـه الحكـم. ثـم دعـا عـلي بسليمـان وذويـه؛ فضـرب عنقـه بيـده؛ وظهـر منـه جـزع شديـد عنـد ملاحظتـه السيـف؛ خـارت منـه قـواه. فجثـا عـلى ركبتيـه؛ ثـم ضربـت عنـق الشيـخ أبيـه وعنـق عبـد الرحمـن ابنـه. وجعلـت الـرؤوس الثلاثـة في طسـت؛ وأخرجـت مـن القصـر إلى المحلـة؛ ينـادى عليهـا: هـذا جـزاء مـن قتـل هشامـا المؤيـد)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 ــ 42. ورد هـذا الخبـر أيضـا في البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 121.

لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع ـ طبعا ـ لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي بن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجاذبته عصبيتان رئيستان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا ـ مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية ـ وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم.

لذا فإنه كان يحرص على مداراتهم؛ وتقديمهم على غيرهم؛ خوفا من بطشهم؛ لأنه يدرك ضعف موقفه أمامهم. ومن الشواهد التي أوردها بعض الكتاب والمؤرخين: أنه قال ــ في أوساطه الخاصة ــ أبياتا شعرية من نظمه في حق الأمازيغ ومن حالفهم:[1]

حَلَفتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَامَ وَكَبَّرَا

لأُغْمِدَهَا فِيمَنْ طَغَى وَتَجَبَّرَا

وَأَبْصَرَ دِينَ اللهِ تحْيَا رُسُومُهُ

فبَدلَ مَا قَدْ لاَحَ مِنهَا وَغيَّرَا

فوَاعَجَباً مِنْ عَبْشَمِيٍّ مُمَلكٍ

بِرَغمِ العَوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبَرَا

فلَوْ أنَّ أمْرِي بِالخِيَارِ نَبذتهمْ

وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكْماً مُحَرَّرَا

فَإمَّا حَيَاة تسْتلذ بِفقدِهِمْ

وَإِمَّا حِمَامٌ لاَ نرَى فِيهِ مَا زَرَى

---

[1] **قال المقري في هذه الأبيات: ((وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين؛ أنه قال هذه الأبيات؛ مستريحا بها إلى خواصه)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 429.**

فهـذه الأبيـات تـدل ــ بـدون شـك ــ عـلى مـا ينطـوي عليـه صـدر سليمـان؛ مـن كراهيـة للأمازيـغ؛ حيـث لـم يستطـع التخلـص مـن رواسـب العصبيـة الأمويـة العربيـة؛ عـلى الرغـم مـن الحلـف الـذي يربطـه بالأمازيـع، وعـلى الرغـم مـن استماتتهـم في الدفـاع عنـه، والتضحيـة بأرواحهـم مـن أجلـه. وبذلـك فقـد برهـن عـلى أنـه لا يختلـف كثيـرا عـن ابـن عبـد الجبـار (المهـدي)؛ سـوى في التقيـة الـتي لجـأ إليهـا. ويبـدو أن هـذه الأبيـات كشفـت نوايـاه الحقيقيـة؛ ممـا جعـل الأمازيـع يختـارون صـف عـلي بـن حمـود؛ عندمـا قـرر الأخـذ بثـأر أجـداده الأدارسـة مـن أحفـاد الناصـر لديـن اللـه الأمـوي؛ الـذي سبـق لـه أن أزال الدولـة الإدريسيـة مـن الوجـود. إذ كـان هـذا هـو حافـزه الأسـاسي لإسقـاط الدولـة الأمويـة؛ وإرجـاع الحـق لبـني هاشـم. هـذا وقـد مـدح شاعـر الأندلـس وفحلهـا دون منـازع؛ أبـو عمـر أحمـد بـن دراج القسطـلي عـلي بـن حمـود بقصيـدة رائعـة؛ نذكـر مطلعهـا هنـا؛ عـلى أن نسجـل أغلبهـا في الفصـل المخصـص للحضـارة والثقافـة. ومطلعهـا:

لَعَلَّـك ياشَمْـسُ عِنْـدَ الأصيـلِ

شَجِيـتِ لِشَجْوِ الغَريـبِ الذَّليـلِ

فَكـوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيـع

وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسـولِ

ولمـا تـم لعـلي أمـر إسقـاط دولـة سليمـان؛ سـارع إلى طلـب البيعـة مـن أهـل الحـل والعقـد في قرطبـة. فبويـع بالفعـل في سنـة 407هـ(1016م) وتسـمى بلقـب الناصـر لديـن اللـه. وكانـت بيعـة شاملـة؛ لـم يتخلـف عنهـا أحـد كمـا قـال ابـن حيـان.[1] وأظهـر ـ مـن اليـوم الأول لحكمـه ـ سلوكـا فيـه حـزم وجـد وعـدل؛ أثلـج قلـوب الرعيـة، ومـلأ نفـوس النـاس بالبشـر والـرضى. إذ شـرع في اجتثـاث الفسـاد، وكبـح الظالميـن، وتسليـط سيـف العـدل عـلى رقـاب الناهبيـن والمتجبريـن مـن بعـض أتباعـه الأمازيـغ.[2]

---

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((بويـع عـلي بـن حمـود في بـاب السُـدَّة مـن قصـر قرطبـة يـوم الإثنيـن لسبـع بقيـن لمحـرم سنـة سبـع وأربعمائـة؛ ثـاني اليـوم الـذي أدرك فيـه بثـأر هشـام المؤيـد. ولـم يتخلـف أحـد عـن بيعتـه؛ ووصلـوا إليـه عـلى طبقاتهـم؛ فكـرم منازلهـم، وأجمـل خطابهـم. وتسـمى ليومـه مـن الألقـاب السلطانيـة بالناصـر لديـن اللـه. لقـب قـد سبقـه إليـه أبـو أحمـد المتوكـل العبـاسي بالمشـرق؛ وتبعـه فيـه أيضـا عبـد الرحمـن بـن محمـد بهـذا الأفـق)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قـال ابـن بسـام: ((وجلـس عـلي بنفسـه لمظالـم النـاس؛ وهـو مفتـوح البـاب، مرفـوع الحجـاب؛ للـوارد والصـادر؛ يقيـم الحـدود مباشـرا بنفسـه؛ لا يحـاشي أحـدا مـن أكابـر قومـه. فانتشـر أهـل قرطبـة في الأرض ذات الطـول والعـرض؛ وسلكـت السبـل، ورخـا السعـر، وأرقُّـوا الأغذيـة، وشامـوا النسـاء وطلبـوا النسـل... واستمـر عـلى أهـل قرطبـة نحـوا مـن ثمانيـة أشهـر في أحسـن عشـرة. ثـم آنـس منهـم الكراهيـة لدولتـه. وبلغـه أيضـا قيـام المرتـضى بشـرقي الأندلـس. فعـزم عـلى إبـادة أهـل قرطبـة وإخلائهـا؛ فـلا يعـود لأئمتهـم المروانييـة سلطـان آخـر

غيـر أنـه شعـر ـ بعدئـذ ـ مـن أهـل قرطبـة ميـلا إلى أميـر أمـوي ظهـر في شـرق الأندلـس؛ اسمـه عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن عبـد الملـك بـن عبـد الرحمـن الناصـر؛ وقـد تلقـب بالمرتـضى؛ وذلـك في سنـة 407هـ(1016م). عندهـا تحـول عـن أسلوبـه الأول الـذي اتبعـه في حكـم قرطبـة.[1] فأطلـق أيـدي أتباعـه الأمازيـغ عـلى أهـل المدينـة ـ كـرد فعـل منـه ضـد أولئـك السكـان؛ الذيـن قابلـوا إحسانـه بالإسـاءة، وجميـل فعلـه معهـم بالنكـران ـ فانتشـر النهـب فيهـم مـن جديـد؛ وكثـر العيـث والفسـاد في البلـدة؛ دون أن يجـد سكانهـا حمايـة أو أذنـا صاغيـة لنجـدة أو إغاثـة.[2]

الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأنـدلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ـ 99.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وانقلـب سريعـا عـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لأهـل قرطبـة، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره عليهـم لمـا أحـس منهـم الميـل إلى الخليفـة المرتـضى)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكـر ابـن بسـام أنـه: ((وبلغـه أيضـا قيـام المرتـضى بشـرقي الأندلـس؛ فعـزم عـلى إبـادة أهـل قرطبـة، وإخلائهـا؛ فـلا يعـودون إلى أئمتهـم المروانيـة سلطـان إلى آخـر الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأندلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره، وأغـضى عـلى سـوء مـا كانـوا عليـه مـن الظلـم والحيـف؛ فوقـع أهـل قرطبـة في وغيرهـم في حالتهـم مـدة سليمـان مـن استيطالتهـم عليهـم. وصـب عـلى أهـل قرطبـة ضروبـا مـن التنكيـل والمغـارم؛ وانتـزع السـلاح

ولا بد ـ هنا ـ أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم ـ بحكم طبعهم البدوي ـ لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

نعومة أهل المدن، ورقة عاداتهم، وهشاشة عظامهم، وسوء أخلاقهم.[1]

ومع هذا لم يهنأ علي بن حمود مدة طويلة بخلافة المسلمين في قرطبة؛ إذ تعرض لمؤامرة اغتيال؛ بعد واحد وعشرين شهرا وسبعة أيام[2] من يوم بيعته؛ وبالتحديد في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م). ونسبت المصادر اغتياله إلى بعض صبيانه الصقالبة؛ وتم ذلك داخل حمام قصره.[3]

---

[1] تكلم ابن خلدون في هذا حين قال: ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعاكفون على شهواتهم منها؛ قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم.... وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها؛ وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة قبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 584 ـــ 585.

[2] الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددها المراكشي بـ((عامين غير شهرين)). المعجب، ص: 50. بينما يقول ابن عذاري أنه حكم سنة وتسعة اشهر وتسعة أيام. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120. أما المقري فذكر أن بعضهم حققوها بإحدى وعشرين شهرا وستة أيام. نفح الطيب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجع ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 684 ـ 686.

ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ـ من القادة والأعيان الأمازيغ ـ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ـ في البداية ـ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ـ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[2] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

حكم قرطبة فترتين؛[1] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها عليه ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[2] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه ــ كما يبدو ــ يكون قد اقتنع ــ منذ الوهلة الأولى ــ ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه ــ التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) ــ بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه ــ مع مرور الأيام ــ ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة ــ باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم ــ جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص ــ نوعا ما ــ من ثقل وطأتهم.

---

[1] دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة **408**هـ إلى ربيع الآخر سنة **412**هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة **413**هـ إلى شعبان من السنة نفسها.

[2] المغرب، ص: **133**. والبيان المغرب، ج: **3**، ص ص: **124 ــ 125**. **130 ــ 131**.

لـذا فقـد أراد خلـق بعـض التـوازن في القـوى؛ حيـث شـرع في اصطنـاع جماعـات مـن السـودان؛ الذيـن أسنـد إليهـم بعـض المهـام الحساسـة في الدولـة.[1] وهنـا تحركـت العصبيـة الأمازيغيـة الـتي وجـدت أنـه مـن واجبهـا الدفـاع عـن مصالحهـا؛ ومنـع تحقيـق مـا يخطـط لـه القاسـم بـن حمـود. وهنـا يتبيـن بوضـوح صـدق المقولـة الـتي ذكرهـا ابـن خلـدون ضمـن: **"فصـل في استظهـار صاحـب الدولـة عـلى قومـه وأهـل عصبيتـه بالمـوالي والمصطنعيـن"** [2]

---

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((وزاد كلـف القاسـم في اتخـاذ السـودان؛ وقودهـم في أعمالـه؛ إلى أن ضعـف أمـره، وتسلـط البرابـرة عليـه حـتى احتقـره. فكاتـب منـذر بـن يحـيى ـ في السـر ـ يبثـه شأنهـم، ويستنهضـه لتقويمهـم؛ فلـم يكـن فيـه فضـل لذلـك)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 481. وورد النـص نفسـه في البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 130.

[2] جـاء في قـول ابـن خلـدون: ((فـإذا جـاء الطـور الثـاني وظهـر الاستبـداد عنهـم، وانفـرد بالمجـد، ودافعهـم عنـه بالـراح؛ صـاروا ـ في حقيقـة الأمـر ـ مـن بعـض أعدائـه؛ واحتـاج في مدافعتهـم عـن الأمـر، وصدهـم عـن المشاركـة إلى أوليـاء آخريـن؛ مـن غيـر جلدتهـم يستظهـر بهـم عليهـم، ويتولاهـم دونهـم؛ فيكونـون أقـرب إليـه مـن سائرهـم، وأخـص بـه قربـا واصطناعـا، وأولى إيثـارا وجاهـا؛ لمـا أنهـم يستميتـون دونـه في مدافعـة قومـه عـن الأمـر الـذي كـان لهـم، والرتبـة الـتي ألفوهـا في مشاركتهـم؛ فيستخلصهـم صاحـب الدولـة حينئـذ، ويخصهـم بمزيـد التكرمـة والإيثـار؛ ويقسـم لهـم مثـل مـا للكثيـر مـن قومـه، ويقلدهـم جليـل الأعمـال والولايـات مـن الـوزارة والقيـادة والجبايـة؛ ومـا يختـص بـه لنفسـه؛ وتكـون خاصـة لـه دون قومـه مـن ألقـاب المملكـة؛ لأنهـم حينئـذ أوليـاؤه الأقربـون ونصحـاؤه المخلصـون. وذلـك حينئـذ مـؤذن باهتضـام الدولـة، وعلامـة عـلى المـرض المزمـن فيهـا؛ لفسـاد العصبيـة الـتي كـان بنـا الغلـب عليهـا،

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ـ الذي كان واليا على سبتة ـ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.

تلك هي الفترة الأولى من حكم القاسم (المأمون) في قرطبة؛ أما الفترة الثانية فبدأت بعد انقلاب الأمازيغ على ابن أخيه يحيى بن علي؛ مما أجبره على الهروب ـ هو الآخر ـ إلى مالقة تحت جنح الليل.

فما كان من القاسم ـ لما سمع بخبر خروج يحيى إلى مالقة فارا ـ إلا أنه تحرك من فوره والتحق بقرطبة من جديد؛ وتم ذلك في ذي القعدة من سنة 413هـ(1022م). ومع هذا لم تدم الفترة الثانية من حكمه طويلا؛ إذ ثار عليه أهل قرطبة؛ في شعبان من عام 414هـ(1023م)؛ بدعوى أنهم لم يحتملوا تسلط الأمازيغ في الأسواق.[1] بينما يقول ابن بسام: ((**فتكنف سريره أغمار الناس من البرابر؛ وخرجوا** [أي أهل قرطبة] **لقتالهم سنة أربع عشرة**)).[2] ويتفق ابن الخطيب مع هذا الرأي أيضا.[3]

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 134.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[3] إذ يقول: ((وفسد ما بينه [أي القاسم] وبين أهل المدينة؛ بسبب من حفه من البرابرة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 133. أما ابن الأثير فيرى أن استيلاء يحيى وإدريس على الجزيرة الخضراء وطنجة؛ شجع الناس على العصيان؛ إذ يقول: ((فلما ملك ابنا أخيه بلاده طمع فيه الناس؛ وتسلط البربر على قرطبة فأخذوا أموالهم؛ فاجتمع أهلها وبرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولى سنة أربع عشرة [وأربعمائة] فاقتتلوا قتالا شديدا؛ ثم سكنت الحرب، وأمن بعضهم بعضا إلى منتصف جمادى الآخرة من السنة؛ والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة وأنه معهم وباطنه مع البربر؛ فلما كان

أما المقري فيتعمق في الشرح بعض الشيء؛ بحيث يفهم من قوله أن الاحتقان بين الطرفين ربما كان بسبب التضييق على أهل قرطبة؛ أثناء البحث عن بعض الأمويين المشتبه في أمرهم؛ بعد أن أشيع أن قائما منهم سوف يظهر.[1]

ولما عاد القاسم إلى إشبيلية مهزوما من قرطبة؛ وجد أبوابها مقفلة في وجهه؛ بتدبير من القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد؛ الذي أوهم سكان المدينة بأن القاسم سيسكن من معه من الأمازيغ في مساكن الإشبيليين. ومن جهة أخرى فقد أغرى ـ صاحب القاسم وثقته ـ محمد بن

يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلى الناس الجمعة؛ فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح؛ فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد، ودخلوا قصر الإمارة؛ فخرج عنها القاسم...)). الكامل، ج: 7، ص: **286**. ويتفق ابن خلدون مع الرأي القائل بأن تغلب ابني أخيه على حصونه ومراكزه في طنجة والجزيرة الخضراء قد شجع الناس على التجاسر عليه. العبر، مج: 4، ص: **331**.

[1] وقد وصف المقري ما حدث بقوله: ((ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة. ووقع الاختلاف؛ وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيى، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر؛ وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بني أمية؛ فتفرقوا في البلاد، ودخلوا في أغمار الناس، وأخفوا زيهم. ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة؛ وتكاثر البلديون، وأخرجوا القاسم وبرابرته؛ فضرب خيمة بغربيها، وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا... وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة؛ وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 414هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: **487**.

زيــري بــن دونــاس اليفــرني، وأطمعــه في إمــارة البلــدة إن هــو ساعدهــم عــلى منــع دخــول القاســم إلى قرطبــة.[1]

وبهــذا لــم يجــد القاســم بــدا مــن الخضــوع لإرادتهــم؛ نظــرا لكــون أهــل البلــد حاصــروا ابنــه محمــدا في دار الإمــارة؛ وساومــوه عــلى فــك الحصــار عنــه والسمــاح لــه بالخــروج مــن إشبيليــة؛ مقابــل أن يرفــع هــو بــدوره الحصــار عــن المدينــة ويتخــلى عــن المطالبــة بهــا. فلــم يجــد القاســم أمامــه اختيــارا آخــر غيــر القبــول بشروطهــم؛ كسبــا للوقــت. وتحــول إلى شريــش؛ حيــث بــقي هنــاك بعــض الوقــت. وفي تلــك المدينــة ازدادت محنتــه؛ حيــن تفــرق مــن حولــه جــل أنصــاره مــن الأمازيــغ، الذيــن التحقــوا بابــن أخيــه المعتــلي يحــيى بــن عــلي بمالقــة؛ وذلــك في سنــة 415هــ(1024م).[2]

---

[1] وفي هــذا يقــول ابــن خلــدون: ((ولحــق المأمــون بإشبيليــة وبهــا ابنــه محمــد، ومحمــد بــن زيــري مــن رجــالات البربــر؛ فأطمعــه القــاضي محمــد بــن إسماعيــل ابــن عبــاد في الملــك؛ وأن يمتنعــوا مــن القاســم؛ فمنعــوه، وأخرجــوا إليــه ابنــه، وضبطــوا بلدهــم. ثــم اشتــد ابــن عبــاد وأخــرج محمــد بــن زيــري)). العبــر، مج: 4، ص: 232. ويتفــق مــع هــذا الــرأي المقــري فيقــول: ((وأطمــع [أي ابــن عبــاد] بــن زيــري في التملــك؛ فأغلــق الأبــواب في وجــه مصطنعــه وحاربــه؛ فقتــل مــن البربــر والســودان خلــق كثيــر؛ وابــن عبــاد يضحــك عــلى الجميــع؛ فيئــس القاســم، وقنــع أن يخرجــوا إليــه ابنــه وأصحابــه ويسيــر عنهــم؛ فأخرجوهــم إليــه؛ فســار بهــم إلى شريــش)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 488.

[2] العبــر، مج: 4، ص: 332.

ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى بن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[1] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[2]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك (المرتضى)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[3] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي – في قومه ومعززا بجماعة من فرسان الفرنج – وسليمان بن هود – مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين – قد اتفقوا على تنصيبه

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 – 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 – 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.

[3] جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 – 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.

خليفة؛ ومحاربة القاسم ومن معه من الأمازيغ. ثم زحفوا جميعا معه ــ في قوة عظيمة ــ نحو قرطبة؛ ولكنهم اشتبكوا في الطريق ببني زيري عند حدود إمارة غرناطة؛ فانهزم جيش المرتضى، ونهبت محلته، وتشتت أنصاره. ومن المفارقات العجيبة أن الذين نصبوا المرتضى ونادوا به خليفة للمسلمين هم الذين تسببوا في هزيمته؛ بعد خيانته، إذ تركوه فريسة لعدوه.[1] بل هم الذين قتلوه عندما فر هاربا.[2]

---

[1] قال ابن بسام: ((وأول من انهزم من ذلك العسكر منذر بن يحيى وخيران الصقلبي. وكان منذر قد أوقع في نفوس مدده من رجال الإفرنجة الذعر من غدر الموالي العامريين؛ فشغل بذلك بالهم. فلما انهزم لم يعرفوا السر؛ وأجفل منذر في أصحابه الثغريين؛ فمر بسليمان بن هود صاحبه وهو مثبت للإفرنجة لا يريم موقفه. فصاح به: النجاة يا بن الفاعلة. فلست أقف عليك. فقال له سليمان: جئت والله بها صلعاء، وفضحت أهل الأندلس؛ ثم انقلع وراءه ببقية عسكره؛ وانقلع أيضا خيران برجاله. وصبر الموالي العامريين قليلا حول صاحبهم المرتضى)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ــ 455. ومما نقله ابن بسام أيضا عن ابن حيان قوله: ((وذلك أنه لما انهزم المرتضى؛ قال زاوي لقومه: "كيف رأيتم ما قد خلصنا منه؟" قالوا: "عظيما". قال: "فلا تنسوه وتغالطوا أنفسكم بعده؛ إن انهزام من رأيتموهم لم يكن من قوة منا. وإنما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا؛ فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم)). نفسه، ص: 458.

[2] أنظر الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ــ 458. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 125 ــ 130. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 130 ــ 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 484 ــ 486.

هــذا واستــولى بنــو زيــري عــلى مــا في محلــة المرتــضى ــ بعــد هزيمتــه ــ مــن: أنــواع الســلاح وصنــوف الذخائــر وعتــاق الخيــل ومختلــف الأحمــال وأزهى القبــاب. ولــم ينــس زاوي بــن زيــري بــن منــاد أميــر الصنهاجيين أن يرســل إلى القاســم بــن حمــود سهمــه مــن الغنيمــة؛ بصفتــه الخليفــة المعتــرف بــه.[1] وبهــذا أصبحــت الأندلــس كلهــا نهبــا للأقويــاء؛ مــن القبائــل العربيــة، والأمازيغيــة، وبعــض الكتــل والعصابــات مــن المماليــك الصقالبــة، والفتيــان العامريين والنصــارى وغيرهــم؛ حــدث ذلــك كنتيجــة لتلــك المعركــة الــتي وقعــت بيــن المرتــضى وبــني زيــري في سنــة 409هــ(1018م). وبالمقابــل تأكــدت نهايــة الحكــم الأمــوي نهائيــا في تلــك الربــوع؛ وذلــك عــلى الرغــم مــن المحــاولات الفاشلــة الساعيــة في قرطبــة لإحيــاء دولتهــم.[2]

---

[1] قــال ابــن الخطيــب: ((وورد عــلى القاســم بــن حمــود الخبــر بمقتــل المرتــضى، وهزيمــة الأندلسيين مــن قبــل زاوي مــع سهمــه مــن الغنيمــة؛ وفي الجملــة ســرادق المرتــضى؛ فســر بذلــك، وضــرب الســرادق عــلى نهــر قرطبــة؛ وغشيــه النــاس ينظــرون إليــه؛ وقلوبهــم تتقطــع أسىً وحســرة)). أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 131.

[2] للتوســع في دولــة بــني حمــود يستحســن الرجــوع إلى الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ــ 59. 96 ــ 102. 452 ــ 461. 468 ــ 486. والبيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 115 ــ 144. 216 ــ 220. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 128 ــ 143. والعبــر، مج: 4، ص ص: 330 ــ 336. ودولــة الإســلام في الأندلــس (العصــر الأول ــ القســم الثــاني)، ص ص: 656 ــ 677.

وفي هـذا يقـول ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: **((فحلـت بهـذه الوقعـة عـلى جماعـة مـن الأندلـس مصيبـة سـوداء أنسـت مـا قبلهـا؛ ولـم يجتمـع لهـم عـلى البربـر جمـع بعـد؛ وأقـروا بالإدبـار، وبـاءوا بالصغـار. وورد عـلى القاسـم كتـاب زاوي بشرحهـا مـع نصيبـه مـن الغنيمـة؛ وفي جملتهـا سـرادق المرتـضى. فضربـه القاسـم عـلى نهـر قرطبـة، وغشيـه مـن النظـارة جملـة مـن عليـة النـاس؛ وقلوبهـم تتقطـع حسـرة منـه. فركـدت ريـح المروانيـة مـن ذلـك الوقـت)).**[1]

وكـان المرتـضى عبـد الرحمـن بـن محمـد هـذا ـ كغيـره مـن أمـراء الأسـرة الأمويـة ـ يحقـد عـلى الأمازيـغ، ويعلـن تعصبـه ضدهـم؛ بسبـب نصرتهـم السابقـة للعامرييـن. وكـان يحملهـم مسئوليـة التفكـك والانهيـار الـذي أصـاب الدولـة الأمويـة في أواخـر أيامهـا. ومـن منظوماتـه الـتي تفيـض بالعـداء للأمازيـغ قولـه:

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، ص ص: 455 ـ 456. وراجـع النـص نفسـه تقريبـا في: البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 127 ـ 128. وأعمـال الأعـلام ق: 2، ص: 131. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 486.

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينــا بنــا

مَــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَــا

كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الــذِي

فِيــهِ مِنَ الرِّيــشِ لمَا أصْــمَى

قومُــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَــة

تزِيــلُ عَنــا العَــارَ وَالرَّغمَــا

إمَّــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نــرَى

مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصــار عــلى المرتــضى وأتباعــه؛ جــاء في مطلعهــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ

وَأصبْــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ والياً على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير أنه استسلم ـ في البداية ـ لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية ـ وهم القوة الضاربة في قرطبة ـ إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم ـ كما جاء في بعض المصادر ـ إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة.

---

[1] يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.

ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ ـ أي يوم قتل علي ـ لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه ـ في البداية ـ مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم، وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[2]

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: **484**.

[2] **يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع**

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ـ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ـ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ـ 678.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.

[2] فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ـ عند ذلك ـ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ـ في أيامه ـ

ومع هذا فقد عقد يحيى صلحا مع عمه؛ على أن يعترف كل واحد منهما بالآخر؛ فتسمى كلاهما بلقب خليفة.[1] وبذلك أصبح في قرطبة خليفة، وفي إشبيلية خليفة آخر؛ وهذا طبعا يدل على الضعف والهوان الذي أضحى عليه لقب خليفة في الأندلس.

وحتى يحيى بن علي هذا حكم قرطبة ـ مثل عمه ـ في فترتين: بدأت الأولى في جمادى الأولى من سنة 412هـ كما تم ذكره؛ وظل متربعا على سرير الحكم ـ في هذه الفترة ـ ما يناهز السنة وستة أشهر؛ ثم خرج فارا ـ كعمه أيضا ـ إلى مالقة؛ بعد أن ضاق به الحال في تلك المدينة المتقلبة. أما الفترة الثانية فأتت بعد أن عمل القرطبيون على تنصيب بعض الأمويين ـ من جديد في قرطبة ـ كخلفاء؛ وكان آخرهم المستكفي

أبو بكر بن ذكوان، وأبو العباس أحمد بن أبي حاتم أخوه؛ وأنهضهما إلى الوزارة عقب وفاة الشيخ أبي العباس بن ذكوان. وغَرب شأوُ أبي بكر منهم؛ فجاء أحوذيّاً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] يقول ابن عذاري: ((وكان عمه القاسم بن حمود لما رأى جور البربر، وقلة طاعتهم؛ خرج من قرطبة إلى إشبيلية فارا منهم وخائفا، فاستقر بإشبيلية وهو يدعى له بالخلافة، ويتسمى بأمير المؤمنين؛ فخاطب البربر ـ من قرطبة ـ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن علي؛ وأدخلوه قرطبة، وبويع بها ـ كما ذكرنا ـ وتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وتلقب بالمستعلي؛ (قال ابن حزم): "خليفتان تصالحا؛ وهو أمر لم يسمع بأذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور؛ يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، والقاسم بن حمود بإشبيلية")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 132 ـ 133.

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم – وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شهَيد – إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى – كرة أخرى – نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل – كما جاء في بعض الأقوال – إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة – أيضا – وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان – بصراحة – أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون – بغموض – أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ـ كعادتهم ـ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ـ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ـ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ـ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره – كعمه – الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هــذا ولــم يطــل بقــاء القاســم ــ كمــا سبقــت الإشــارة إليــه ــ في قرطبــة؛ إذ اضطــر هــو بــدوره إلى الخــروج منهــا مطــرودا بضغــط مــن سكانهــا؛ وذلــك في سنــة 414هــ(1023م). ويبــدو أنهــم ــ كمــا أشــار إلى ذلــك ابــن الأثيــر وابــن خلــدون ــ قد استضعفــوه بعــد أن وصلتهــم أخبــار أفــادت بتغلــب ابــن أخيــه يحــيى المعتــلي عــلى حصونــه ومراكــزه في الجزيــرة الخضــراء وطنجــة.[1]

****

ــ دولــة بــني حمــود خــارج قرطبــة:

وبخــروج القاســم إلى إشبيليــة ويحــيى إلى مالقــة؛ أفــل شعــاع قرطبــة نهائيــا كحاضــرة للخلافــة بالأندلــس. وأصبحــت كغيرهــا مــن مــدن تلــك الديــار؛ تابعــة لمراكــز أخــرى؛ ســواء كانــت مالقــة أو طليطلــة أو إشبيليــة أو غيرهــا. وأضــحى. الحديــث ــ مــن جهــة أخــرى ــ عــن دولــة بــني حمــود لا يعــدو أن يكــون حديثــا عــن إمــارات متفرقــة للحموديــين ــ مثلهــا مثــل أي إمــارة مــن إمــارات الطوائــف ــ في: مالقــة أو في الجزيــرة أو في سبتــة؛ ثــم انحــدر بهــا الحــال شيئــا فشيئــا أخيــرا إلى مجــرد إمــارة صغيــرة في مدينــة مليلــة. ومــع هــذا فقــد أصــر أصحــاب تلــك الإمــارات

---

[1] الكامــل، ج: 7، ص: 286. والعبــر، مج: 4، ص: 331.

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا ملها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريُّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ــ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ــ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ــ بدورهم ــ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ــ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ــ 192. 216 ــ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ــ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ــ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ــ 98.

ـ حكومـــة المعتلي يحـــيى بن علي بن حمود في مالقـــة:

فمنـــذ البدايـــة كـــان يحـــيى يميـــل إلى الاستقـــرار في مدينـــة مالقـــة أكثـــر مـــن ميلـــه إلى قرطبـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي لا تستقـــر عـــلى حـــال. وذلـــك لأن مالقـــة تحتـــل موقعـــا قريبـــا مـــن أنصـــاره وعصبيتـــه في الضفـــة المغربيـــة. لـــذا فعنـــد خروجـــه في المـــرة الثانيـــة مـــن قرطبـــة في سنـــة 417هـ(1026م)؛ قـــرر أن يجردهـــا مـــن صفتهـــا السابقـــة كعاصمـــة للخلافـــة؛ ووضعهـــا في مصـــاف المـــدن الثانويـــة التابعـــة لمركـــز الخلافـــة في مالقـــة. لهـــذا فقـــد أسنـــد شئونهـــا إلى بعـــض معاونيـــه؛ كـــ: أبي جعفـــر أحمـــد بـــن مـــوسى، ودونـــاس بـــن أبي روح في قـــول، أو عبـــد الرحمـــن بـــن عطـــاف اليفـــرني في قـــول آخـــر.

وكـــان قـــد عمـــل ـ قبـــل هـــذا التاريـــخ، وبالتحديـــد في سنـــة 413هـ(1022م) لمـــا خـــرج في المـــرة الأولى مـــن قرطبـــة ـ عـــلى تنظيـــم شئونـــه في مالقـــة؛ حيـــث تمســـك بإعـــلان نفســـه خليفـــة إلى جانـــب عمـــه خليفـــة إشبيليـــة. وبـــقي يترقـــب مـــا يجـــري في قرطبـــة وإشبيليـــة؛ حـــتى وصلتـــه أخبـــار هـــروب عمـــه القاســـم مـــن قرطبـــة للمـــرة الثانيـــة، وامتنـــاع إشبيليـــة عـــن استقبالـــه؛ الأمـــر الـــذي اضطـــره إلى اللجـــوء إلى شريـــش. عندهـــا لـــم يتـــرك يحـــيى هـــذه الفرصـــة تفوتـــه؛ لـــذا فقـــد زحـــف فـــورا إلى شريـــش؛ بنيـــة القتـــال ضـــد عمـــه؛ إذ حدثـــت بينهمـــا معـــارك شديـــدة؛ ضيـــق خلالهـــا يحـــيى الحصـــار عـــلى عمـــه حـــتى استسلـــم لـــه في الأخيـــر؛ فقـــام بأســـره؛ ثـــم نقلـــه معـــه إلى مالقـــة عاصمـــة ملكـــه. أيـــن كـــان

مصيره القتل في السجن سنة 427هـ(1035م).[1] في قول، أو في 431هـ(1039م) في قول آخر.

وكان يحيى بن علي يسعى جاهدا ـ منذ ترك قرطبة في المرة الأولى ـ إلى تمهيد دولته وتقويتها انطلاقا من مالقة؛ لذا فإنه لم يتراخ لحظة واحدة عن محاولة ضم مقاطعات جديدة لمملكته؛ من ذلك أنه تغلب على الجزيرة الخضراء؛ التي كانت إحدى مراكز عمه الخلفية؛ وفي الوقت نفسه تمكن أخوه إدريس ـ الوالي على سبتة ـ من التغلب على طنجة؛ التي كانت ـ أيضا ـ حصنا ومستودعا لذخائر عمه. ويعتبر خروج هاتين المقاطعتين الهامتين من يد القاسم؛ بمثابة الضربة القاصمة لسلطانه.

---

[1] شرح المقري سبب قتله بقوله: ((وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه، وإسلام أهل شَريشَ له، وفر سودانه؛ وحصل القاسم وابنه في يد يحيى؛ وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتله، ولا يتركه حتى يلي الإمامة في قرطبة مرة ثانية؛ فرأى التربص في قتله = =حتى يرى رأيه فيه. فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده؛ وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له في الخلاص... وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة؛ فنمي إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان؛ فقال أوَبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة 427هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه بقي في السجن في زمن كل من: يحيى وإدريس؛ ولم يقتل خنقا إلا بعد موت إدريس في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ـ 52. أما ابن الأثير فيرى أن الذي قتل القاسم هو إدريس بن علي وليس يحيى. الكامل، ج: 7، ص: 287.

وتـــلا ذلـــك ــ بالفعــل ــ اضطــراب حالـــه في قرطبـــة، إذ أعلـــن سكانهـــا عليـــه العصيـــان.[1] ولـــم يكتـــف يحـــيى بهـــذا فحســـب؛ بـــل تحـــرك أيضـــا لقتـــال عمـــه في شريـــش كمـــا سبـــق ذكـــره. حيـــث قبـــض عليـــه مـــع ولديـــه: محمـــد والحســـن؛ حيـــث سجنهـــم بمالقـــة؛ وربمـــا يكـــون ــ كمـــا جـــاء في بعـــض الروايـــات ــ قـــد حبـــس ابـــني عمـــه في الجزيـــرة الخضـــراء.[2]

ولـــم يكتـــف المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي بمـــا افتكـــه مـــن عمـــه؛ بـــل أكـــره عـــددا مـــن أمـــراء الأمازيـــغ؛ كي يتخلـــوا لـــه عـــن بعـــض مدنهـــم وحصونهـــم؛ الـــتي تغلبـــوا عليهـــا مـــن قبـــل. وقـــد اتخـــذ مـــن تلـــك الحصـــون منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة والتضييـــق عليهـــا؛ كي يجبـــر ابـــن عبـــاد عـــلى التسليـــم لـــه والإذعـــان للطاعـــة.[3] ويبـــدو أن بعـــض القبائـــل الأمازيغيـــة لـــم تكـــن مخلصـــة الإخـــلاص كلـــه للمعتـــلي؛ ومـــا خضوعهـــا وإعـــلان

---

[1] العبـــر، مج: 4، ص: 331.

[2] العبـــر، مج: 4، ص: 332.

[3] يقـــول في هـــذا ابـــن الأثيـــر: ((واتفـــق البربـــر عـــلى طاعتـــه، وسلمـــوا إليـــه مـــا بأيديهـــم مـــن الحصـــون والمـــدن؛ فقـــوي وعظـــم شأنـــه، وبـــقي كذلـــك مـــدة ثـــم ســـار إلى قرمونـــة؛ فأقـــام بهـــا محاصـــرا لإشبيليـــة طامعـــا في أخذهـــا)). الكامـــل، ج: 7، ص: 288. ويتفـــق معـــه ابـــن خلـــدون فيقـــول: ((وأقـــام يحـــيى المعتـــلي يخيفهـــم ويـــردد العساكـــر لحصارهـــم [يقصـــد هنـــا ملـــوك الطوائـــف] إلى أن اتفقـــت الكافـــة عـــلى إســـلام المدائـــن والحصـــون لـــه؛ فعـــلا سلطانـــه واشتـــد أمـــره؛ وظاهـــره محمـــد بـــن عبـــد اللـــه البـــرزالي عـــلى أمـــره؛ فنـــزل عنـــده بقرمونـــة يحاصـــر فيهـــا ابـــن عبـــاد بإشبيليـــة؛ إلى أن هلـــك سنـــة ســـت وعشريـــن بمداخلـــة ابـــن عبـــاد للبـــرزالي في اغتيالـــه)). العبـــر، مج: 4، ص ص: 332 ـــ 333.

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.

[2] العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ـ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ـ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.

رفـــع السيـــف عنهـــم؛ فأطاعـــه في ذلـــك، وتـــم لأبـــن عبـــد اللـــه مـــا أراد مـــن حقـــن الدمـــاء؛ إذ لـــم يـــأت الـــذي أتـــاه إلا عـــن ضـــرورة)).[1] وتلـــك الضـــرورة لـــم تكـــن في الحقيقـــة ســـوى الرغبـــة في استعـــادة حصـــن قرمونـــة؛ الـــذي افتكـــه يحـــيى مـــن سيـــد بـــني بـــرزال؛ واتخـــذه منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة. هـــذا وقـــد تـــرك يحـــيى ولديـــن صغيريـــن همـــا: الحســـن وإدريـــس.[2]

****

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 189.

[2] الجمهـــرة، ص: 51. المعجـــب، ص: 54. والكامـــل، ج: 7، ص: 288.

ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثـم طلـب مـن أصحـاب الحـل في الجزيـرة ــ مـن السـودان والأمازيـغ ــ البيعـة لمحمـد بـن القاسـم؛ الـذي اكتـفى ــ في البدايـة ــ بالإمـارة عـلى الجزيـرة؛ وتغـاضى عـن الادعـاء بالخلافـة. ولكنـه ــ فيمـا بعـد ــ أعلـن نفسـه خليفـة سنـة 439هـ(1047م) وتسـمى بالمهـدي.[1] ولمـا تـوفي ولي بعـده في مرتبـة الخلافـة ــ كمـا يزعـم بعضهـم ــ ابنـه القاسـم بـن محمـد؛[2] الـذي قيـل أنـه تسـمى بالواثـق.[3] وكـان هـذا الأميـر هـو آخـر مـن تـولى مـن بـني القاسـم في الأندلـس. ويعـود السبـب في انتقـال الخلافـة مـن بـني عـلي بـن حمـود إلى بـني أخيـه القاسـم؛ إلى مـا أصـاب دولـة الأدارسـة في مالقـة مـن تفكـك ووهـن؛ لـذا فقـد قـرر أمـراء الأمازيـغ ــ في تلـك الديـار ــ أن ينقلـوا الخلافـة مـن أسـرة عـلي بـن حمـود في مالقـة؛ إلى أسـرة أخيـه القاسـم بالجزيـرة.

---

[1] هكـذا في جـل المصـادر؛ بينمـا قـال ابـن خلـدون أنـه تسـمى بالمعتصـم. العبـر، مج: 4، ص: 335.

[2] قـال ابـن حـزم أن محمـد بـن القاسـم خلـف مـن الأولاد: ((يحـيى الأصـم؛ أكبرهـم، ثـم القاسـم؛ الـوالي بعـد أبيـه؛ وكـان حصـورا؛ لا يقـرب النسـاء، وإبراهيـم، وأحمـد، وجعفـر، والحسيـن)). الجمهـرة، ص: 51.

[3] هكـذا قـال ابـن خلـدون، العبـر، مج: 4، ص: 335. أمـا ابـن حـزم والمـراكـشي فيقولان أنـه لـم يتسـم بالخلافـة. الجمهـرة، ص: 50. والمعجـب، ص: 68.

وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق ابن محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون بن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

[1] والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 – 230.

ـ حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:

نشأت هذه الإمارة ـ كما سبق قوله ـ في الجزيرة الخضراء أيام القاسم بن حمود؛ بتكليف من الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان بن الحكم.[1] ثم تغلب عليها المعتلي يحيى بن علي، وقبض على ولدي القاسم: محمدا وحسن. ولكنهما استطاعا الإفلات بعد موت يحيى بن علي سنة 427هـ(1035م)؛[2] والعودة إلى امتلاك الجزيرة من جديد؛ بمساعدة المكلف بحراستهما؛ وهو من المغاربة، ويدعى أبا الحجاج. ومنذئذ اعتلى محمد ابن القاسم على عرش الجزيرة الخضراء؛ دون أن يتسمى ـ في البداية ـ بالألقاب الخلافية. أما أخوه حسن فقد تنسك، ولبس الصوف؛ ثم توجه إلى الحج مع أخته فاطمة؛ زوجة المعتلي يحيى بن علي.

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 284. والمعجب: ص: 43. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 62 ـ 63. أما ابن خلدون والمقري فيريان أنهما تمكنا من الفرار من محبسهما بمالقة في سنة 414هـ. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد والقاسم ـ واسمها سبيعة ـ فاحتجت عليه قائلة: **((يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن))**.[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ ـ سنة 439هـ(1047م) ـ تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: **216.**

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: **64.**

[3] قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ـــ قال ابن حيان ـــ "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد

ويبدو أن الأمازيغ عادوا فتخلوا عنه، وتركوه وحيدا؛ إذ يقال أنه مات غما سنة 440هـ(1048م). ويقول عبد الواحد المراكشي أنه أنجب زهاء ثمانية أولاد ذكورا.

ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود:

تولي القاسم بن محمد الحكم في الجزيرة الخضراء إثر وفاة والده سنة 440هـ(1048م). وقد اختلفت آراء المؤرخين في المرتبة الملكية التي احتلها القاسم هذا؛ إذ يقول ابن خلدون والمقري ـ على سبيل المثال ـ أنه تسمى بلقب الواثق؛ بينما يرى ابن حزم أنه لم يتسم بالخلافة؛ ويتفق مع ابن حزم كل من: ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي.[2]

عباد بن محمد صاحب إشبيلية؛ ونزلوا عليها؛ ودخل معهم ابن الأفطس صاحب بطليوس. وكانت عدة هؤلاء الرؤساء مع إمامهم محمد بن القاسم على عباد بن محمد سبعة ملوك؛ ثم انصرفوا مع خليفتهم؛ ولم يقض الله لهم أربا. فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع، ولا اتفاق")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 219 ـ 220.

[1] يعتقد ابن خلدون والمقري: أنه تلقب بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين [وأربعمائة])). العبر، مج: 4، ص: 335. أنظر أيضا: نفح الطيب، ج: 1، ص: 435. أما ابن حزم فيقول: ((وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد؛ ولم يتسم بالخلافة؛ إلى أن خرج عنها سنة 446هـ)). الجمهرة، ص: 50. ويؤيد ابن الأثير هذا الأمر بقوله: ((فولي الجزيرة ابنه القاسم؛ ولم يتسم بالخلافة)). الكامل ج: 7، ص : 289. ويقول

هـذا ولـم يقـم القاسـم بـن محمـد بمـا يستحـق الذكـر والتنويـه في بـلاد الأندلـس؛ طـوال المـدة الـتي حكـم فيهـا الجزيـرة الخضـراء. وكـل مـا ذكـره عنـه المؤرخـون هـو تعـرض بـلاده لغـزو جيـش المعتضـد ابـن عبـاد؛ بقيـادة عبـد اللـه بـن سـلام في سنـة 446هـ(1054م). فتمكـن مـن التغلـب عـلى الجزيـرة الخضـراء؛ وأخـرج القاسـم منهـا؛ حيـث أعـد لـه مركبـا لينقلـه حيـث يشـاء؛ فاختـار المريـة؛ في حمايـة المعتصـم بـن صمـادح؛ بعـد أن يئـس مـن قبولـه في سبتـة؛ حيـث يقيـم سقـوط البرغـواطي.[1]

المراكـشي أيضـا: ((فتـولى أمـر الجزيـرة بعـده ابنـه القاسـم بـن محمـد ابـن القاسـم؛ إلا أنـه لـم يتسـم بالخلافـة)). والمعجـب، ص: 68.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وفي سنـة سـت وأربعيـن وأربعمائـة نظـر المعتضـد عبـاد في حسـن الجزيـرة الخضـراء وأميرهـا القاسـم بـن محمـد العلـوي؛ فضيـق عليـه إلى أن نـزل عـن بلـده بأمـان عـلى نفسـه وخـرج؛ فكـان الـذي حصرهـا لـه قائـده عبـد اللـه بـن سـلام؛ فأعـد عبـد اللـه للقاسـم مركبـا يسيـر فيـه حيـث شـاء. وكـان أميـر سبتـة يومئـذ سواجـات [سقـوط] البرغـواطي؛ وكـان القاسـم هـذا استنصـره فلـم ينصـره؛ فنكـب عـن سبتـة إلى المريـة؛ وبـقي بهـا إلى أن تـوفي. واحتـوى قائـد بـن عبـاد عـلى الخضـراء؛ ثـم خـرج منهـا بالعسكـر؛ تهفـو بهـم ريـح النصـر؛ وقـد قـدروا ألا غالـب لهـم؛ فلقـوا جماعـة مـن بـني برنيـان؛ فوقعـت بينهـم حـرب انهـزم لهـا خيـل ابـن عبـاد؛ وقتـل قائدهـم عبد اللـه ابـن سـلام؛ وانصـرف الجيـش لابـن عبـاد مهزومـا)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ـــ 243.

وتقـول بعـض الروايـات أن القاسـم بـن محمـد تـوفي بالمريـة سنـة 450هـ(1058م).[1] ويقـول ابـن حـزم أنـه كـان حصـورا لا يقـرب النسـاء؛ وعليـه فلـم يخلـف أولادا.[2]

****

ــ حكومـة المتأيـد باللـه إدريـس بن علي بن حمـود:

ولمـا قتـل المعتـلي يحـيى بـن عـلي بـن حمـود؛ عـاد كبيـر دولتـه أبـو جعفـر أحمـد بـن مـوسى المعـروف بابـن بقنـة[3] رفقـة أبي الفـوز نجـا الخـادم ــ ذلـك الفـتى الصقلـبي[4] المقـرب مـن المعتـلي يحـيى بـن عـلي ــ إلى مالقـة؛ أيـن استدعيـا بسرعـة إدريـس بـن عـلي أخـا يحـيى مـن سبتـة؛ حيـث عقـدا لـه البيعـة؛ بشـرط أن يسنـد ولايـة سبتـة وطنجـة للحسـن بـن يحـيى بـن عـلي؛ فقبـل إدريـس بذلـك؛ وانتقـل الحسـن ابـن يحـيى ــ رفقـة الفـتى الصقلـبي نجـا ــ إلى ولايـة سبتـة. وفي البيعـة تلقـب إدريـس بـن عـلي بالمتأيـد باللـه واعتـلى سـدة الخلافـة؛ مثلمـا كـان عليـه أخيـه

---

[1] البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ــ 243. الأعـلام للزركـلي، ج: 6، ص: 16. أمـا ابـن بسـام فلـم يذكـر المريـة؛ ولكنـه قـال أنـه لجـأ إلى قرطبـة؛ حيـث مـات بهـا في التاريـخ نفسـه. الذخيـرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ــ 37.

[2] الجمهـرة، ص: 51.

[3] ورد في بعـض المصـادر ابـن بقيـة والصحيـح هـو ابـن بقنـة.

[4] في العبـر؛ الصقـلي؛ مج: 4، ص: 333.

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا ــ جميعا ــ على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

---

[1] **قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طرياتة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 ــ 191.**

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ــ كما سبق ذكره ــ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ــ في بداية الأمر ــ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ــ بعد فترة ــ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس – بعد هذه الموقعة – سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد – هو الآخر – ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

– حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة – بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي – تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

[2] المعجب، ص: 62.

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4] وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ـ وهي كثيرة ـ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[1] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر بن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: 290. كما أنه؛ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس ابن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: 291.

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 63 ــ 64.

ـ حكومة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود:

كان نجا الصقلبي قد ترك في مالقة ـ عندما رجع إلى مقر ولايته بسبتة ـ رجلا من التجار يثق فيه اشتهر باسم محمد السطيفي؛ وأوصاه بالسهر على سير الإمارة، وعلى سلامة سيده الحسن بن يحيى. ولما قتل الحسن مسموما بيد زوجته؛ سارع السطيفي إلى اعتقال أخيه إدريس بن يحيى؛ خوفا من خروج الأمر من يده ويد نجا الصقلبي الوصي على العرش؛ ثم بعث بالخبر إلى ذلك الفتى الصقلبي نجا؛ فسارع من فوره إلى التوجه في قوة إلى مالقة؛ ولما دخلها زاد في التضييق على إدريس بن يحيى، إذ قام هو الآخر بالتحفظ عليه؛ وأبقاه في سجنه أيضا؛ خوفا من تطلعه للخلافة؛ لأنه ـ كما قيل ـ كان يرغب في القضاء على ملك بني حمود نهائيا.

ويبدو – كما تقول المصادر – أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي – في هذه المرة – الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.

فاستاء الأمازيغ من فكرته؛ ولكنهم تظاهروا بأنهم يؤيدونه؛ بينما كانوا يتصيدون الفرصة المواتية للانقضاض عليه. وبالفعل تمكنوا من القضاء عليه؛ أثناء عودته من الجزيرة الخضراء إلى مالقة. ثم قضوا على صنيعته السطيفي بعده.[1] وتم ذلك كله سنة 434هـ(1042م). وبعد ذلك أخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، ونصبوه على سدة الخلافة، ولقبوه بالعالي؛ في السنة نفسها أي 434هـ(1042م).

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. أما المراكشي فقال في خبر شرح فيه مقتل الخادم الصقلبي نجا: ((وعزم [أي نجا] على محو أمر الحسنيين جملة؛ وأن يضبط تلك البلاد لنفسه؛ فدعا البربر الذين كانوا جند البلد؛ وكشف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان؛ فلم يجدوا لمساعدته بدا؛ فوافقوه في الظاهر؛ وعظم ذلك في أنفسهم باطنا. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما، ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم؛ وأحس البربر بهذا منه؛ فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة؛ فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه؛ وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به؛ وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة؛ فدخلا وهما يقولان: "البشرى البشرى!" فلما وصلا إلى السطيفي؛ وضعا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ــ 65.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت ـ بعد فترة ـ تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشي. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة ـ بدخوله إلى مالقة ـ تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم

ومــع ذلــك تمكــن العــالي ــ بعــد فتــرة ــ مــن الخــلاص مــن محبســه؛ بمعونــة بــني زيــري، وبعــض أمــراء الأمازيــغ؛ الذيــن لــم ترضهــم سياســة محمــد المهــدى؛ المتصــف بالتشــدد والحــزم. وقــد تــم ذلــك عندمــا استمالــوا المكلفيــن بحراســة العــالي في قمــارش؛ حيــث أقنعوهــم بالدعــاء للعــالي، وإعادتــه لمنصبــه الخــلافي؛ انطلاقــا مــن ذلــك الحصــن؛ وبالفعــل قــام حــراس العــالي برفعــه إلى ســدة الخلافــة في تلــك الجهــات.[1] ولــم يكفهــم إطــلاق ســراح إدريــس بــل عملــوا كــل جهدهــم كي يتغلبــوا عــلى مالقــة ويعيــدوه إلى منصبــه فيهــا. ولكــن محاولاتهــم بــاءت بالفشــل الذريــع.[2]

يقــدر عــلى شــيء؛ فرجــع إلى حصــن ببشتــر، وأخــرج عيالــه وجــاز إلى سبتــة)). ثــم أضــاف روايــة نقــلا عــن ابــن حيــان فقــال: ((وفي شعبــان مــن سنــة ثمــان وثلاثيــن [وأربعمائــة] خــرج إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي بــن حمــود مــن مالقــة؛ متنزهــا للصيــد فغلــق البــاب في وجهــه أهــل البلــد؛ ووجهــوا إلى ابــن عمــه محمــد ابــن إدريــس، وبايعــوه بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي، وتوطــد أمــره بمالقــة مــدة حياتــه؛ وانصــرف إدريــس بــن [يحــيى] بــن عــلي العــالي إلى العــدوة، ثــم رجــع بعــد ذلــك إلى الأندلــس، واستقــر عنــد أبي نــور بــن أبي قــرة اليفــرني، صاحــب رنــدة شهــورا ودعــا لــه بالخلافــة)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 217. أمــا ابــن الخطيــب فيقــول أن محمــد بــن إدريــس انتهــز فرصــة خــروج العــالي إدريــس بــن يحــيى إلى حصــن ببشتــر؛ فأقفــل في وجهــه أبــواب مالقــة. أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 141. المهــم أن الآراء حــول دولــة الأدارســة في مالقــة متضاربــة وتختلــف مــن مصــدر إلى آخــر.

[1] الكامــل، ج: 7، ص، 289. والمعجــب، ص: 67.

[2] قــال المراكــشي: ((وظهــرت مــن محمــد بــن إدريــس هــذا شهامــة وجــرأة شديــدة؛ هابــه بهــا جميــع البربــر، وأشفقــوا منــه؛ وراسلــوا المرتــب في الحصــن الــذي فيــه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ ـ بعدئذ ـ صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه ـ هو الآخر بعد فترة ـ وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)).
المعجب، ص ص: 66 ـ 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان يبديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ـ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ـ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ـ أيضا ـ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ ونوديا بها؛ ولكنهما ـ بالمقابل ـ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن ـ دون أن يتنازل عن لقب الخلافة ـ وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه ـ مع ذلك ـ كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة

---

[1] **الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.**

من المال تقدر بخمسمائة دينار.[1] كما يقال أنه رد للذين كانوا مغضوبا عليهم اعتبارهم وحقوقهم، وأرجع – أيضا – المطرودين إلى أوطانهم، وأعاد لهم ما أخذ منهم من أملاك وضياع.

وبالمقابل كان يظهر في صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى؛ وذلك أنه كان ينادم ويصاحب الأرذال من العباد؛ ويقال أنه لم يكن يحجب حرمه عنهم.[2] ومن غرائب ما عرف عنه أنه لم يكن يبخل حتى بحصونه ورموز دولته؛ إذا ما سأله جيرانه الأقوياء التكرم عليهم بها.[3] وقيل أنه لما انقلب عليه ابن عمه محمد بن إدريس؛ عرض عليه مؤيدوه وأنصاره – من العامة – أن يسمح لهم بالمقاومة والدفاع عنه؛ فرفض؛ وطلب منهم أن يتركوه وشأنه.[4] فلم يجدوا بدا من تركه لقمة في

---

[1] الكامل: ج: 7، ص: 289.

[2] الكامل، 7، ص: 289. والمعجب، ص: 66.

[3] قال المراكشي: ((وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده؛ ممن يجاوره من صنهاجة، أو بني يفرن أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده: موسى بن عفان السبتي؛ فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه؛ وأنه لابد من تسليمه إليه؛ قال له موسى بن عفان: "افعل ما تؤمر؛ وستجدني إن شاء الله من الصابرين!" فبعث به إلى الصنهاجي فقتله)). المعجب، ص: 66.

[4] يقول المراكشي: ((واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة، والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فوارق ناقة [وهذه العبارة تأتي كناية عن السرعة والحسم]؛ فأبى؛ فقال لهم: "ألزموا منازلكم ودعوني؛ فتفرقوا عنه)). المعجب، ص: 66.

يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (سكات)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبديين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبديين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيـــحُ الصَّبَـــا بَلِــغِي أنْفَـــاسَ ذِي ظَمَـــإٍ
وَبَرِّدِيهَـــا بِمَا يَقضِيـــهِ مَجْــــرَاكِ
أوْ يَمِّمِي حَضْـــرَةَ العَـــالِي بِمَا احْتَمَلَـــتْ
مِنِّي الضُّلُـــوعُ فَثَـــمَّ البُرْءُ لِلشَّـــاكِي

****

ـ الانقســـام الثالـــث في أســـرة بـــني حمـــود:

كـــان الانقســـام الأول ـ كمـــا ذكرنـــاه ـ في عهـــد القاســـم ابـــن حمـــود سنـــة 412هـ (1021م). أمـــا الانقســـام الثـــاني فحـــدث بعـــد وفـــاة إدريـــس بـــن يحـــيى بـــن حمـــود سنـــة 431هـ (1039م). ثـــم جـــاء الانقســـام الثالـــث في عهـــد العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى بـــن عـــلي سنـــة 438هـ (1046م)؛ وذلـــك بعدمـــا خـــرج عليـــه ابـــن عمـــه محمـــد بـــن إدريـــس بـــن عـــلي؛ حيـــن تغلـــب عـــلى مالقـــة وحبـــس العـــالي في حصـــن قمـــارش ـ كمـــا سبـــق ذكـــره ـ ثـــم تســـمى بالخلافـــة، وتلقـــب بالمهـــدي. وبعـــد ذلـــك انحـــاز حـــراس إدريـــس إليـــه، وأعـــادوا إليـــه الاعتبـــار، ونـــادوا بـــه خليفـــة؛ حيـــث استقـــر لبعـــض الوقـــت في حصـــن قمـــارش أو ببشتـــر؛ وتمســـك بالدعـــاء لـــه أمـــراء الأمـــازيـــغ ـ أيضـــا ـ وزحفـــوا نحـــو مالقـــة؛ بغـــرض التغلـــب عليهـــا وإعـــادة العـــالي إلى منصبـــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ــ هو الآخر ــ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ــ أيضا ــ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ــ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ــ وهو الملقب بحيون ــ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ــ

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.

كما سبقت الإشارة إليه – وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس بن يحيى الحكم بادر – فورا – إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين – كما قيل في بعض المصادر – لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا – مع أنصارهما – أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه.

وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس بن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ (1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين.

أمــا محمــد المهــدي فبــقي صامــدا في مالقــة؛ ضــد خصومــه مــن أمــراء الأمازيــغ إلى يــوم وفاتــه مسمومــا ــ كمــا قيــل ــ في سنــة 444هــ (1052م) أو 445هــ (1053م).[1] فســارع ــ عندئــذ ــ العــالي إدريــس بــن يحــيى إلى العــودة إلى مالقــة؛ والتربــع مــن جديــد عــلى عــرش الخلافــة بهــا؛[2] وذلــك لأنــه كــان يتربــص الفرصــة المواتيــة؛ مــن تاكرنــة حيــث كــان مستقــرا. وهكــذا عــاد العــرش لإدريــس مــن جديــد؛ حيــث بــقي إلى يــوم وفاتــه سنــة 446هــ(1054م) أو 447هــ(1055م)؛ كمــا سبــق ذكــره.

---

[1] اتفــق ابــن عــذاري وابــن الخطيــب عــلى قصــة زعمــا أنهــا قصــة مــوت محمــد المهــدي؛ وجــاء فيهــا: ((وكــان محمــد بــن إدريــس هــذا سفاكــا للدمــاء؛ فامتــدت يــده إلى قتــل البرابــر؛ ولمــا رأى الحجــاب ذلــك؛ وهــم أمــراء القبائــل؛ عملــوا الحيلــة في قتلــه؛ فوجــه لــه باديــس بــن حبــوس بكــأس عــراقي مسمــوم؛ مــع رجــل مــن الكتاميــين. فلمــا وصــل إليــه قــال لــه: "هــذه كــأس جلبــت للحاجــب المظفــر باديــس؛ فلــم يرهــا تصلــح إلا للخلافــة؛ فاختصــك بهــا". فأعجــب بهــا محمــد ابــن إدريــس، وملأهــا خمــرا، وضمهــا إلى فمــه؛ فأحــس في نفســه ريبــة منهــا؛ فأمــر الكتــامي فشربهــا؛ فتهــرأ جلــده عــن لحمــه مــن حينــه. وبــقي هــو ثلاثــة أيــام، ومــات مــن رائحتهــا في أواخــر سنــة 444هــ)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 218. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 141 ــ 142.

[2] قــال البكــري وابــن الخطيــب: أن الــذي تــولى الحكــم ــ مباشــرة ــ بعــد مــوت محمــد المهــدي ابــن أخيــه إدريــس بــن يحــيى بــن إدريــس بــن عــلي؛ حيــث تســمى بالموفــق؛ ولــم ينســب إلى نفســه رتبــة الخلافــة؛ ولكنــه لــم يبــق في الملــك أكثــر مــن أشهــر يسيــرة؛ إذ زحــف إليــه العــالي إدريس بــن يحــيى. أنظــر المغــرب، ص: 134.

ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:[1]

تولى الحكم بمالقة في السنة التي توفي فيها العالي إدريس بن يحيى. وتسمى ـ في أوثق الأقوال ـ بالمستعلي. هذا ولم تهتم المصادر التاريخية كثيرا بالمستعلي هذا؛ خاصة وأن حكمه لم يتجاوز السنتين. أي من سنة 446 أو 447هـ (1055م) إلى سنة 449هـ(1057م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها باديس بن حبوس بن زيري على مالقة؛ معلنا بذلك ختام الدولة الإدريسية في الأندلس نهائيا.[2] وكان أمراء الأمازيغ بتلك الديار قد حولوا دعوتهم ـ في البداية ـ إلى محمد بن القاسم سنة 439هـ(1047م)، ولما مات سنة 440هـ(1048م) نقلوها لابنه القاسم لفترة قصيرة؛ ولكنهم تخلوا ـ بعد ذلك ـ عن تلك الفكرة؛ ورأوا وجوب الاستقلال بأنفسهم؛ دون حاجة إلى سند شرعي في الحكم. خاصة بعد سقوط دولة بني القاسم بالجزيرة الخضراء في يد المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).[3]

---

[1] هذا رأي ابن عذاري وابن خلدون. البيان المغرب، ج: 3، ص:218. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما رأي البكري وابن الخطيب فيختلف؛ إذ يرون أنه ابن العالي إدريس بن يحيى؛ وليس ابن إدريس المتأيد. أنظر: المغرب، ص: 134. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 142. كما انهم اختلفوا أيضا في اللقب فمنهم من يعتقد أن لقبه هو المستعلي؛ ومنهم من يرى أن لقبه هو السامي.

[2] يرى البكري أن باديس دخل مالقة، وأسقط دولة المستعلي في سنة 447هـ. المغرب، ص: 134.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 242.

وهـذا مـا جعـل باديـس بـن حبـوس يزحـف إلى مالقـة؛ بغـرض امتلاكهـا. ولمـا أسقـط أميـر بـني زيـري باديـس بـن حبـوس دولـة بـني حمـود؛ لـم يجـد المستعـلي مفـرا مـن اللجـوء ــ في البدايـة ــ إلى المريـة. ومـن هنـاك وصلتـه دعـوة مـن أهـل مليلـة؛ فأجـاز إليهـم قاطعـا البحـر؛ نحـو العـدوة المغربيـة. وفي تلـك المدينـة الوفيـة لبـني إدريـس وجـد الملجـأ الآمـن؛ حيـث بايعتـه قبائـل تلـك النـواحي سنـة 456هـ(1063م)؛[1] وظـل هنـاك حـتى وفاتـه في أواخـر سنـة 460هـ(1067م).[2] ويعتبـر المستعـلي محمـد بـن إدريـس هـذا هـو آخـر ملـوك بـني حمـود الأدارسـة في الأندلـس. وذلـك بعـد أن تمـت تصفيـة ملـك بـني عمهـم؛ أبنـاء القاسـم بـن حمـود ملـوك الجزيـرة الخضـراء؛ مـن قبـل المعتضـد بـن عبـاد سنـة 449هـ(1057م).

****

[1] يقـول البكـري الـذي كـان معاصـرا لتلـك الفتـرة أن المستعـلي ذهـب إلى مليلـة في سنـة 459هـ؛ فمـا قـال:((وتسـمى بالمستعـلي، ولـم يخطـب لـه بالخلافـة؛ فأقـام بمالقـة إلى أن تغلـب عليهـا باديـس بـن حبـوس بـن ماكسـن في صـدر سنـة سبـع وأربعيـن وأربعمائـة؛ فانقطعـت دولـة بـني عـلي بـن حمـود مـن يومئـذ؛ ثـم استـدعي محمـد بـن إدريـس هـذا مـن مدينـة مليلـة؛ وهـو مستقـر بالمريـة؛ لا يعـرف مكانـه؛ لخمـول ذكـره؛ فعبـر إليهـا؛ وذلـك في شهـر شـوال سنـة تسـع وخمسيـن وأربعمائـة؛ فقـام بـه جماعـة بـني ورتـدي بميلـة وبقلـوع جـارة ونواحيهـا. وهـو هنالـك بـاقي إلى وقتنـا هـذا؛ وهـو آخـر سنـة ستيـن وأربعمائـة)). المغـرب، ص: 134.

[2] العبـر، مج: 4، ص: 335. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 435.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن الإنجازات الحضارية والثقافية لدولة بني حمود لم تصل إلى المستوى المطلوب؛ بالنسبة لدولة تواجدت في ربوع الأندلس؛ إذ كان رصيد هذه الدولة الحضاري ـ بفرعيها ـ متواضعا؛ إذا ما قيست بالدولة الأموية، أو بدولة بني عباد بإشبيلية. فدولة بني حمود ـ سواء بقرطبة أو بمالقة أو بالجزيرة الخضراء ـ كان يهيمن عليها الطابع القبلي؛ ذي التوجه العسكري. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عمرها كان قصيرا ـ بعض الشيء ـ بالمقارنة مع دولة بني أمية؛ الأمر الذي لم يساعد على ظهور المبتكرات الحضارية والثقافية بالقدر الكافي. كما أن حياتها كانت مليئة بالفتن والحروب والمؤامرات؛ وهذا ـ بالطبع ـ لا يساعد على بروز عبقريات في الميادين العلمية والفكرية. ويعتبر ذلك من بين الموانع المؤثرة في سبيل إنجاز أي مشروع حضاري. هذا وكان ـ طبعا ـ للعامل الاقتصادي أثره في انكماش الإنجازات الحضارية والثقافية بهذه الدولة الضعيفة؛ التي لم تكن مواردها الاقتصادية كافية لتحقيق ما حققته الدولة الأموية.

ومع ذلك فقد ورثت دولة بني حمود شيئا من التراث الذي خلفته الدولة الأموية؛ ممثلا ببعض المنشآت العمرانية، والمبتكرات العلمية، وما تعودت عليه الرعية من تذوق للإبداعات الفنية والأدبية. هذا وقد ورث بلاط الحموديين أيضا ـ بشقيه ـ بعض المؤسسات الثقافية كما ضم إليه بعض الأدباء والكتاب الفطاحل، والشعراء الفحول؛ كما استقبل أدباء وشعراء وفدوا إليه من جهات أخرى؛ دون نية في الإقامة. وقد ازدانت هذه الدولة وحظيت أيضا بوجود بعض العلماء والفقهاء في ربوعها؛ حيث اختصوا بشئون الكتابة والقضاء والفتيا والتدريس. ولمزيد من الفائدة والتوضيح نشير إلى أولئك العلماء والأدباء والكتاب والشعراء؛ وهم:

ـ **أبـو عمـر أحمـد بـن درّاج القسطـلي:**[1] وينتسـب إلى أسـرة بـني درّاج الصنهاجيين. وكـان القسطـلي ـ أيـام المنصـور بـن أبي عامـر ـ كاتبـا للإنشـاء مـع ابـن الجزيـري.[2] ويبـدو أن أنـه مـرّ مـرور الكـرام ببـلاط

---

[1] قـال فيـه ابـن بسـام: ((حـل اسمـه مـن الأمـاني محـل الأنـس، وسـار نظمـه ونثـره في الأقـاصي والأداني مسيـر الشمـس؛ وأحـد مـن تضاءلـت الآفـاق عـن جلالـة قـدْره؛ وكـان الشـام والعـراق أدنى خـطى ذكـره. وقـد أجـرى الثعالـبي طرفـا مـن أمـره بـ(اليتيمـة): "بلغـني أن أبـا عمـر القسطـلي كـان عندهـم بصقـع الأندلـس كالمتنـبي بصقـع الشـام؛ وهـو أحـد شعرائهـم الفحـول هنالـك. وكـان يجيـد مـا ينظـم")). نفسـه، ص: 60.

[2] ذكـره الحميـدي فقـال: ((كـان كاتبـا مـن كتـاب الإنشـاء في أيـام المنصـور أبي عامـر؛ وهـو معـدود في جملـة العلمـاء والمقدَّميـن مـن الشعـراء، والمذكوريـن مـن البلغـاء؛ وشعـره كثيـر مجمـوعٌ؛ يـدل عـلى علمـه؛ ولـه طريقـة في البلاغـة والرسائـل؛ تـدل عـلى اتساعـه وقوتـه؛ وأول مـن مـدح مـن الملـوك المنصـور أبـو عامـر محمـد بـن أبي عامـر مدبـر دولـة هشـام المؤيـد... فعـن أبي محمـد عـلي ابـن أحمـد بـن سعيـد الفقيـه؛ وأخبـرني أن المنصـور أبـا عامـر لمـا فتـح شنـب ياقـب أو غيرهـا مـن القـلاع الحصينـة الـتي يقـال إن أحـدا لـم يصـل إليهـا قبلـه؛ اسْتُـدْعِيَ أبـو عمـر أحمـد بـن محمـد بـن درّاج، وأبـو مـروان عبـد الملـك بـن إدريـس المعـروف بابـن الجزيـري؛ وأمـرا بإنشـاء كتـب الفتـح إلى الحضـرة، وإلى سائـر الأعمـال. فأمـا ابـن الجزيـري: "سمعـا وطاعـة". وأمـا ابـن درّاج فقـال: "لا يتـم لي ذلـك في أقـل مـن يوميـن أو ثلاثـة". وكـان معروفـا بالتنقيـح والتجويـد والتـؤدة. فخـرج الأمـر إلى ابـن الجزيـري بالشـروع في ذلـك؛ فجلـس في ظـل السـرادق ولـم يبـرح حـتى أكمـل الكتـب في ذلـك. وقيـل لابـن درّاج افعـل ذلـك عـلى اختيـارك؛ فقـد فسـح لـك فيـه. ثـم جـاء بعـد ذلـك بنسخـة الفتـح؛ وقـد وصـف الغـزاة مـن أولهـا إلى آخرهـا، ومشاهـد القتـال، وكيفيـة الحـال؛ بأحسـن وصـف، وأبـدع وصـف؛ فاستحسنـت ووقـع الإعجـاب بهـا؛ ولـم تـزل منقولـة متداولـة إلى الآن. ومـا بـقي مـن نسـخ ابـن الجزيـري ـ في ذلـك الفتـح عـلى كثرتهـا ـ عيـن ولا أثـر... وسمعـت أبـا محمـد عـلي بـن أحمـد [بـن سعيـد

بني حمود؛ إذ لم تطل إقامته فيه كثيرا. ومع هذا فقد منح ملوك هذه الدولة أروع ما خطته أقلام الكتاب من نثر، وأجمل ما قيل فيهم من قصائد شعرية. ومن قوله المنثور هذه القطعة التي خص بها الخليفة علي بن حمود؛ جاء فيها:
((حسْبُك اللهُ يا ابنَ رسول الله، وعلى هدًى من الله، فيما خَفقتْ إليه راياتك، وصَدَقتْ به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعته نَصْرَك، كما شرحَ بتوفيقه صَدْرَك، ويُتَمِّم بتأييدِه أمرَك، بما أوْلَيتَ أولياءَه المؤمنين، وأبْلَيْتَ في عبادِه الصالحين، المصابينَ في الأموال والأهلين، أيَّامَ تزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبَأساءِ والضَّرَّاء، وأبْرَقَتْ عليهم آفاقُ السماء بسيوف الأعداء، تَسِحُّ بوابل الدِّماء وتموجُ بأسراب السِّباء، فَسُرْعانَ ما هاموا فلا وَزَر، وربعوا فلا مُسْتقرّ، ونادوا ولاتَ حين مَنَاص ولا فوْت، إلاَّ مَنْ أعْفَاهُ الموت؛ فأصبحوا أنْفَاضَ الجَلاء، وأغراضَ الفناء، قد جَهِدُوا بالبلاء، وعَيُوا بالدَّاء العَيَاء، فلئنْ زُلْزِلَتْ بهم الأرض، لقد سكنَ بهم عِزٌّ سلطانِك، ولئنْ تَهافتَ بهم الذعْر، لقد

الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 110 ـ 114.

اطمأنوا في مِهَادِ أمانك)).[1] وقد مدح هذا الشاعر الذائع الصيت؛ الخليفة علي بن حمود بقصيدة شهيرة؛ نوه فيها بانتسابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشاد ببني هاشم، ومجد نسبهم القديم؛ وجاء فيها:[2]

لَعَلك ياشَمْسُ عِندَ الأصيلِ
شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ
فَكوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفيع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ
فَإِمَّا شَهدْتِ فَأزْكَى شَهيدٍ
وإمَّا دَللتِ فَأهْدَى دَليلِ

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.**

[2] **قال فيها ابن بسام: ((وهذه القصيدة له طويلة؛ وهي من الهاشِميات الغُرّ؛ بناها من المِسْك والدُّرّ؛ لا من الجصّ والآجُر؛ لا بل خَلَّدها حديثاً على الدَّهر، وسَرَّ بها مَطالعَ النُّجومِ الزُّهْر؛ لو قَرَعَتْ سَمْعَ دِعْبِلِ بنِ عليّ الخزاعيّ، والكُمَيْتِ بن زَيْدٍ الأسديّ، لأمْسَكا عن القول، وبرئا إليه في القُوّةِ والحَولْ؛ بل لَوْ رآها السيد الحميريّ، وكُثَيِّرٌ الخُزاعيّ، لأقاماها بَيِّنَة على الدَّعْوَى، ولتلقياها بِشارَة على زَعْمِهِما بخُروج الخيلِ من رَضْوَى؛ وقد أثْبتُّ أكثرها إعلاناً بجلالة قدرِها، واستحساناً لعَجُزِها وصدْرِها)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ـ 88.**

عَلى سَابــقٍ في قيُــودِ الخُطــُوبِ

وَنَجْمٍ سَنَــاً فِــي غثُــاءِ السُّيُــولِ

يُنَــادِي الثــرَى لِسَقَــامِ الضَّيَــاعِ

وَيَشْكُــو إِلَى المُلْــكِ دَاءَ الخمُــولِ

وَعَــزَّ عَلى العِلمِ مَثــوَاهُ أرْضــاً

عَلى حُكمِ دَهْــرٍ ظلــومٍ جَهُــولِ

وَيَعْجَــبُ كَيــفَ دَنَــا مِنْ عَــلِيٍّ

وَلَــمْ تَنفَصِــمْ حَلقَــاتِ الكُبــولِ

وَكَيْــــفَ تنسَّــــمَ آلَ النَــبيِّ

وَأبْطَــأَ عَنَـــهُ شِفَــاءُ العَلِيــــلِ

وَأطــوَادُ عِزِّهِـــمُ مَاثِـــلاَتٌ

لَـــهُ وَهْوَ يَرنـــو بِطَــرَفٍ كلِيــلِ

وَأبْحُرُهــمْ زَاخِـــرَاتٌ إليْـــهِ

وَيَرشُــفُ فِي الثمَــدِ المُستَحِيــلِ

تَجَــزَّأ مِــنْ جَنــتَيْ مَـــأرَبٍ

بِخَمــطٍ وَأثْــلٍ وَسِــدْرٍ قليــلِ

ثـــم يضيــف قائـــلا:

شَرِيــدُ السُّيُوفِ وَفَــلُّ الحُتــوفِ
يَكِيــدُ بأفــلاَذِ قلــبٍ مَهُـــولِ

فأذهَــلَ مُرْضِعَــةً عَــنْ رَضِيــعٍ
وَأنـــسَى الحَمَائــمَ ذِكــرَ الهَدِيــلِ

فَمَا تَهْتَــدِي العَيْــنُ فِيهَا سَبِيــلاً
سِــوَى سُبُــلِ العَبَرَاتِ الهُمُــولِ

وَلاَ يَعْــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقــاً
إلى النَّفــسِ إلاَّ بِعَضْــبٍ صَقِيــلِ

ركِبْــتُ لَهَــا مَحْمَــلاً للنجَــاةِ
وَصَيَّــرْتُ قَصْــدَكَ فِيهِ عَدِيــلِي

فــرُدَّتْ عَــلى عَقِبَيْهَــا المَنــونُ
بــوَاقٍ مُجيــرٍ ورَأيٍ أصيــلِ

وَقــد سُمْتَهَــا بِنَفِيــسِ التـــلاَدِ
عَلى أنفــسٍ ضَائِعَــاتِ الذُّحُــولِ

نُفُوسُ حَنَتْ قــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَــا
فكــنَّ سِهَــامَ قِــسِيِّ الخمُـــولِ

إلى أن يقــول:

إلَــى الهَاشِــمِيِّ إلَــى الطالِــبيِّ

إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُــوفِ الوَصُــولِ

فَسُــمِّيَ جَــدُّكَ عَمْــرو الكِــرَامِ

بهَشْــمِ الثرِيــدِ زَمَــانَ المُحُــولِ

وَضَيَّــفَ حَتَّى وُحُــوشَ الفــلاَةِ

وَأهْــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُــولِ

وَإنَّ أبَــا طالِــــبٍ لِلضيُــــوفِ

لأطلــبُ مِــنْ ضَيفِــهِ لِلنــزُولِ

يَــرُوحُ عَلَيْهــم بغــرِّ الجِفــــانِ

وَيَغــدُو لَهُمْ بِالغَرِيــضِ النشيــلِ

فَأنْتــمْ هُــدَاةُ حَيَــاةٍ وَمَــــوْتٍ

وَأنتــمْ أئمــةُ فِعْــــلٍ وَقِيــــلِ

وَسَــادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنَــاتِ عَــدْنٍ

جَميــعِ شَبَابهــــمُ وَالكهُــــولِ

وَأنتــمْ خَلاَئــفُ دُنيَــا وَدِيــــنٍ

بِحُكــمِ الكِتَــابِ وَحُكــمِ العُقــولِ

ووَالدُكــــمْ خَاتِــــمُ الأنبيَــــاءِ

لَكــمْ مِنــهُ مَجْــدُ حَــفِيٍّ كَفِيــلِ

تلـــذُّ بحَمْلكـــمُ عَاتقـــاهُ

عَلَى حَمْلِــهِ كـلَّ عِــبْءٍ ثقِيــلِ

ورَحْــبٌ عَلَى ضَمِّكــمْ صَــدْرُهُ

إذَا ضَــاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيــلِ

ويَطرُقــهُ الــوَحْيُ وَهْنــاً وَأنتــمْ

ضَجيعَــاهُ بَيــنَ يَــدَيْ جبْرَئِيــلِ

وزَوَّدَكــمْ كــلَّ هَــدْيٍ زكِــيٍّ

وَأوْدَعَكــمْ كــلَّ رَأْيٍ أصيـــلِ

وممــا قالـــه ابـــن درّاج في وصـــف المقاتليـــن:

وقَــدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهــمْ أسِنــة

تُخَيــلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نيــرَانُ

أسُــودُ هَيَــاجٍ مَا تــزَالُ ترَاهُــمُ

تطِيــرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَــانُ

وَأقمَــارُ حَرْبٍ طالِعَــاتٌ كأنمَــا

عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَــانُ

وَكــلٌّ زَنَــاتِيٌّ كــأنَّ حُسَامَــهُ

وَهَامَــة مَنْ لاقــاهُ نارٌ وقرْبَــانُ

وَأبْيـــضَ صِنهَـــاجٍ كـــأنَّ سِنانَـــهُ

شِهَابٌ إذا أهْوَى لِقرْنٍ وَشَيْطَـــانُ

وقـــال أيضـــا في وصـــف لحظـــة وداع لأسرتـــه:

ولَما تدَانــتْ لِلـــوَدَاعِ وَقَـــدْ هَفَـــا

بِصَبْـــرِيَ مِنهَـــا أنـــة وَزَفِيـــرُ

تُناشِدُنِي عَهْـــدَ المَـــوَدَّةِ وَالهَـــوَى

وَفِي المَهْدِ مَبْغُـــومُ النداءِ صَغِيـــرُ

عَـــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ ولَفْظِـــهِ

بِمَوقِـــعِ أهْـــوَاءِ النفـــوسِ خَبِيـــرُ

تَبَـــوَأ مَمْنوعَ القلـــوبِ وَمُهِـــدَتْ

لَـــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفـــة وَنحُـــــورُ

فَكُـــلٌّ مُفَـــدَّاةِ الترائِـــبِ مُرْضِـــعٌ

وَكُـــلٌّ مُحَيَّـــاةِ المَحَاسِـــنِ ظِيـــرُ

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَـــادَنِي

رَوَاحٌ بِتَـــدْآبِ السُّـــرَى وَبُكـــورُ

وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَـــا

جَوَانِحُ مِنْ ذُعْـــرِ الفـــرَاقِ تَطِيـــرُ

لئِـــنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيــوراً فإنــنِي

عَلى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَــا لغَيُــورُ

ولَــوْ شَهِدَتنِي وَالهَوَاجرُ تَلتــظِي

عَلَيَّ ورَقــرَاقُ السَّــرَابِ يَمُــورُ

أسَلــطُ حَــرَّ الهَاجرَاتِ إذا سَطَــا

عَلى حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجِيــرُ

وَأسْتَنشِقُ النَّكبَــاءَ وَهْيَ بَــوَارِحٌ

وَأسْتَوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تفُــورُ

وَلِلمَوْتِ فِي عَيْــنِ الجَبَانِ تَلَــوُّنٌ

وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيــرُ

وقــال في وصــف هــول البحــر:

إلَيكَ شَحَنَــا الفلــكَ تَهــوِي كأنهَــا

وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشّمْسِ غِرْبَانُ

عَلَى لُجَــجٍ خضْرٍ إذا هَبــتْ الصَّبَــا

تــرَامَى بنــا فِيهــا ثبيــرُ وَثهــلاَنُ

مَوَاثِــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهــا مَوَاثِــلاً

كمَا عُبــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّــةِ أوْثــانُ

فِي طَيٍّ أسْمَــالِ الغرِيــبِ غرَائــبٌ

سَكنَّ شِغافَ القلــبِ شِيــبٌ وَوِلــدَانُ

يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَــاءِ حَــرَّ مَصَائِــبٍ

تزِيــدُ ظلاَمــاً ليلهَــا وَهْيَ نِيــرَانُ

إذَا غِيــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنــهُ

بدَمــعِ عيُــونٍ تمْترِيهــنَّ أشْجَــانُ

وَإنْ سَكنــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَــرَى بنــا

زَفِيــرٌ إلَى ذِكــرِ الأحِبَّــةِ حَنــانُ

يَقلــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَــمُّ وَالــدُّجَى

تَمــوجُ بنــا فِيهَــا عُيــونٌ وَآذَانُ

ألاَ هَــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَــادٌ وَهلْ لنــا

سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ

وَهَبْنــا رَأيْنا مَعْلــمَ الأرْضِ هَل لنــا

منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ـ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]
فأما الكاتب أبو حفص بن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: **((وما أنكَرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التَّأنِّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نَظَرِ الاجتماع، وتَرَقب الالتئام؛ لتَرتفِعَ الشُبْهة ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنَا فيَ هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخَاوُنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقَن من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيّ، ولَبَبٍ رَخِيّ، وعملٍ واسع، ومال**

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافـــر، وجنـــدٍ مُطيـــع، وحصـــن منيـــع؛ وفي دونِ ذلـــك مـــا أقنَـــعَ مـــن عـــرفَ الدنيـــا بحقيقتهـــا، وأجْـــزَأَ مـــن أنْزلَهـــا مَنْزلتَهـــا؛ ومـــا كـــفَى مـــن لا يعـــدِلُ بالسَّلامـــةِ ولا يَبيـــعُ بالغَبْـــن، ولا يركـــبُ الأهـــوال، ولا يقتحِـــمُ المهالـــك، مغـــرِّراً بدمـــه، مُخاطِـــراً بنفسِـــه، لحُطـــامٍ تافِـــهٍ، وظِـــلٍ زائـــلٍ، ومتـــاعٍ قليـــلٍ؛ وإنـــا لنرجـــو منـــه تعـــالى أنـــه لـــم يُيَسِّـــرَ مـــا يَسَّـــرَ مـــن آمالنـــا إلا عنـــد اطّلاعِـــه عـــلى نيَّتِـــنـــا فيهـــا؛ فنحـــن بعَيْـــنِ اللـــه، ونواصينـــا بيـــدِه، والمُلْـــكُ والأمْـــرُ لـــه)).[1]

---

[1] النخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ـ 118.

ومـن شعـر أبي حفـص بـن بـرد الأكبـر هـذه الأبيـات الـتي خاطـب بهـا أبـا العـلاء صاعـد بـن الحسـن اللغـوي:

أبَـا العَـلاءِ استَمعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقَـة
أهْدَى لـكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْـرَ مَقْطُـوبِ

نـاءٍ بِغرْبَتِـهِ والفَهـمُ نِسبَتـهُ
وكـمْ دَنِـيٌّ قـصِيٌّ فِي المَناسِيـبِ

وَصَـارَ فِـي غُرْبَـةِ الآدَابِ مُغْتَرِبـاً
أمَا كَـفَى الدَّهْـرُ عَـضٌّ دُونَ تغْرِيـبِ

أوْلاكَ مَحْمَـدَةً مِـنْ بَعْـدِ تَجْرِبَـةٍ
لا يَصْلُـحُ الحَمْـدُ إلا بَعْـدَ تَجْرِيـبِ

أنـتَ الـذِي لمْ يُعَاشِـرْ مِثلـهُ رَجُـلاً
فِي العِلـمِ وَالظـرفِ والآدابِ والطيـبِ

تَحْصِيـلُ فَضْلِـكَ لِلحُسَّـادِ مَعْجَـزَةٍ
وكُنْـهُ عِلمِـكَ شَيْءٌ غَيْـرُ مَحْسُـوبِ

أمَّـا اللُّغَـاتُ فلاَ يَعْقـوبُ يَبْلُـغُ مَـا
وَعِيـتَ مِنهَـا وَلاَ أشْيَـاخُ يَعْقُـوبِ

إلى أن يقـول:

ــ ثــم أبــو عامــر أحمــد بن عبــد الملــك بن شهيــد:[1]

وينتســب هــذا الأديــب الفــذ والشاعــر العمــلاق إلى قبيلــة

حَيَّــا تَحيَّــةَ ذِي أُنــسٍ بنا وَجِــلاً

قِناعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُــوبِ

فَقلتُ: أَهْلاً ورَحْبــاً، مَنْ هَدَاكِ لنــا

لَيــلاً؟ فــرَدَّ بتأهِيــلٍ وتَرْحِيـــبِ

قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالــةُ فِي

ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيــبِ

وَقَالَ: اتئدْ! قُلتُ: قَدْ أَبْصَرْتُها قِبَــلاً

فَقالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِــلُّ مَطْلُــوبِي

قالَ: تَحَــرَّ فلاَ تشطِطْ بنَــا سَرَفــاً

فَقلْتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي

ثمَّ اعْلَــمِي أنني فِي حُبِّكُــمْ دَنِــفٌ

قَالَتْ: علِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لمَحْبُــوبِ

قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى

وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لمَكــرُوبِ

ثمَّتَ وَلتْ فَأَبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمــاً

يَذْكــو بدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُــوبِ

فَالآنَ فَازْجُرْ أَو اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بهِ

كَسَجْعِ شِــقٍّ أَو الأفعَى أَو الذِّيــبِ

هَــذِي عِبَارَتِهَــا فالأمْــرُ مُشْتَــرِكٌ

تلــقَى أفانِينــهُ طــراً بتَهْذِيــبِ

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((كــان أبــو عامــر يبلــغ المعــنى ولا يطيــل سَفَــرَ الكــلام؛ وإذا تأملتــه ولسَنَــه، وكيــف يَجُــرُّ في البلاغــة رسنــه؛ قلــت عبــد الحميــد في أوانــه، والجاحــظ في زمانــه. والعجــب منــه أنــه كــان يدعــو قريحتــه إلى مــا شــاء مــن نثــره ونظمــه في بديهتــه ورويَّتِــه؛ فيقــود الكــلام كمــا يريــد مــن غيــر اقتنــاء للكتــب، ولا اعتنــاء بالطلــب، ولا رســوخ في الأدب؛ فإنــه لــم يوجــد لــه رحمــه اللــه ــ فيمــا بلغــني ــ بعــد موتــه؛ كتــاب يستعيــن بــه عــلى

أشجع الغطفانية العربية. هذا ويعتبر النقاد القدماء أحمد بن شهَيْد في صف أهم الأدباء الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الأندلس في وقته؛ إذ كان يتميز بسهولة عجيبة في التعبير؛ سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. فهو بذلك شاعر وناثر في الوقت ذاته.[1] ومن أشهر أعماله الأدبية رسالة "التوابع والزوابع"؛ التي حلق بخياله فيها؛ حيث تخيل أنه قام برحلة إلى أرض الجن؛ بمساعدة جني من قبيلة أشجع الجن. التي تتطابق مع قبيلته أشجع ذات الأصول الأنسية. وأشار في تلك الرحلة إلى ما شاهده، وتكلم عن الذين لقيهم من الجن؛ أتباع الشعراء الفحول وشياطينهم؛ حيث وتحاور معهم وقرأ عليهم شعره

صناعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدْر له؛ فزاد ذلك من عجائبه، وإعجاز بدائعه)). نفسه، ص: 192.

[1] قال الحميدي في ترجمة ابن شهيد: ((من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك يسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه؛ وله كتاب "حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل؛ وشعره كثير مشهور؛ وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم] مفتخرا به؛ فقال: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ وله من التصرف وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مُركَّب من لساني: عمرو [بن بحر الجاحظ] وسهل [بن هارون]... قال لنا أبو محمد علي بن احمد [بن حزم] توفي أبو عامر ابن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ست وعشرين أربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة؛ لم يخلف لنفسه نظير في هذين الهلمين جملة؛ ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ــ 136.

فأجازوه. وهذه الرسالة ـ كما هو ظاهر ـ سبق بها غيره من المبدعين العرب وغير العرب؛ إذ كتبها قبل أن يكتب: أبو العلاء المعري العربي رسالة الغفران، وقبل أن يكتب آلياري دانتي الإيطالي قصته الكوميديا الإلهية، أو جون ميلتون الأنجليزي الفردوس المفقود.

هذا وقد عاش أبو عامر أحمد بن شهيد في أدق فترة عرفتها بلاد الأندلس؛ كما أنه انغمس في الصراعات التي دارت ـ آنئذ ـ بين الطوائف المختلفة ـ أيام الفتنة الكبرى التي اجتاحت تلك الديار ـ وقضت على مؤسسات الخلافة الأموية نهائيا. وقد كان في عداد الأدباء الذين عايشوا الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الحمودية سواء كان ذلك في قرطبة؛ أو في مالقة؛ تلك المدينة التي هاجر إليها ابن شهيد مع بعض أعيان قرطبة ـ لبعض الوقت ـ بعد أن ازداد الوضع تعفنا في قرطبة؛ بسبب ما أبداه بقايا الخلفاء الأمويون من سلوك سيئ. وعليه فقد ذهب أولئك الأعيان ـ وفيهم ابن شهيد ـ إلى مالقة مستنجدين بيحيى بن حمود؛ طالبين منه العودة إلى قرطبة.[1]

---

[1] لكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 134 ـ 136. ودولة الإسلام في الأندلس، ق: 2، ص ص: 666 ـ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد – حسبما تشير إليه بعض النصوص – من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض – أحيانا – إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شهَيد أيَّام العلويين عقَارِب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفٌ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجيدُ
يَجُودُ وَيَشْكُو حُزنَهُ فيُجيدُ
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الإمَامِ فَيا لَهُ
عَدُوٌّ لأبْنَاءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقَّة
ثنته سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيرُهُ
وَطُوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جِيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعْر أثبَتَهُ الهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمِينَ فَرِيدُ
أفُوهُ بمَا لَمْ آتِه مُتعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تَارَةً فأزِيدُ
فَإنْ طَالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنهَا
عَظَائمُ لمْ يَصْبِرْ لهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كنتُ فِي العُشَّاق أوَّلَ عَاقِلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعْيُنٌ وَخُدُودُ

فراقٌ وَشَجْوٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذِلةٌ
وَجَبَّارُ حُفَّاظٍ عَلَيَّ عَتِيدُ
فَمَنْ يُبْلِغُ الفِتيَانَ أَنِّيَ بَعْدَهُمْ
مُقِيمٌ بِدَارِ الظَّالِمِينَ وَحِيدُ
مُقِيمٌ بِدَارٍ سَاكِنوهَا مِنَ الأَذَى
قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الحِمَامِ قعودُ
وَيسْمَعُ لِلْجنَانِ فِي جَنَباتِهَا
بَسِيطٌ كترْجيعِ الصَّدَى وَنَشِيدُ
ولَسْتُ بِذِي قَيْدٍ يَرِنُّ، وَإِنمَا
عَلَى اللحْظِ مِنْ سُخطِ الإِمَامِ قيُودُ
وَقلتُ لِصَدَّاحِ الحَمَامِ وَقدْ بَكَى
عَلَى القصْرِ إلفاً وَالدُّموعُ تَجُودُ
ألاَ أَيُّهَا البَاكِي عَلَى مَنْ تُحِبهُ
كِلاَنَا مُعَنًّى بِالخلاَءِ فرِيدُ
وَهَلْ أنتَ دَانٍ مِنْ مُحِبٍّ نَأى بهِ
عَنِ الإِلفِ سُلطانٌ عَليهِ شدِيدُ
فَصَفقَ مِنْ رِيشِ الجَنَاحَينِ وَاقِعاً
عَلَى القرْبِ حَتَّى مَا عَلَيهِ مَزِيدُ
وَمَا زَالَ يُبْكِينِي وَأَبْكِيهِ جَاهِداً
وَلِلشَّوق مِنْ دُونِ الضُّلوعِ وَقودُ
إِلى أَنْ بكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْونَا
وَأَجْهَشَ بَابٌ جَانِبَاهُ حَدِيدُ
أطَاعتْ أمِيرَ المُؤمِنِينَ كتائبٌ
تصَرَّفُ فِي الأمْوَالِ كيْفَ ترِيدُ
فلِلشَّمْسِ عَنهَا بِالنَّهارِ تأخرٌ
وَلِلبَدْرِ شِحنَاً بِالظلاَمِ صُدُود
ألاَ إنهَا الأيامُ تلعَبُ بِالفتَى
نُحوسٌ تهَادَى تارَة وَسُعودُ

مع ذلك فقد اختار اللجوء إلى مالقة، وفضل رعاية يحيى بن علي بن حمود؛ عندما ضاق به الحال في قرطبة؛ بسبب ما وصل إليه الوضع في تلك المدينة من فساد وتعفن بعد خروج بني حمود منها. لذا فقد قال هذه القصيدة لما أزمع الخروج إلى مالقة:

أرَى أعيُناً ترنو إلَيَّ كأنمَا
تسَاوِرُ مِنها جَانبَيَّ أرَاقِمُ

أدُورُ فلاَ أعتَامُ غيْرَ مُحَارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امْرُءاً لِي مُسَالِمُ

وَيَجْلبُ لِي فَهمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ

وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلبٍ وَذِي حِجىً
فتىً عَرَبيٌّ تزْدَرِيهِ أعَاجِمُ

وَمَا كنتُ ذا أيدٍ فَأذعن ذا قوًى
مِنَ الدَّهرِ مُبدٍ صرْفهُ وَمُعِيدُ

وَرَاضَتْ صِعَابِي سَطوَةٌ علوِية
لهَا بَارِقٌ نحْوَ الندَى وَرُعودُ

تقولُ التِي مِنْ بَيْتِهَا كفَّ مَركَبِي
أقرْبُكَ دَانٍ أمْ مَدَاكَ بَعِيدُ

فقلتُ لَهَا أمْرِي إلى مَنْ سَمَتْ بِهِ
إلَى المَجدِ آباءٌ لهُ وَجُدُودُ

غَنَيْتمُ علَى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الورَى

لقدْ سَفِهَــتْ تِلكَ الحُلــومُ الزَّوَاعِــمُ

وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْر فِي الضُّحَى

إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ

سَـــلاَمٌ عَليكــمْ لاَ تَحِيَّــةَ شَاكِــرِ

ولَكِنْ شَــجىً تنْسَــدُّ مِنهُ الحَلاَقــمُ

وَمَا قرِعَتْ سِــنِّي عَليْكــمْ ندَامَــةً

وَأوشكْ غــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نـــادِمُ

عَلَيكمْ بِــدَارِي فاهْدِمُوهَــا دَعَائِمــا

ففِي الأرْضِ بَنـــاءُونَ لِي ودَعَائِــمُ

لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَــرَّ عُصْبَــةٍ

ففِي الأرْضِ إخْــوَانٌ عَلَيَّ أكَــارِمُ

وَإنْ هَضَمَتْ حَــقِّي أمَيَّــةُ عِندَهَــا

فَهَاتَــا عَلى ظَهرِ المَحَبَــةِ هَاشِــمُ

وَلاَ غــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَالِيــا

إذا عَرَفتْ حَــقِّي هُنَــاكَ العَمَائِــمُ

وقــال في وصــف نحلــة:

وَطائِــرَةٍ تهــوِي كــأنَّ جَناحَهَــا

ضَميــرٌ خــفِيٌّ لاَ يُحَــدِّدُهُ وَهــمُ

مُلاَزِمَــةٍ لِلــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَــا

لَهَا كلُّ مَا تفترُّ عَنهُ الرُّبَى طَعْــمُ

تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَــفِي

لِمُشْتَــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَــا سَهــمُ

مُنافِــرَةٍ لِلإِنْــسِ تأنَــسُ بِالفَــلاَ

مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَــا السُّــمُّ

فإدناؤُها رُشْــدٌ وَهَتْــكُ حِجَابِهَــا

إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلْــمُ

وقــال في وصــف برغــوث:

وَمُنفــرٍ للنــــوْمِ مَسْكنـــــهُ إذَا

نــامَ المُمَلــكُ بَيْنَ أثنــاءِ الثيَــابْ

يَسْرِي إِلَى الأَجْسَامِ يهْتِــكُ عَــدْوُهُ

عَنْ كلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ

وَيَعُــضُّ أرْدَافَ الحِسَــانِ وَمَالَــهُ

كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِــرَابْ

مُتَحَكـــمٌ فِي كـــلِّ جِسْـــمٍ ناعِـــمٍ

مُتدَلـــلٌ مَا بَيْـــنَ أَلْحَـــاظِ الكِعَـــابْ

فـــإِذَا هَمَمْـــتَ بزَجْـــرِهِ وَلَّى وَلاَ

يُثنِيـــهِ عَمَّـــا قـــدْ تَعَـــوَّدَهُ طِـــلاَبْ

وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّـــهِ مَخضُوبَـــةً

بدَمِ القلـــُوبِ وَمَا تَعاوَرَهُ خِضَـــابْ

قـــرْمٌ مِنَ اللَيْـــلِ البَهيـــمِ مُكـــوَّرٌ

يَمْـــشِي البَـــرَازَ وَمَا توَارِيهِ ثِيَـــابْ

عَظمَـــتْ رَزِيَّتـــــهُ ولَكِـــنْ قـــدْرُهُ

أَخزَى وَأهوَن مِنْ ذبَابٍ فِي تـــرَابْ

ومـــن روائـــع مـــا كتبـــه نثـــرا في وصـــف برغـــوث قولـــه: ((**أســـودُ زنـــجيٌّ، وأهـــليٌّ وحـــشيٌّ، ليـــس بـــوانٍ ولا زُمَّيْـــل، كأنـــه جـــزء لا يتجـــزأ مـــن لَيـــل، وشُونيزَة،**[1] **وثَبْتُهَـــا غريـــزة، أو نقطـــة مـــداد، أو سويـــداء قلـــب فـــؤاد، شربـــه عـــبٌّ، ومَشْيـــهُ وَثـــبٌ، يَكمُـــنُ نهـــاره، ويَسْـــري ليلـــه، يـــدرك بطعـــن مؤلـــم، ويستحـــلُّ دم كـــل مسلـــم، مســـاور للأســـاورَة، يجـــرُّ ذيلـــه عـــلى الجبابـــرة يتكفـــر بأرفـــع الثيـــاب، ويَهْتِـــكُ سِتـــرَ كـــل حجـــاب، ولا يَحْفِـــلُ ببـــوَّاب، يـــرد مناهـــل العيـــش العَذبَـــة، ويصـــل إلى**

---

[1] الشُّونيـــزَة هي الحبـــة الســـوداء، وتسميهـــا العامـــة في الجزائـــر سَيْنُوجَـــة.

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلَّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامِ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفاً؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلاّ بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصِيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إلَيَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنِّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ ولَثْغَة فِي المَنطِق

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبانِ جرَّا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشق
مَنْ لِي بألثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثهُ
يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق
ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانهُ
فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كان العلم، أو بكفك كان الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِهَا

وَلوَانَّهَا كتِبتْ لهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكَاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ

مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة

تملأ شحماً ولَحماً وَما

يليقُ تملؤهُ بِالكِتابة

لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ

وَلَكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة

جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لينٍ

فأحدَثَ فِي العلو مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610 -611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

من الجوهر][1] **لأقطعنَّ حبالك هاجراً، ولأتركن ليلك ساهراً)).**[2]

ومن النصوص التي يعارض فيها ابن شهيد بعض الكتاب المحافظين، المتشبثين بالأساليب القديمة للبيان قوله: **((وإصابةُ البيان لا يقومُ بها حفظُ كثير من الغريب، واستيفاءُ مسائلِ النحو؛ وإنما يقوم بها الطبع مع وَزْنِه من هذين: النحو والغريب. ومقدارُ طبعِ الإنسان إنما يكونُ على مقدار تركيب نفسه مع جسمه؛ فمن كانت نفسه في أصلِ تركيبه مستوليةً على جسمه؛ كان مطبوعاً روحانياً؛ يطلع صُورَ الكلام والمعاني في أجملِ هيئاتها، وأروَق لبساتها؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه ـ من أصل تركيبه ـ والغالبَ على حسّه؛ كان ما يطلعُ من تلك الصور ناقصاً عن الدَّرجة الأولى في الكمال والتمام، وحُسْنِ الرَّونق والنظام. فمن كانت نفسُه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صُورٌ رائقة من الكلام؛ تملأ القلوب، وتشعف النفوس. فإذ فتشت لحسنها أصلا لم تجده، ولجمال تركيبها أسا لم تعرفه؛ وهذا هو الغريب؛ أن يتركب الحسن من غير حسن؛ كقول امرئ القيس:**

---

[1] أي أن الذهب والفضة لا يصلحان للسهام؛ ولن يزيد الحز من قيمتهما لكي يصيرا سهاما؛ كما لا يضيء السليط في قناديل من أنابيب الجوهر؛ بينما يضيء في قناديل بسيطة.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَــا مِنْ أذرُعَــاتٍ وَأهــلهَــا

بيَثــربَ أدنَى دَارِهَــا نظــرٌ عــَالِي

فــإن هــذه الديباجــة إذا تطلبــت لهــا أصــلاً مــن غريــب معــنىً لــم تجــده. وكقــول أبي نــواس:

طرَحتــمْ مِــنَ الترْحَــالِ ذِكــراً، فَغَمنــا،

فَلوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبَّحَ المَوْتُ بَعْضَنَــا

ثــم قولــه:

سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْــيَى بْنِ خَالــدٍ

هَــوَاكِ، لَعلَّ الفضْــلَ يَجْمَــعُ بَيننــا

فهــذا مــن الكــلام الغــثِّ، واللفــظِ الــرَّثِّ؛ الــَّذي لــو رامــه حِمــار الكسُــاح لأدركــه؛ ولكــن لــه مــن التعلــق بالنفــسِ، والاستيــلاء عــلى القلــب مــا تــرى)).[1]

ولمزيــد مــن الفائــدة نثبــت هنــا هــذه المقاطــع مــن رسائــل أدبيــة، نقديــة رائعــة كتبهــا ابــن شهيــد؛ جــاء فيهــا: **((وكمــا أن لكــل مَقــامٍ مَقــالاً؛ فكذلــك لكــل عصــر بيــان، ولكــلِّ دَهــرٍ كــلام، ولكــلّ طائفــةٍ مــن الأمــم المتعاقبــة نــوعٌ مــنَ الخطابــة، وضــربٌ مــن البلاغــة؛ لا يوافقُهــا غيــرُه ولا تَهــشَّ لســواه. وكمــا أن للدنيــا دولاً؛ فكذلــك للكــلام نقــلٌ وتَغَايــرٌ في العــادة. ألا تــرى أنَّ**

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ــ 232.

الزَّمـــان لمـــا دار كيـــف أحـــال بعـــضَ الرَّســـمِ الأولِ في هـــذا الفـــنِّ إلى طريقـــة عبـــد الحميـــد وابـــن المقفـــع وسهـــل بـــن هـــارون وغيرهـــم مـــن أهـــل البيـــان؟ فالصنعـــة معهـــم أفسَـــحُ باعـــاً، وأشَـــدُّ ذراعـــاً، وأنـــوَرُ شُعاعـــاً؛ لرُجْحـــان تلـــك العقـــول، واتســـاع تلـــك القرائـــح في العلـــوم. ثـــم دار الزمـــانُ دَوَرَانـــاً؛ فكانـــت إحالـــةٌ أخـــرى إلى طريقـــة إبراهيـــم بـــن العبـــاس ومحمـــد بـــن الزَّيـــَّات وابـــني وهـــبٍ ونظرائهـــم؛ فرقـــت الطِّبـــاعُ، وخـــف ثقـــلُ النفـــوس. ثـــم دار الزمـــانُ فاعتـــرى أهلـــه بالطائـــف صلَـــفٌ، وبرِقـــةِ الكـــلامِ كلـــفٌ؛ فكانـــت إحالـــة أخـــرى إلى طريقـــة البديـــع وشمـــس المعـــالي وأصحابهمـــا. وكذلـــك الشعـــراءُ انتقلـــوا عـــن العـــادة في الصنعـــةِ بانتقـــال الزمـــانِ؛ وطلـــبَ كـــلُّ ذي عصـــرٍ مـــا يجـــوز فيـــه، وتهـــشُّ لـــه قلـــوبُ أهلـــهِ؛ فكـــان مـــن صريـــعِ الغـــواني وبَشـــارٍ وأبي نـــواسٍ وأصحابهـــم في البديـــع مـــا كـــان؛ مـــن استعمـــال أفانينـــهِ والزيـــادة في تفريـــع فنونـــهِ.

ثـم جـاء أبـو تمـامٍ فأسـرف في التجنيـس، وخـرج عـن العـادة؛ وطـابَ ذلـك منـه، وامتثلـه النـاس؛ فكـل شِعـرٍ لا يكـونُ اليـوم تجنيسـاً أو مـا يُشبهـه تَمُجـه الآذان؛ والتوسُّـطُ في الأمـرِ أعـدلُ؛ لأنـه لَبـسَ ديباجـة المُحدثيـن عـلى لأمـةِ العـرب؛ فتركَـبَ لـه مـن الحُسْـنِ بينهمـا مـا تَركـب)).[1]

((وأهـل صناعـة الكـلام مُتباينـون في المنزلـة، متفاضِلـون في شَـرَفِ المرتَبـة، عـلى مقـدارِ إحسانهـم وتصرُّفِهـم. فمنهـم الـذي ينظـم الأوصـاف، ويختـرعُ المعـاني، ويحـرز جيـد اللفـظِ؛ إلاَّ أنـه يَصْعـبُ عليـه الكـلام، ويكـدُّ قريحتـه التأليـف؛ حـتى إنـه رُبَّمَـا قَصَّـر في الوصـف، وأسـاءَ الوضـع. فهـذا في الأبيـاتِ القليلـة نافـر، وفي القريبـةِ المأخـذِ سائـر، وفي طريقـة الجمهـور الأعظـم ذاهـب؛ حـتى إذا ازدحمـت عليـه، وانحشَـدَتْ إليـه، وطالبتـه ببهـاءِ البهجـة، وشـرف المنزلـة، وقـف وأنفـلّ، وتـلاشى واضمحـل. ومنهـم الكـارعُ في بحـر الغـزارة، القـارحُ بشُعـاعِ البراعـة؛ الـذي يَمُـرُّ مَـرَّ السَّيـلِ في اندفاعـه، والشؤبُـوبِ في انصبابـه؛ لا يشكـو الفشَـلَ، ولا يَكِـلُّ عـلى طـولِ العمـل؛ إذا ازدحَمَـتْ في الكـلامِ عليـه المطالـب، وعَلِقـتْ بحـواشي فكـره المـآرب، وحُشـرت عليـه الصعائـب والغرائـب؛ استقـلَّ بهـا كاهلـه، واضطلـع بثقلهـا غاربـهُ، وأعارَهـا مـن نظـرِه لَمْحـة، ومـن فِكْـره

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ـ 238.

قدْحَـــة، ثـــمِ رمى بهـــا عـــن جانبيـــهِ؛ قـــد رَوِيَـــتْ بمائهـــا، ولبســـت شُعـــاع بهائهـــا؛ وبـــقي كاللقـــوَةِ في المَرْقـــب؛ ســـامٍ نظـــرُه، قـــد ضـــمَّ جناحَيْـــه، ووقـــفَ عـــلى مخلبـــه، لا تتـــاحُ لـــه جارحـــة إلا اقتصَّهـــا، ولا تنَازلـــه طائـــرة إلاَّ اختَطفهـــا؛ جُرْأتـــه كشَفرتـــه، وبديهتـــه كفكرتـــه؛ فذلـــك الألســـن يـــومَ حـــربِ الكـــلام، لا تُخـــطئُ ضربتـــُه، ولا تُصـــابُ غرَّتـــه. ومنهـــم مـــن يتجـــافَى الكـــلام، ويـــرغ عـــن المقـــال؛ فـــإذا مُـــني بـــه، أخـــذ بأطـــرافِ المحاســـنِ، وشـــارَك في أنحـــاءٍ مـــن الصنعـــة؛ وجُـــلّ مـــا عنـــده تلفيـــقٌ وحيلـــة؛ وبذلـــك يُصاحِـــبُ الأيـــَّام، ويُجـــاري أبنـــاء الزَّمـــان؛ مـــا كـــان لـــه عقـــل يغـــطي عـــلى نقصانِـــه، سياســـةً يَسُـــوسُ بهـــا فُحـــولَ زمانِـــه. ومـــن خـــرج عـــن هـــذه الطبقـــات الثـــلاث لـــم يستحـــق اســـم البيـــان، ولا يدخـــلُ في أهـــلِ صناعـــة الكـــلام)).[1]

((وقـــومٌ مـــن المعلميـــن بقُرْطُبتِنـــَا ممـــن أتى عـــلى أجـــزاءٍ مـــن النحـــو، وحفِـــظَ كلمـــاتٍ مـــن اللغـــة، يحنـــونَ عـــلى أكبـــادٍ غليظـــة؛ وقلـــوبٍ كقلـــوب البُعـــران؛ ويَرجعـــونِ إلى فِطـــنٍ حَمِئـــةٍ، وأذهـــانٍ صَدِئـــَةٍ؛ لا مَنفـــذَ لهـــا في شُعـــاعِ الرِّقـــَّةِ، ولا مَـــدَبَّ لهـــا في أنـــوارِ البيـــان. سَقَطـــَتْ إليهـــم كتـــبٌ في البديـــعِ والنقـــدِ فَهِمُـــوا منهـــا مـــا يفهمـــه القـــرد اليمـــاني مـــن الرَّقـــص عـــلى الإيقـــاع، والزَّمْـــر عـــلى الألحـــان؛ فهـــم يُصرِّفـــون غَرَائبَهـــا فيمـــا يَجـــري عندهـــم تصريـــفَ مـــن لـــم يـــرْزَقْ آلَـــة الفهـــم،

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ـ 239.

ومــن لــم تكــن لــه آلــة الصناعــة، ممــا هي مَخْصوصَــة بهــا، لا تقــومُ تلــك الصناعــة إلا بتلــك الآلــة؛ فهــو كالحمــار لا يمكنــه أن يتعلــم صناعــة ضــربِ العــود والطنبــور؛ لتوتــدِ رُسغــه، واستــدارة حافــره؛ ولا لــه بنــانٌ يَجـسُّ بــه عــلَى دَسْتبــان... فهــذه حــالُ العصابــةِ مــن المعلِّميــن: يدركــون بالطبيعــةِ، ويقصــرون بالآلــةِ. وتقصيرهــم بالآلــة هــو مــن طريــق العِلــلِ الدَّاخِلــةِ مــن فســاد الآلــةِ القابلــةِ للروحانيــة، والخادمــةِ لآلاتِ الفهــم، الباعثــة لرقيــق الــدَّم في الشّرْيانــات إلى القَلــب؛ وزيــادةِ غِلــظِ أعصــاب الدّمــاغِ ونقصانِهــا عــن المقــدار الطبيــعي. يُعِيــنُ عــلى ذلــك بالحَـدْسِ وطريــق الفِراســة فســادُ الآلــةِ الظاهــرةِ؛ كفرطحــةِ الــرأس وتسفيطــه، ونتــوءِ القَمَحــدُْوَةِ، والتِــواءِ الشَّــدْقِ، وخــزَرِ العيــن، وغِلــظِ الأنــفِ، وانــزواءِ الأرنبَــة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بِوُفورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ـ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم ينْدر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه	وَأَصْبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ
وَأَبْصَرْتُ أَنْسِي بِهِ وَحْدَهُ	كَأُنْسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرِّضَاعْ"

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أَنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهُمُ	يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ
فَإِذا مَا لُحْتَ بَيْنَهُمُ	قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ـ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ـ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البضاعة. دخلَ الشعراء فَأَخذَ لباقَتَهم، وصار في جملة الكتاب فاستعار صلفهم ورشاقتهم، وباشرَ أهلَ الحساب فاستفاد طريقة البراهين، وناظر أهلَ الجَدَلِ فتعلم القوانين، وعَرَفَ عناصرَ الكلامِ؛ فكل علم يَزْعَمُه قبض يده، وكل جدٍّ وهَزلٍ فإليه منسوبٌ، وعنهُ مأخوذ؛ وهو مع ما اجتمع له من ذلك كُلِّهِ، وحُبي به، أشدهم صَبابَة [ضنانة] بألاَّ يكونَ بالأندلسِ مُحْسِنٌ سواه، ولا مجيدٌ حاشاه. وكانِ الرَّأيُ عِندِي له أن يَسْكنَ أرْضَ جليقية أو قُطراً بعد عن الإسلام؛ حتى لا يسمعَ فيه لخطيب ذِكراً، ولا يُحِسَّ لشاعرٍ ركزاً؛ فيكون هناك فرْداً. ومنَ العَجب أيضاً في أَمرهِ أنَّ كلَّ كاتب كتبَ للسلاطين عندنَا، وكلَّ شاعرٍ مدحهم، رُويَتْ أَشعارُه ورسائله غير أبي القاسمِ وحدَه. على أنه إنما جلسِ للتعليمِ على هذا المعنى. وربما عرَّضَ بأن يُؤخَذُ منه شيءٌ من أشعارهِ ورسائله ولا يجيبه تلميذ؛ والمحرومُ محرومٌ...

أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق، وجعله يخرى على فمه")). المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته [أي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ـ كان ـ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ـ كان ـ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ـ 438.

المنطق؛ الأمر الذي وضعه ـ آنئذ ـ موضع اتهام في دينه.[1]

وهذه بعض العينات من قصائد ابن الحناط بالإضافة إلى نصوص من نثره؛ حفظتها كتب التراث الأندلسي. بدءا بمقطع من رسالة بعث بها إلى الوزير أبي العباس ابن ذكوان قال فيها: **((الإسهاب كلفة، والإيجازُ حكمة، وخواطر الألباب سهام؛ يصابُ بها أغراضُ الكلام؛ وأخونا أبو عامر** [ابن شهيد] **يسهبُ نثراً، ويطوّل نظماً؛ شامخاً بأنفه، ثانياً من عطفه، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب، وأوتي فصل الخطاب. فهو يستقصرُ أساتيذَ الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء... في ليلةٍ بتها، والكفُّ الخضيبُ سوارُها البدر، والشعرى العبورُ وشاحها النسر،؛ وكأنما سماؤها روضة تفتحتِ النجوم وسطها زَهراً، وتفَجَّرَتِ المجرَّة خلالها نهراً؛ وادٍ يسيل بعسجد على رضراضِ زبرجد. فلما أصبت الغِرَّة، وأقصدت الثغرة؛ تقلبت عراراً، وتناومت غراراً؛ حتى أنبهني الفجر ببرده، وسَرْبَلني الصباح ببُرْده، وهببت من النومة، وصحوت من النشْوةِ، فَزففتها إليك بنتَ ليلتها عذراء، وجلوتها عليك كريمة فكرتها حسناء، تتلفع بحبرةِ حبر، وتتبختر في شعار شعر، مؤتلفٌ بين رَقِها ومدادها، ومجتمع في بياضها وسوادها...**

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 121.

وتخال القلمَ رقَّ لما به فبكى؛ فأنشدْها أخاكَ الشهيدي [أي ابن شهيد]، **وكلفه على العروض والقافية مُعارضَتَها، وحمِّله على اللينِ والشدة مُقارضتها، فستوقد بقلبه قبَساً، وتَضْرِبَ في أذنِهِ جَرَساً؛ فيَتَبيَّن به حَظّه، ويعرف لغيره فضله))**.[1]

ويبدو أنه كان بين ابن الحناط وابن شُهيد منافسة حثيثة وبريئة؛ لم تمنعهما من إظهار التقدير والاحترام لبعضهما بعضا؛ ويتجلى ذلك من خلال تصرفاتهما الواضحة، ومن خلال ما ينظمانه من مقاطع شعرية يتبادلان فيها المديح[2].

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ــ 440.

[2] وقد نقل الحميد بعض الأبيات التي تؤيد هذا؛ مثل: ((فأخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال: "لما نعيت أبا عامر بن شهيد إلى أبي عبد الله بن الحناط ــ وقد عرفت ما كان بينهما من المنافسة ــ بكى، وأنشدني لنفسه بديهة:

لَمَّا نعَى النَاعِي أبا عَامِرٍ
أيقنتُ أنِّي لسْتُ بِالصَّابِرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وَتِبْ النَدَى
وَسَيِّدُ الأوَّلِ وَالآخِرِ"

ولابن الحناط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر بن شهيد أولها:

أمَّا الفِرَاقُ فَلِي فِي يَوْمِهِ فَرَقُ
وَقَدْ أرِقْتُ لَهُ لوْ يَنفعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْنِي التِي انهَمَلتْ
أم الدُّمُوعُ مَعَ الأظعَانِ تسْتبِقُ
عَاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَوَى طرُقُ

ومما قاله ابن الحناط في قصيدة رفعها إلى الخليفة علي بن حمود:

رَاحَــتْ تذكــرُ بِالنسِيــمِ الرَّاحَــا

وَطفــاءُ تكسِــرُ لِلجنــوحِ جَناحَــا

أخــفَى مَسَالِكهَا الظــلاَمُ فأوقــدَتْ

مِــنْ بَرقِها كَيْ تَهتــدِي مِصْبَاحَــا

وَكأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابهــا

حَادٍ إذا وَنــتِ السَّحَائِــبُ صَاحَــا

جَادَتْ عَلى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الــرُّبَى

حُلــلاً أقــامَ لَهَا الرَّبيــعُ وِشاحَــا

لــوْلاَ النسِيــمُ الذِي تأتِي الرِّيــاحُ بِهِ

إذَا تضَــوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِــمَى الأفــقُ

لــمْ أدْرِ أنَّ بُيُــوتَ الحَيِّ نازِلــةٌ

نَجْــداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القــلقُ

مَــا فِي الهَــوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَــة

وَمَــا بقلــــبِي إلاّ الشــــوقُ وَالأرَقُ

ومــن أخــرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَــاءَ مِثــلِ البَــدْرِ مُطلِعــاً

هَيفــاءَ مِثل قضِيــبِ البَــانِ مُنعَطِفــا

إلــفٌ ألفــتُ الضَّنَــا مِنْ بَعْدِ فرقتِــهِ

حَــتَّى غــدَا بَــدَنِي مِنْ دِقــةٍ ألفــا)).

جــذوة المقتبــس، ص: 58.

فانظُرْ إلَى الرَّوْضِ الأريضِ وَقدْ غدَا

يَبكِي الغــوَادِي ضَاحِكــاً مُرتاحــا

وَالنـــوْرُ يَبسُـــطُ نحوَ دِيمتِهـــا يـــداً

أهـــدَى لها سَـــاقِي النـــدَى أقدَاحَـــا

وَتَخالـــهُ حَـــيّى الحَيا مِـــنْ عَرفِـــهِ

بذكِيِّـــــهِ فـــــإذَا سَقـــــاهُ فاحـــــا

رَوْضٌ يُحَـــاكِي الفاطِـــمِيِّ شمَائـــلاً

طِيبـــاً، وَمزْنٌ قـــدْ حكـــاهُ سَمَاحَـــا

أعَـــلِيُّ إنْ تعـــلُ المُلـــوكَ فإنهـــمْ

بهـــمٌ جُعلـــتَ أغرَّهـــا الوَضَّاحَـــا

لمـــا طلعـــتَ لَهـــا بِكـــلِّ ثنيـــةٍ

أنسَيْتهـــا المَنصُـــورَ وَالسَّفاحَـــــا

وفي قصيـــدة أخـــرى يقـــول في عـــلي بـــن حمـــود أيضـــا:

شـــقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَـــانُ

وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنـــانُ

سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيقِ وَضَارِجٍ

مَعـــارِفَ فِيهَـــا لِلأحبـــةِ عِرْفـــانُ

وَحَيا الحيَــا عَهداً عَهدناهُ باللــوَى

لــوَى دَيننا فِيــهِ صُدُودٌ وَهِجــرَانُ

إلى قولـــه:

وَلاَ مِثلَ هَذَا العَـدْلِ كيــفَ أعَــادَهُ

عَلِيٌّ وقَدْ مَــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمـــانُ

ويقــول فيــه أيضــا في قصيــدة أخــرى:

بَكيــتُ لَهَا شجْــواً وَهنَّ الحمائِــمُ

ينحــنَ بلاَ دَمــعٍ ودَمعــكَ سَاجــمُ

ولَما عَلونا الحزْنَ وَاعْتَسَفَــتْ بنـــا

رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَــلاَتُ الرَّوَاســمُ

ثــم يقــول:

سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِــمٍ

إذَا انهمَلَــتْ مِن رَاحَتيــهِ الغمَائِــمُ

إمَــامٌ أقَــامَ الدِّيــنَ حَـدُّ حُسَامِــهِ

طرِيــراً وَمِنــهُ فِي يَــدِ الله قائِــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نـــورٌ مِنَ الظبَـــا

لـــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيـــنَ كمَائِـــمُ

سُيُـــوفٌ إذَا اعتَلتْ جِهَاتُ ثغورِهَـــا

فمِنهُـــنَّ فِي أعْناقِهِـــــنَّ تمَائِـــــمُ

بِكلِّ خمِيـــسٍ طبَّـــقَ الجَـــوَّ نقعَـــهُ

وَضَيِّـــقَ مَسْـــرَاهُ الجيَادُ الصَّـــلاَدِمِ

كـــأنَّ مُثـــارَ النقـــعِ إثمِـــدُ عَيْنِـــهِ

وَأشفـــارَ جَفنيْـــهِ الشِّفارُ الصَّـــوَارِمُ

تعُـــدُّ عَليْهِ الطيْرُ وَالوَحْـــشُ قوتهَـــا

إذَا سَـــارَ وَالتفـــتْ عَليْـــهِ القشَاعِـــمُ

ويقـــول أيضـــا في غيرهـــا:

رِقتُ وقدْ غـــنَّى الحَمَامُ الهَوَاتـــفُ

بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَالليْـــلُ عاكـــفُ

أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطـــافَ بِي

عَلى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَــاتِ الــدَّارِ كلٌّ مُلثــةٍ

مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ

كأنَّ نثِيــرَ القطــرِ مِنهَــا جوَاهِــرٌ

تفرِّقهَــا لِلرِّيــحِ أيــدٍ عَوَاصِــفُ

كأنَّ ابْتِسَــامَ البَــرقِ فِيهَا إذَا بَــدَتْ

سُيُــوفُ عَــلِيٍّ بِالدِّمَــاءِ رَوَاعِــفُ

ولــه قصيــدة في القاســم بــن حمــود يشيــر فيهــا إلى مقتــل المرتــضى الأمــوي؛ بعــد أن خانــه حليفــه خيــران الصقلــبي؛ فاستهلهــا قائــلا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ[1]

وَأَصبْــَحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

إلى أن يقــول:

وَفُرِّقَ جَمْعُ الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الــوَرَى

عَلَى ابْنِ حَبِيــبِ اللهِ بَعْــدَ خَلِيلِــهِ

---

[1] في هــذا البيــت إشــارة إلى قصيــدة أحمــد بــن دراج القسطــلي؛ كــان قــد مــدح فيهــا خيــران بقولــه في المطلــع:

لــك الخيــر قــد أوفى بعهــدك خيــران   وبشــراك قــد وافــاك عــز وسلطــان

وَقَــامَ لِــوَاءُ النَّصْرِ فَــوقَ مُمَنَــعٍ

مِنَ العِــزِّ جِبْرِيــلٌ إِمَــامُ رَعِيلِــهِ

وَأَشْرَقَــتِ الدُّنيَــا بِنُــورِ خَلِيفَــةٍ

بِــهِ لاَحَ بَــدْرُ الحَــقِّ بَعْدَ أفولِــهِ

مِــنَ الهَاشِمِيِّيــنَ الذِيــنَ بِمَجْدِهِــمْ

تَعَــوَّدَ شَخْــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِــهِ

فلاَ تسَــلِ الأيَّــامَ عَمَّا أَتَــتْ بِــهِ

فمَا زَالَــتِ الأيــامُ تَــأتِي بِسُولِــهِ

ولَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَــهُ

وَأقبلَ حِــزْبُ اللــهِ فَــوْقَ خُيُولِــهِ

كَتائِــبُ مِــنْ صَنْهَاجَــةٍ وَزَنَاتَــةٍ

تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِــهِ

تَقَــدَّمَ خَيْــرَانٌ إلِيْهَــا بِزَعْمِــــهِ

لِيُــدْرِكَ مَا قَــدْ فَاتَــهُ مِنْ ذُحُولِــهِ

فَلمَّا التَــقَى الجَمْعَــانِ عَــاوَدَ رَأْيَهُ

فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُــلَّ فُضُولِــهِ

وَوَلَّى وَأَبْــقَى مُنْــذِراً مِنْ وَرَائِــهِ

يُقِيــمُ لأَهْلِ الغَــدْرِ عُــذْرَ نُكولِــهِ

ومممــا قالـــه في المعتــلي يحــيى بــن حمــود:

لمْ يَخــل مِنْ نوَبِ الزَّمَـــانِ أديـــبُ

كــلاَّ فشَـــأنُ النائبَـــاتِ يَنــوبُ

أمْسَى قـــرَاراً لِلخطـــوبِ وَأغتـــدِي

غرَضـــاً تفـــوَّقُ نَحْـــوَهُ فتصيـــبُ

وَإذَا انتهَيْـــتَ إلَى العُلـــومِ وَجَدتهَـــا

شَيْئـــاً يُعَـــدُّ بـــهِ عَليْـــكَ ذُنـــوبُ

وَغضَـــارَةُ الأيامِ تـــأبَى أنْ يُـــرَى

فِيهَـــا لأبْنـــاءِ الذَّكـــاءِ نصِيـــبُ

وَلذَاكَ مَنْ صَحِـــبَ الليَـــالِي طالِبـــاً

جَـــدَّا وَفهْمـــاً فاتـــهُ المطلـــوبُ

إلى قولـــه:

أمـــتْ أميـــرَ المُؤْمِنيـــنَ مَوَاحِـــلاً

فسَـــقى صدَاهَـــا غيْثـــهُ الشؤْبـــوبُ

المُعْتـــلِي باللـــهِ وَالمَلِـــكُ الـــذِي

تـــاجُ الفخـــارِ برَأسِـــهِ مَعْصُـــوبُ

إنْ كـــانَ عَـــدُّوا حُـــبَّ آلِ مُحَمـــدٍ

ذَنبـــاً فـــإنِّي لسْـــتُ مِنـــهُ أتـــوبُ

وممـــا قالـــه في محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود حينمـــا اختـــار الإقامـــة عنـــده في الجزيـــرة الخضـــراء:

تفرَّغتُ فِي شُغْلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعــنِ

وَصِــرْتُ إِلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْــنِ

أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْــعِ حُزنهــا

أفِيــقِي فإنِّي قدْ أفقــتُ مِنَ الحُــزْنِ

فلِلّــهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَــتِي

زَمَاعــاً وَلمْ أقرَعْ عَلَى ندَمٍ سِــنِّي

رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُــؤْذَرٍ وَغَضَنفــرٍ

يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتِنِ

وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ تربْةَ أرْضِكــمْ

وَلكِنني أشفقتُ فِيهَــا مِــنَ الدَّفــنِ

مَرَرْتُ بشــوسٍ وَالنُّجُــومُ كأنهَــا

توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهــنِي

وَأسْرَيــتُ مِنْ بَــدْرِ الظلاَمِ بِألبَــةٍ

بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظَّعْنِ

لبسْنا بِهَا ليْــلاً مِــنَ الثلــجِ أبْيَضاً

كسَتهُ يَــدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطــنِ

وَرُحْنا عَلَى ألبيرَةٍ فاستقلَّ بِي

جَنَاحُ عُقابٍ لاَ يَرُوحُ إلَى وَكْنِ

ولَمَا تنكبْنَا المُنكبَ لَمْ نَجِدْ

لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيلاً مِنَ السُّفْنِ

ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كلِّ لُجَّةٍ

تخيلهَا جَوًّا تَجَلَلَ بِالدَّجْنِ

ترَى السُّفْنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَا

تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعْنِ

فبوَّأتُ رَحْلِي ظِلَّ أرْوَعَ مَاجِدٍ

يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعطِي بلاَ مَنٍّ

إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابنِ عَمهِ

أبُوهُ، فتمَّ الفخرُ بَيْنَ أبٍ وَابنِ

ــ ثم أبو بكر عُبادة بن عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي المعروف بابن ماء السماء:[1] يضعه كثير من النقاد والأدباء الأندلسيين في صف فحول الشعراء بتلك الديار. وهو من أهل قرطبة؛

---

[1] وصف الحميدي ابن ماء السماء بقوله: ((من فحول شعراء الأندلس، متقدم فيهم مع علمه؛ وله كتاب "أخبار شعراء الأندلس". ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم]؛ وأنه كان حيا في صفر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

---

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرِنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ـ 469.

أطَاعَتــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ

وَحِــزْبُ اللـــهِ حِزْبــكَ يَــا عَــلِيٌّ

فكـــلٌّ مَـــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَــالِي

كَــذُوبٌ مِثــلَ مَا كَــذبَ الــدَّعِيٌّ

أَبَى لــَكَ أنْ تُهَاضَ عــلاَكَ عَهْــدٌ

هِشَـــامِيٌّ وَجَـــدٌّ هاشـــمِيٌّ

وَمَــا سُمِيــتَ بِاسْــمِ أبيــكَ إلاَّ

ليَحْيَـــا بِالسَّــمِيِّ لــهُ السَّــمِيُّ

فــإنْ قــالَ الفَخــورُ أَبِي فـــلاَنٌ

فَحَسْبُــكَ أنْ تقـــولَ أَبِي النــَبِيٌّ

ويقــول أيضـــا في قصيـــدة أخـــرى:

أَبَسْـــلٌ عَليكَ المَاءُ حَــتَّى يَشُوبَــهُ

دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجِــعُ

أجَــمَّ جيَـــاداً أدمَنَ الغـــزْوُ نهْكهَـــا

فَمِنهَـــا حَسِيـــرٌ فِي الجهَادِ وَظالـــعُ

وَأغمِـــدْ سُيُوفاً تشتكِيـــكَ جُفونُهـــا

كَمَا تشْتــكِي نُجْلَ العُيُونِ البَرَاقِــعُ

وَسكِّنْ عَجَاجَ الرَّكــضِ شَيْئاً فقلَّمَـــا

يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتــهُ وَهوَ ناصِـــعُ

وَآنِـــسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشهَا بـــهِ

فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِـــعُ

وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مكِيـــدَةٍ

وَأنتَ بَـــوَاقِي عِصْمَـــة اللـــهِ دَارِعُ؟

وَأيُّ يَــدٍ تنــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمَـــا

رَأيْنَـــا يَــدَ الجَبَــارِ عَنــكَ تقــارِعُ؟

وقـــال راثيـــا علـــي بـــن حمـــود، ومهنئـــا لأخيـــه القاســـم بتـــوليـــه العـــرش:

صَـــلى عَلَى المَـــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكـــهُ

وَسَقـــاهُ فِي ظِـــلِّ الجنانِ الكوثـــرُ

مَـــولًى دَهَتـــهُ عَبيـــدُهُ، وَغضَنَفـــرٌ

ترَكتهُ أيْـــدِي العُفْـــرِ وَهوَ مُعَفَـــرُ

كانـــتْ تهَيَّبُـــهُ الأسُـــودُ فغالـــــهُ

فِي قصْـــرِهِ مُسْتضْعَـــفٌ مُسْتَحْقَـــرُ

لمْ يُثْـــنِ عِـــزُّ المُلْكِ عَنـــهُ مَنونـــهُ

فَسَمَـــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْـــذَرُ

ختلتـــــهُ سِـــــراً وَالقبَائـــــلُ دُرَّعٌ

تَحْمِيـــهِ لكِـــنَّ المَنَايـــا جُسَّـــــرُ

وَلَـــوْ أنهَا رَامَتـــهُ جَهْراَ لاَنثنـــتْ

وَالبيـــضُ تقـــرَعُ وَالقنـــا يَتكســـرُ

ثـــم يكمـــل:

مَـــا غـــابَ بـــدْرُ التـــمَّ إلاَّ رَيثمَـــا

جَـــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهـــرُ

إنْ يَهْـــوِ مِنْ أفـــقِ الخِلاَفـــةِ نيـــرٌ

يَهْـــدِي السَّبيـــلَ فقـــدْ تـــلاَهُ نيِّـــرُ

بِالقاسِـــمِ المَأمُونُ أفـــرَخَ رَوْعنـــا

فالقسْـــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفـــرُ

ومـــن شعـــره في القاســـم بـــن حمـــود:

مَا ضَيَعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ

وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ

لِلـــهِ دَرُّكَ مِـــنْ مَـــولًى عَوَارِفُـــهُ

لمْ تبـــقِ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلوا كَوَاكِبَ مِـــنْ

آرَائِـــهِ فِي سَمَـــاءٍ مِـــنْ مَعَاليـــهِ

مُكفـــلاً برِضَـــاهُ هِمــــــة أنفـــــاً

تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأقْصَى فتُصميهِ

كَانـــتْ خِلاَفتُنـــا فِي الغرْبِ مَظلَمَة

كـــأنَّ أيَامَنـــــا فِيهَـــا ليَالِيـــــهِ

سِيَاسَةٌ أبْـــرَأتْ بِالرِّفــقِ فِي مَهَـــلٍ

دَاءَ الخِـــلاَفِ وَقـــدْ أعيـــا مُدَاوِيهِ

وَحِكمَةٌ خَضَعَتْ هَـــامُ المُـــلوكِ لهَا

عِـــزًّا فلاَ حُـــرَّ مَوْجُـــودٌ بوَادِيـــهِ

مُؤَيـــدٌ جَـــاءَتِ الدُّنيَـــا إلَى يَـــدِهِ

عَفـــواً وَلَبَّتـــهُ مِنْ قـــرْبٍ أمَانِيـــهِ

جَلـــتْ أيادِيـــهِ حَـــتَّى إنَّ أنفُسَنـــا

وَمَـــا مَلكنـــاهُ جُـــزْءٌ مِـــنْ أيَادِيـــهِ

ويقـول مادحـا يحـيى بـن عـلي بـن حمـود:

فهَـا أنــذَا يَا ابْــنَ النبــوَّةِ نافــثٌ

مِنَ القوْلِ أرْياً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّــلُّ

وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئــكَ مُعــرِقٌ

تشيعــهُ مَحْــضٌ وَبيْعَتــهُ بتــلُ

ووَالَى أبِي قَيــسٌ أباكَ عَلَى العُــلاَ

فَخيَّــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنــدٍ لهُ غِــلُّ

ومــن شعــره أيضــا:

لاَ تشْكــــوَنَّ إذَا عَثــــــرْ

تَ إلَى صَدِيقِكَ سُــوءَ حَالــكْ

فيُرِيــكَ ألوَانــــاً مِــنَ الــْــ

إذْلاَلِ لــمْ تَخطـــــرْ ببَالــــكْ

إيــــاكَ أنْ تــــدْرِي يَميــــ

ــنــكَ مَا يَــدُورُ عَلَى شِمَالــكْ

وَاصبْــرْ عَلَى نــوَبِ الزَّمَــا

نِ وَإنْ رَمَتْ بِــكَ فِي المَهَالــِكْ

وَإلَى الــذِي أغــــنَى وَأقــــ

ــنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهـــذا موشـــح لــــه يقـــول فيـــه:

مَنْ ولِــي ♦ فِي أمَّــةٍ أمْــراً ولَــمْ يَعْـدِلِ ♦ يُعْـزَلِ ♦ إلاَّ لحَاظُ الرَّشَــإ الأكْحَــلِ

جُـرْتَ فِي حُـكـمَـكَ فِي قـتــلِيَ يَـا مُـسْـرِفُ

فـَانـْصِفِ فـوَاجِـبٌ أنْ يُنـصَـفَ الـمُـنـصِـفُ

وَارْأفِ فـــإنَّ هـــذَا الــشـــوقَ لاَ يَـــرْأفُ

عـلِّـــلِ ♦ قـلَبي بذَاكَ البَارِدِ السَّلْسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفـؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَـلِ

إنـــمـــا تـبْـــرُزُ كـَيْ تـوقِـدَ نـارَ الفِـتـــنْ

صَـنـمَـــاً مُـصـوَّراً فِــي كـلِّ شـيْءٍ حَسَـــنْ

إنْ رمَــى لـَمْ يُخـطِ مِــنْ دُونِ القلُــوبِ الجـنَــنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخلُّـصٌ مِنْ سَهْمِـكَ المُرْسَـلِ ♦ فَصِـلِ ♦ وَاستَبقنِي حَيــاً ولاَ تقتـلِ

يَا سَـنــا الــشَّـمْـسِ وَيَـا أبْـهَى مِــنَ الكوكـــبِ

يَا مُـنَــى النـفـــسِ وَيـا سُـؤلِي وَيَـا مَـطلـبِـي

هَـا أنـا حـــلَّ بـأعـــدَائـــكِ مَـا حـلَّ بـِـي

عـــذّلِـي ♦ مِنْ ألَــمِ الهجْرَانِ فِي مَعزِلِ ♦ وَالخَلِي فِي الحُبِّ لاَ يَسْـألُ عَمَــنْ بلي

أنــتَ قـَدْ صَيِّـرتَ بالحُـسْـنِ مِـنَ الرُّشـــدِ غـَـيّ

لـَمْ أجـدْ فِـي طـــرقِـي حُـبـكِ ذنبـاً عَــلـَيّ

فـَاتـئـدْ وَإنْ تـشـأ قـتـلِـيَ شَـيْـئـاً فـشـيّ

أجـــمـلِ ♦ وَوَالـــنِي مِنْكَ يَدَا المُفـْضِـلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبـلِ

مَااغتـذَى طـــرفِــيَ إلاَّ بــسَـنـــا نـــاظـرَيـــكْ

وَكَـــذَا   فِي الـحُـبِّ مَا بي لَيْـسَ يَخْـفى عَـلَـيْـكْ

وَلَـــذا   أنـشِـدُ وَالْـقَـلْـبُ رَهِـيـنٌ   لَـدَيْـكْ

يَـا عَـلي ♦ سَلطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتَـلِي ♦ فابقِ لِي قلبي وَجُدْ بالفَضْـلِ يَـا مَوئِـلِي

ـ ثـم أبـو جعفـر أحمـد بـن أيـوب اللمـائي:[1] يعتبـر أبـو جعفـر اللمـائي مـن الأدبـاء والشعـراء الفحـول ببـلاد الأندلـس. وينتسـب هـذا الكاتـب إلى قبيلـة لمايـة الأمازيغيـة؛ وقـد ولـي ـ في بـلاط عـلي بـن حمـود ـ خطـة الكتابـة. ويبـدو أنـه كـان يعـاني ـ في آخـر أيامـه ـ مـن مـرض ضيـق النفـس أو داء النسمـة كمـا يسـمى آنئـذ؛ وقـد تـوفي في مالقـة بعـد شـدة وعـذاب[2].

---

[1] قـال ابـن بسـام: ((وكـان أبـو جعفـر هـذا ـ وقتـه ـ أحـد أئمـة الكتـاب، وشهـب الآداب؛ مـن سُخِّـرت لـه فنـون البيـان، تسخيـر الجـن لسليمـان؛ وتصـرف في محاسـن الكـلام، تصـرف الريـاح بالغمـام؛ طلـع مـن ثنايـاه، واقتعـد مطايـاه؛ ولـه إنشـاءات سَرِيَّـة في الدولـة الحموديـة؛ إذ كـان علـم أدبائهـا، والمُضطَلـع بأعبائهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقـد أورد ابـن بسـام قصيـدة لأبي عامـر ابـن شهيـد قالهـا ـ وهـو عـلى فـراش مرضـه المزمـن ـ عندمـا نـعي إليـه أحمـد بـن أيـوب اللمـائي جـاء فيهـا:

أمِـنْ جَنَابهُـمُ النفـحُ الجَـنوبيُّ

أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غـارِيُّ؟

أهـدَى إليَّ ظلاَمـاً رَدْعَ نافِجَـةٍ

أدْمـاءَ شـقَّ بهَا الدَّأمَـاءَ هِنـدِيُّ

وَالليْـلُ قدْ قـامَ فِي أثـوَابِ نادِبـةٍ

كأنـهُ فـوقَ ظهْـرِ الأرْضِ نـوبِيُّ

والنجْـمُ تَحْسَبُـهُ قـدَّامَ تابعِـهِ

حَمَامَـةً رَامَهَـا فِي الجَـوِّ بَـازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعرا؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: ((**إلا أنّي لم**

وَجَدْوَلُ الأفق يَجْرِي فِي مُنافسِهِ
مَاءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاء فِضِيُّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطوِيُّ:
أُهدَى اللمَائيُّ مِنْ أَزْهَارِ فِكرَتِه
نشْراً فقالَ الدُّجَى: مَرَّ اللمَائيُّ
فقِيلَ مَاتَ فقالَ الليْلُ قَارَبَ ذَا
فانهَلَّ مِنْ مُقلتِي نَوْءُ سِمَاكِيُّ
وَبِتُّ فَرْداً أناجِي مُقلتِي شغفاً
كأنَنِي فِي نقوبِ الدَّارِ جِنِّيُّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لِي يَا وَاحدِي أَبَداً
وَمَوتنا وَاحِدٌ لاَ شكَّ مَرئِيُّ
إنَّ الكرِيمَ إذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أَوْدَى بِهِ الوَجْدُ وَالثكلُ الطبيعِيُّ
إنْ مُتُّ قبْلَكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَامِيُّ
أَوْ مُتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجَبٌ
إنَّ الكرِيمَ إلَى الأصْحَابِ مَنعِيُّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَحْشِيُّ
حَتَّى أهُمَّ بقتلِي كلَّ دَاجِيَةٍ
يَا قَوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْلُ إنسِيُّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيُّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: ((**غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَبا، وزمنٍ آمالي فيك صِبا، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيءٌ ظِلال وفائك، جانِ منك ثمر فَرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديمًا أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروَّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتَهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يَقْصُرُ عن جميلِ أسرِّه، ووصفِ وُدٍّ أضْمِرُه)).**[2] أما شعره فمنه قوله:

قَدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بِهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا
لَوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بِهِ
لأخَذْتُ كلَّ سَفينَةٍ غصْبَا

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] نفسه، ص: 618.

وقـــال في أخـــرى أيضـــا:

غـــنَّى ولَلإيقـــاعَ فـــو ... قَ بَيَانِ مَنطِقِـــهِ بَيـــانُ
وَكأنمـــا يـــدُهُ فـــمٌ ... وَقضِيبهُ فِيهَـــا لِســـانُ

زاره بعـــض أصحابـــه وهـــو طريـــح الفـــراش بفعـــل المـــرض الـــذي أودى بحياتـــه؛ فحـــاول بعضهـــم الترويـــح عليـــه بغـــرض التخفيـــف عنـــه؛ فقـــال لهـــم شعـــرا:

رَوَّحـــنِي عَائِـــدِي فقلـــتُ لـــهُ
مَـــهْ، لاَ تـــزِدْنِي عَلَى الذِي أجِـــدُ
أمَـــا تـــرَى النـــارَ وَهْيَ خامـــدَةٌ
عنـــدَ هبـــوبِ الرِّيـــاحِ تتقِـــــدُ؟

وقـــال يشتـــكي مـــن علتـــه بعـــد أن يئـــس مـــن الشفـــاء:

عظمَ البَـــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتـــجَى
مِنـــه الشفـــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجـــعُ
لـــمْ يَبـــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَـــا بـــهِ
طَمَعَ الحَيَـــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَـــعِ؟

"وَإذَا المَنيِــةُ أنشبــتْ أظفارَهــا

ألفيْــتَ كــلَّ تميمَــةٍ لاَ تنفــعُ"[1]

ولـــه هـــذه القطعـــة كذلـــك:

يا كبـــدِي بِالبَيْـــنِ مَـــنْ أكلمَـــكْ

وَيا دُمـــوعَ العَيْـــنِ مَنْ أسْجَمـــكْ؟

وَيا فـــؤَادِي كمْ تقـــاسِي الهَـــوَى

مُكتتمـــاً عـــنِّيَ، مَـــا أكتمَـــــكْ!

علمْتـــكَ الكتـــمَ أمَـــا تستَـــحِي

وَيْحـــكَ أنْ تَكتـــمَ مَـــنْ علمَـــكْ؟

كنـــتُ أدَاوِيـــكَ فـــلاَ ذَنـــبَ لِي

لـــوْ أنـــنِي أعلـــمُ مَـــنْ أسقمَـــكْ

ولـــه هـــذه قطعـــة الـــتي يكـــون قـــد مـــدح فيهـــا عـــلي بـــن حمـــود:

طلَعـــتْ طوَالعُ لِلرَّبيـــعِ فأطلعَـــتْ

فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانـــهِ

حيـــا أمِيـــرَ المُؤْمِنيـــنَ مُبشـــراً

وَمُؤَمـــلاً لِلنيـــلِ مِـــنْ إحسانـــهِ

---

[1] استشهـد هنـا ببيـت أبي ذؤيـب الهـذلي.

ضَنَــتْ سَحَائبــهُ عَليــهِ بمَائهَــا

فأتــاهُ يستسْقِيــهِ مَــاءَ بنانـــــهِ

دَامــتْ لنــا أيامــهُ موْصُولـــــة

بِالعــزِّ وَالتمْكِيــنِ فِي سُلطانــــهِ

ثــم هــذه القصيــدة الــتي يشكــو فيهــا نوائــب الدهــر:

أمسَى سَقامِي زَاجــرِي وَمُؤنَــبِي

وَغــدَا مَشيبِي وَاعِظِي وَمُــؤدِّبِي

أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِــقِي

ثقلاً، وَزَعــزَعَ منكِبِــاهُ منكِــبِي

وَهمَــتْ سَحائبــهُ عَلَيَّ فغــادَرَتْ

أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجِــبِ

فأظلُّ أبصِــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتســبْ

جــوراً وَأقــرَأ فيــهِ مَا لمْ أكتــبِ

ســنٌ حدِيثٌ تحتَ جــدٍّ شــارِفٍ

وَســوادُ رَأسٍ فــوْقَ قلبٍ أشيــبِ

أغــدُو عَلَى بَكــرٍ لصرفِ بَناتــهِ

وَأرُوحُ مبتنِيــاً بأخــرَى ثيِّـــبِ

أفتــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عــذْرَة

لاَ تشتـــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطــبِ

يَا سَيـــدِي وَأخِي الوفِيَّ وَمَا أخِي

منهُ إلَى قلـــبِ الإخـــاءِ بأقــرَبِ

وَإِذَا غدَا العِلــمُ المُشـــرِّفُ أهلـــهُ

نسَبـــاً يُؤلفنـــا فنحـــنُ بنـــو أبِ

هـــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مـــرزَّإٍ

مَا بينَ أضْلاَعِ الخطـــوبِ مُغيـــبُ

لمْ يبـــقِ مِنهُ الدَّهـــرُ غيْرَ مَدَامِـــعٍ

سُفــحٍ وَقلـــبٍ بِالسقـــامِ مُعَــذَّبِ

أخفتـــنِيَ الأيـــامُ فِي لهَوَاتهَـــــا

وَسَجَنِنِي فِيهَا فَكيــفَ شَعَــرْتَ بِي؟

وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقَــدْ كتبَ الإخـــا

بَينَ النفــوسِ صَحَائِفاً لــمْ تكتــبِ

بـــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشـــوقِ فـــؤَادُهُ

وَأرَقَّ مِنْ ريـــقِ الحَبيبِ وَأعــذَبِ

فظلَلـــتُ مِنهُ فِي غديـــرِ بَلاَغـــةٍ

عــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائـــقِ مُعْشـــبِ

كرُمـــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعـــهُ

علِمـــاً وَأثمَـــرَ بِالكـــلاَمِ الطيـــبِ

صُبُـــحٌ تـــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِـــدَادِهِ

لَيـــلاً كفِعْـــلِ الزَّائـــرِ المُترَقـــبِ

خفِيَـــتْ مَعَانِيـــهِ عَـــلَى أوْهامِنـــا

فَالفكـــرُ بَيْـــنَ مُصـــدّقٍ وَمُكـــذِّبِ

طلعـــتْ كوَاكِبـــهُ ولَمَّـــا تطلِـــعْ

وَغربَـــنَ فِيـــهِ لنـــا لمَّـــا تغـــرُبِ

أنَا مُذْنـــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أسْتطِـــعْ

رَدَّ الجَـــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنـــبِ

حمَلْتـــهُ مِنْ طيبِ الإخـــاءِ مَحَبـــة

فيكـــمْ وَإخـــلاَصٌ لكـــمْ فتطيَّـــبِ

وبَعَثْـــتُ مَاءَ الوَرْدِ فِيـــهِ سَائِغـــاً

عَذْبـــاً لذَائقـــهِ زلالاً   فاشـــرَبِ

أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتيـــقِ نسيمُـــهُ

أرَجـــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنـــدُبِ

ـ ثم أبو بكر عبد الله بن حجاج الغافقي الإشبيلي: وهو ـ كما يستوحى من اسمه ـ من أهل إشبيلية. هذا وينتسب ابن حجاج إلى قبيلة غافق القحطانية العربية. قال عنه صاحب المغرب **((ذكر الحجاري: "أنه شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد؛ وكان قد هجر وطنه، وانتبذ إلى صاحب الجزيرة الخضراء محمد بن القاسم بن حمود... فقال له وزيره: أسأل ابن الخليفة: هل أنت من بني حجاج أصحاب السيرة بإشبيلية؟ فقال: لو كنت منهم طلبت السيف؛ ولم أطلب بالشعر؛ فقال ابن حمود: لا فُضَّ فوك! يا شَدَّ ما امْتَعضَ لأعْيانِ بلده)).**[1] ويكون ابن حجاج هذا قد توفي بعد سنة 430هـ؛ لأنه تقابل في هذه السنة مع الحميدي؛ الذي قال إنه سمع منه أشعارا كثيرة؛ عندما التقى به في السنة المذكورة.[2] ومن شعره هذه الأبيات التي ذكرها الحميدي:

لَما كتمْتُ الحُبَّ لاَ عَنْ قِلًى
وَلَمْ أجِدْ إلاَّ البُكا وَالعَوِيلْ
نادَيتُ وَالقلبُ بِهِ مُغْرَمٌ
يا حَسْبِيَ اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلْ

---

[1] المغرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.

[2] جذوة المقتبس، ص: 261.

وأورد لـــه الحجـــاري هـــذه الأبيـــات:

ألاَ أيها الـــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلِـــهُ
وَفاحَـــتْ خزَاماهُ وَغـــرَّدَ طائِـــرُهْ

أتذْكـــرُ أيامِي بدَوْحِـــكَ وَالحِـــمَى
يبارِكنـــا مِنـــهُ بِجزْعِـــك زَائـــرهْ

وَقدْ رَقَّ نَسْـــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنـــهُ
وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِـــرُهْ

أمـــا المقـــري فقـــد أورد لـــه عـــدة مقطوعـــات؛ منهـــا هـــذا المقطـــع مـــن قصيـــدة مـــدح بهـــا محمـــد بـــن القاســـم ابـــن حمـــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابـــلٍ
وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتـــكَ مَحَاجـــرُهْ

وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ
وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوَتـــهُ مَـــآزِرُهْ

وَمَا الـــدُّرُّ إلاَّ ثغـــرُهُ وَكلاَمـــــهُ
وَمَا الليْـــلُ إلاَّ صدْغـــهُ وَغدَائـــرُهْ

وأرد لـــه أيضـــا المقـــري مقاطـــع صغيـــرة مـــن الشعـــر الـــذي قالـــه عندمـــا كـــان في إشبيليـــة. لا داعي لإثباتهـــا في هـــذا المجـــال.

ـ ثـم أبـو محمد غانم بن وليـد المخـزومي المالـقي:[1]

وينتسب هـذا الأديـب العالـم إلى بـني مخـزوم مـن قريـش؛ وهـو مـن أهـل مالقـة وعلمائهـا النابهيـن. قـال فيـه الحميـدي: ((**فقيـهٌ، مـدرسٌ، وأسـتـاذ في الآداب وفنونهـا، مجـوِّد؛ مـع فضـل وحسـن طريقـة**)).[2] ووردت لـه بعـض المقطـع الشعريـة في الذخيـرة، وبعـض المواضـع المتفرقـة مـن نفـح الطيـب، وفي جـذوة المقتبـس، والصلـة. ولغانـم بـن وليـد رسائـل نثريـة عديـدة أوردهـا ابـن بسـام؛ منهـا عـلى سبيـل المثـال هـذه المقطوعـة النثريـة الـتي صاغهـا لمـا تـولى إدريـس العـالي الخلافـة. وفي النـص إشـارة إلى الأحـداث الـتي تكـون قـد وقعـت في مالقـة؛ حيـن حـاول الفـتى الصقلـبي نجـا بمساعـدة السطيـفي اغتصـاب الحكـم. قـال غانـم: ((**ولـم يتـرُك المتطـولُ علينـا عـزَّ وجهـهُ بالهـدى أمـةَ محمَّـدٍ عليـه السـلامُ سـدى؛ بـل نـظـمَ شملهـا بإمـامٍ عـادلٍ تجتمـعُ إليـه، وتعـوِّلُ عليـه، تتوارثـهُ كابـراً عـن كابـرٍ، وتـتـلـقـاهُ غابـراً عـن غابـرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللـهُ للأكمَـام الهاشـميّ، والملـك الفاطـميّ، والفـرع العلـويّ، إدريـس العـالي باللـه بـن يحـيى المعتـلي باللـه بـن عـلي الناصـر**

---

[1] قـال فيـه ابـن بسـام: ((قـد بـذ ـ وقتـه ـ أهـل ذلـك الإقليـم، في أنـواع التعاليـم؛ فَـرْدَ عصـره ونسيـج وحـده في تنـاهي جـده؛ متفننـا جـرى في ميـدان السَّبْـق، وفقيهـا قرطـس أغـراض الحـق؛ وكـان في هـذا البـاب الـذي ولجنـا فيـه مـن أهـل الرَّويـة والبديـه)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ـ 854.

[2] جـذوة المقتبـس، ص: 325.

لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربيين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته. وكان مقتلُ العبد الغادر – وكافرُ النعْمَة كالكافر – في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العاليّ، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاستَقْبَلَ المُلكَ إمَامُ الهُدَى
فِي أرْبَعٍ بَعْدَ ثلاَثِينَا

خِلاَفَةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ
وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى
أنْ تمْلــكَ المُلـــــكَ ثمَانِينَـــــا
لاَ رَحِــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقــلْ
عِنــدَ دُعَــائِي لــكَ آمِينَـــــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)). [1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: **((مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلِّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه عــليّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــال لمــع؟ كَــلاَّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: **861 ــ 862.**

والله، أرتني زهرَ الرَّبيع في غيرِ أوانه، وحُسنَ الصَّنيع على عَدَمه في أهلِ زمانه؛ لمحتُ منه عِقد اللآل، يبقى على أخرَى الليال؛ فأنت واحدُ البلاغة الذي لا يجارَى، وفارسُ الفصاحة الذي لا يُبارَى؛ وقد اعتقدتُ ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفقِ النقلةِ صباح، أو استقلّ بي في طرُق الرّحلة جناح.

وكم حاولتُ مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدُّنيا بتركي لأغراضِها وإعراضي؛ فإذا الانقباضُ قد حصَّلني في جملةِ القَبض، والتركُ للأغراض قد جعلني للنوَب كالغرض؛ ولا سلاحَ إلاَّ الدُّعاء إلى الله تعالى في الصَّلاح، ولا جناح إلاَّ التمني لمن يقولُ ما عليك جُناح؛ فسبحان من قدرَ أن أكونَ لناب النوَب حرباً، وتكونَ عليّ أيامُ الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السُّود؛ كأنّي ممَّا أنا باكٍ منه محسود. أستغفرُ الله! فقد حمي صدرِي حتى غلى مِرْجَله، وضاق مجالُ فكرِي حتى اتَّسعَ في الشكوى مقولَه. ولو أني سلمتُ لمواقع الأقدار، وعلمتُ أنه ليس على القدَر اختيار، ورضيتُ بما يأتي به الليلُ والنهار، وتَيَقنتُ أنَّ خُلقَ الزمانِ عداوة الأحرار؛ لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبَّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ـ 857.

ومــن المقطوعــات الشعريــة لغانــم بــن وليــد؛ هــذه الأبيــات الــتي قالهــا لمــا دخــل عــلى مجلــس باديــس ابــن حبــوس؛ فوســع لــه كي يجلــس عــلى رغــم الضيــق فقــال:

صَيــرْ فــؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلــة
سـمُّ الخِيــاطِ مَجَــالٌ لِلحَبيبَيْــنِ
وَلاَ تسَامِــحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَــرَةٍ
فقلمَــا تسِــعُ الدنيَــا بَغِيضَيْــنِ

ولــه أيضــا:

الصَّبــرُ أوْلَى بِوقــار الفــتَى
مِنْ قلــقٍ يَهْتِــكُ سِترَ الوَقــارْ
مَنْ لــزِمَ الصَّبْــرَ عَلَى حَالــهِ
كــانَ عَــلَى أيامِــهِ بِالخيــارْ

وممــا قالــه في العــالي باللــه إدريــس بــن يحــيى ابــن حمــود:

لَوْلاَ التَّحَــرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّــاكِ
حُيِّيــتِ عَنــا وَحُيِّينــا بِمَحْيَــاكِ
هَذا اللثــامُ غَمَــامٌ مَا يُبينُ هُــدًى
حُــطِّي اللثــامَ فَليسَ البَــدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْــتِ إِلَى نَعْمَــانَ سَافِــرَةً
كانتْ هدَايَتُــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَــاكِ

ثم يضيف:

أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

ويقــول في قصيــدة أخــرى:

يَا غَرِيبــاً بِحُسْنِــهِ قِصَّتِي فِيكَ أغْــرَبُ
أَنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُــمْ فِي مِــدَادِهِ بدَمِ القلــبِ يُكتَــبُ
إنَّ إدْرِيــسَ مَاجِــدٌ لِلعُلاَ فِيــهِ مَذهَــبُ
جَــدُّهُ خَاتمُ الهُــدَى وَعَــلِيٌّ لــــهُ أبُ
فَهْــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَــعٌ وَهْوَ لِلْمَجْدِ مَغــرِبُ

ويقــول دولــة إدريــس العــالي:

ضَحِــكَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ بَعْدَ عُبُــوس
وَنَــفَى دُجَى الإِيحَــاشِ بِالتأنِيــسِ

فَأدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَــكِ المُــنَى

وَتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أكــفٍّ شُمُــوسِ

فِي رَوضَةٍ تُحْيِي النُّفُــوسَ كَأَنَّمَــا

بَاتَــتْ تَنَفَــسُ عَنْ عُــلاَ إدْرِيــسِ

مَلِــكٌ أقَــامَ اللَّــهُ دَوْلَــةَ مُلكِــــهِ

فَكَبَــا مِنَ الأعْــدَاءِ كُــلُّ رَئِيــسِ

مِنْ دَوْحَةِ الــوَحْيِ الــَّتِي بِسُمُوِّهَــا

دَرَسَــتْ مَعَانِي الكفــرِ أيَّ دُرُوسِ

وقــال في رثــاء أخويــه:

يَــا دَمْــعُ لاَ تخــذُلْ وكنْ مُسْعِــداً

لاَ تَخــشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنَعَــكْ

أخٌ غرِيــــقٌ وأخٌ فِي الثـــرَى

وَترتــجِي السَّلــوةَ مَــا أطمَعَــكْ!

إنَّ جُمــودَ العَيــنِ خــوْفَ العِــدَا

وَرِقبَــةَ الحُسَّــادِ لــنْ يَنفعَــــكْ

يَــا عُمَــراً أعْمَــرْتَ قلــبِي أسىً

وَدَّعَ صَبَــرِي مِثلَمَـــا وَدَّعَـــكْ

رُزِئــتُ فِي الدُّنيَــا يَدَيْ نصْــرتِي

يَــا دَهــرُ تبــاً لــكَ مَــا أفجعــكْ

وقــال واصفــا وادي مالقــة في موضـــع يســمى ربــوة العقــاب:

ضحِــك الزَّمَانُ بِحسنِــهِ وَبهَائــهِ

كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طول بُكائِــهِ

وكــأنَّ إقبَــالَ الرَّبيــعِ بوَصلِــهِ

وَصْلُ الحَبيبِ أتــاكَ بَعْدَ جَفائِــهِ

وكأنمَــا وَادِي العُقَــابِ عَشيــة

مُستَمْطِــرٌ دَمْعِي بِجرْيَــةِ مَائــهِ

وكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى

رَشحُ الخدُودِ بَــدَا بنــارِ حيائــهِ

وكــان يُحْــيي جلســات الأنــس والطــرب في قصــر الملــك العــالي إدريــس بــن يحــيى مطــرب اسمــه المهــدوي؛ فطلــب يومــا مــن غانــم تذييــل بيــت مــن الشعــر كــان يحفظــه؛ حــتى يتســنى لــه الغنــاء بــه؛ مــع التذييــل. والبيــت الــذي يحفظــه المهــدوي هــو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً

وَالبــدْرُ لــوْ كلفــوهُ ذَاكَ لــمْ ينــبِ

فأكمــل غانــم بــن وليــد بديهــة:

فِي غــرَّةِ الملكِ العَــالِي وَمَنظــرِهِ

بــدْرٌ يُعطــلُ نورَ السبعةِ الشهـــبِ

نــرَى محيــاهُ فِي ليــلٍ فيخبرُنــا

عنِ الحَقِيقــةِ أنَّ الشمــسَ لمْ تغــبِ

وحــدث أيضــا في بعــض جلســات الأنــس والسمــر والغنــاء؛ الــتي كــان يحييهــا المغــني محمــد بــن الحمــاميّ أن طلــب الملــك إدريــس مــن غانــم تذييــل بيــت ابــن المعتــز:

هــلْ يُزِيــلُ البَيْــنَ مُحْتــالُ

أنْ غــدَتْ لِلبَيْــنِ أجْمَــالُ

فأكمــل غانــم قائــلا:

إنمــا العَــالي إمَــامُ هـــدًى

حلِيَــتْ فِي عَصْــرِهِ الحَـــالُ

مَلِـــكٌ إقبَـــالُ دَوْلتـــهِ

لِـــذَوِي الأفهَــامِ إقبَـــالُ

قُــلْ لِمَتنْ أبـــدَتْ مَطَالبـــــهُ

رَاحَتَـــاهُ الجـــــاهُ وَالمَـــــالُ[1]

ـ وأبــو عبــد اللــه محمــد بــن الســرّاج المالــقي: لــم يتــم التعــرف عــلى أصــل نسبــه الأول؛ إذ أحجمــت المصـــادر المتوفــرة عـــن الإشـــارة إلى ذلــك؛ ولــم تذكــر ســوى أنــه مــن أهــل مالقــة[2]. أمــا ابــن بســام فقــد نقــل مقطوعــات عديــدة مــن شعــره؛ ولكنــه لــم يشــر إلى ترجمـــة حياتــه؛ وكــل مــا قــال فيــه: ((**محســـنٌ في**

---

[1] وممـــا حكـــاه غانــم عــن مجالــس السمــر الــتي تقــام بقصــر الملــك إدريــس قولــه: ((وحضــرتُ مجلســهُ أيضــاً فتغـنَّى الحمــاميُّ بشعــرٍ محــدثٍ أولــه:

إذَا بَلغتِــني يَــا نــا قــتي المَسْــمِيَّ إدْريســا

فكــأنَّ العــالي باللــهِ استحســنَ الحُــلــةَ ولــم يــرضَ قولــه "المســمــيّ"؛ وإنمــا هــو المســمِّــي أو المُــســمَــى مــن سمّــيت أو أسميــت؛ ولا يُــقــالُ مــن التسميــة سمـــوتُ ولا سميــت؛ ولـــو قـــال "المُســـمَيِ بإدريســـا" لصـــحَّ الـــوزنُ والكـــلام؛ فأطـــرَقَ قليـــلاً ـــ أيــده اللــه ـــ ثــم قــال: للمُــغــنــي: "أعِـدِ الصــوتَ؛ قــل:

إذَا ضَاقــتْ بكَ الدُّنيَــا فَعَــرِّجْ نحــوَ إدْريسَــا

إذَا لاَقيتـــهُ تلـــقَى رَئيســـاً ليْسَ مَرْءوسَــا

وَمَـــنْ عَزَمَاتــهُ تنــفِي عــنِ الأوْطَــان إبْليســا

إمَــامٌ ماجــدٌ ملــــكٌ يزيـــلُ الغـــمَّ وَالبُؤسَـــا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] قالـــه عنـــه الحميـــدي مثـــلا: ((محمـــد بـــن الســـرّاج المالـــقي: منســـوب إلى مالقـــة؛ بلـــد مـــن بـــلاد الأندلـــس؛ عـــلى ساحـــل المَجَـــاز الـــذي يقـــال لـــه الزُّقـــاق؛ لـــم يقـــع لي اســـم أبيـــه؛ شاعـــر أديـــب مشهـــور؛ رأيـــت لـــه أشعـــارا في ذي الوزارتيـــن أبي جعفـــر أحمـــدِ بـــن بَقنـــة وزيـــر دولـــة العلويِّـــين مـــن بـــني حمـــود؛ وذكـــره أبـــو عامـــر بـــن شُهَيْـــد مفضِّـــلا لـــه؛ وأنشـــد ممـــا استحســـن مـــن شعـــره:

وكَـــمْ عَنَّ يَوْم النحْـــرِ مِنْ نَحْـــرِ شَـــادِنٍ

لِعيـــنِي بِأطْـــوَاق الجمـــالِ مُطـــوَّق)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهل عصره مَعدود، وشاعِرُ بني حَمُّود؛ وله فيهم غيرُ ما قَصيد، ومقطوعاتٌ في النَّسيب؛ وجدتها بخطّ الأديب أبي عليّ الحسن بن الغليظ من أفق مالقة أيضا؛ صاحبه الكثير الاتصالِ به والمُنادمةِ له)).[1] وكما هو واضح؛ فشعر ابن السراج هذا تغب عليه نزعة الوصف، وحب الطبيعة، والغرق في المجون. وهذه بعض المقاطع المختارة من الذخيرة والمغرب ونفح الطيب. فمما قاله عند سماعه لهزار؛ وهو ذلك الطائر المسمى في بلاد المغرب والأندلس بأمِّ الحَسَن[2]:

وَمسْمِعَةٍ تغنينا ارتجالاَ
وَتصْحبنا بنغمتهَا دَلاَلاَ
وَبينَ أكفنا خمرٌ وَماءٌ
إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَالاَ
فإنْ شاءَتْ سقيناها مدَاماً
وإنْ شاءَتْ سقيناها زُلاَلاَ
وَلَوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ
لَكانَ لِحسنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ـ 871.**

[2] **ثمة قول يرى أن أم الحسن هي الشحرور والعندليب والبلبل.**

ويقــول أيضـــا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هـــوًى
جنينا به مِنها ثمَـــارَ المنَى جنيـــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا اسْتكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَـــا
وَكأسٍ عَلى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شربَتُ، وَدَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جرْيا

ثــم يقــول:

كفَي حزناً أَنِّي أرَى الحسنَ ممكِنـــاً
وَلستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيـــا
وَلوْ تعـــدِلُ الأيـــامُ فِي بذلِ خطـــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفْلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

وممـــا قالـــه في ديـــك صـــدح مـــع السحـــر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتـــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحـــوبُ
دَعـــا مِنْ بعِيـــدٍ صَباحاً فأجابـــهُ
يُخبرُنـــا أنَّ الصبـــاحَ قـــــرِيبُ

عَلَيَّ لــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمــرَهُ

حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمَـــانِ تطِيــبُ

ولـــه كذلــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهــمْ

عَلَى جَــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خرِيــرُ

أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشَـــةٍ

وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهـــوَةٌ وَغدِيـــــرُ

تـــدُورُ القـــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا

وكـــأسُ الحميا بِالســـرُورِ تـــدُورُ

وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقـــة

لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلـــوعِ هدِيــرُ

إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة

تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيــرُ

سَبَتنِي بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ

بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيــرُ

ــ ثـم أبــو عــلي الحســن بــن الغليــظ المالــقي:
كــان ملازمــا لزميلــه الشاعــر ابــن الســراج المالــقي؛ فهمــا وجهيــن لعملــة واحــدة كمــا يقــال. والمصــادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت – في سياق واحد – عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ – في أغلب الأحيان – يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفا وَكَدَّرَ يَوْمِي

هل إِلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟

لوْ ترانِي أسارِقُ اللحظَ خِلي

وَأسقِّي مِنْ رِيقهِ المعسولِ

لتمَنيــتَ أنْ تــرَى "حسُــنَ الــوَرْ

دِ" [1] تغنيــكَ بِالغنــاءِ النبيـــلِ

يا خلِيــلاً مِثالــهُ نصْــبَ عيــنِي

لــوْ خلونـــا إذَنْ شفيــتُ غليــلِي

وقـــال واصفـــا جلســـة مـــن جلساتهمـــا في الطبيعـــة الخلابـــة؛ محـــاولا بذلـــك تحريـــك صديقـــه ابـــن ســـراج، واستفـــزازه لـــكي يصـــف ذلـــك الموضـــع الجميـــل:

شرِبنـــا علَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

خرِيـــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهـــرِ [2]

حلفـــتُ بعينيهَا لقـــدْ سَفكـــتْ دَمِي

بأطـــرَافِ فتـــانٍ وَألحـــاظِ جـــؤذرِ

ثـــم أعـــاد إنشـــاد صـــدر البيـــت الأول؛ بغـــرض تحريـــك صديقـــه ابـــن الســـراج:

شرِبنـــا عَـــلَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

---

[1] حُـسُــــن الـــوَرْد: جاريـــة يحبهـــا ابـــن الســـراج.

[2] أزْهـَـــرُ جاريـــة لبعـــض أصدقائهمـــا كـــان يهواهـــا ابـــن الســـراج.

فقـــال عـــلى الفـــور:

بكـــاءُ محـــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ

فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ

فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وكَئيـــبُ

ومـــن المقاطـــع الشعريـــة الـــتي نسبهـــا ابـــن بســـام إلى ابـــن الغليـــظ؛ بغـــرض استفـــزاز ابـــن الســـراج:

بـــدَا الوَرْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً

يذَكـــرُنِي مَن اسمهُ حســـنُ الـــوَرْدِ

يذَكـــرُ أيامـــاً نعمنـــا بطِيبِهـــا

ورَشف رُضابٍ طَعمهُ حَسنُ الوَرْدِ

فدَعنِي ولاَ تلـــحَ عَلَى الحبِّ أهلَـــهُ

فَلوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي عَلى وَجدِي

فقـــال:

ولَما تبـــدَّى الوَرْدُ فـــوقَ غصُونـــهِ

وَذكرنِي بِالـــوَرْدِ فِي صَفحةِ الخـــدِّ

ذَكـــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ رَوْضـــة

تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الـــوَرْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لـــهُ مِثـــلُ عهـــدِهِ

سَقَاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ

وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها

فـــإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكـــمْ وَحـــدِي

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج معتـــذرا عـــن تخلفـــه عـــن موعـــد تواعـــدا عليـــه:

يـــا صَدِيقـــاً وِدَادُهُ مَا يرِيـــمُ

وَخليـــلاً إخـــاؤُهُ لِي يــــــدُومُ

جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســـاً

مَنْ لـــهُ عِندَنـــا ذِمـــامٌ قدِيـــمُ

وَهوَ عُسْرٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطـْ

ـــنِ فإنَّ الغـــدَاءَ فِيـــهِ نسِيـــمُ

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج ــ أيضـــا ــ بعـــد عودتـــه مـــن سفـــر متعـــب؛ رافـــق فيـــه أناســـا لـــم يرتـــح لرفقتهـــم:

يا مَنْ أقلبُ طـــرفِي فِي مَحاسِنِـــهِ

فـــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النـــاسِ إنسَانـــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانــا

فأجابـــه بقولـــه:

يا مَــنْ إذَا سقتنِي الــرَّاحَ رَاحتــهُ
أهــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحــاً وَريحانــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَبَاحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليوْمِ مُصْطَبِحاً
مُؤَخــراً حسنــاً فِيــهِ وَحسانــــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَــلُّ بِنــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنــا الدَّهــرَ بُسْتَانــا

ــ ثــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبــوني:[1]
لــم يكــن ابــن مقانــا مــن المقيميــن في مالقــة؛ ولكنــه زار بــلاط الخليفــة العــالي إدريــس بــن يحــيى؛ خــلال تجوالــه في بــلاد الأندلــس؛ أيــن مدحــه كمــا مــدح بعــض الأمــراء في تلــك الربــوع. هــذا وقــد كتــب الحميــدي اسمــه هكــذا: **((عبــد الرحمــن بــن مقنــاة**

[1] **قــال فيــه ابــن بســام: ((مــن شعــراء غربنــا المشاهيــر؛ ولــه شعــر يُغْــرِبُ عــن أدب غزيــر؛ تصــرف فيــه تصــرف المطبوعيــن المجيدين؛ في عنفــوان شبابــه وابتــداء حالــه، ثــم تراجــع طبعــه عنــد اكتهالــه)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.**

البطليــوسي؛ أبــو زيــد)).[1] وقــال إنــه شاعــر مشهــور؛ ثــم أورد لـــه هــذا القطعــة الشعريــة:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كــأنَّ مــلاَءَهُ وَشْيٌ مُعضــدْ
خرَقنــا دُونهُ أحشــاءَ خــرْقٍ
كــأنَّ سرَاتــهُ جيــشٌ مُــزَرَّدْ
وقَدْ نشــرَ الصَّباحُ رِداءَ نــورٍ
علَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضــدْ
كــأنَّ الطــلَّ مُنتشِــراً عليــهِ
بــرَادَة فِضةٍ فِي الجــوِّ تبــرَدْ
كــأنَّ غدِيــرَهُ مــرْآة قيــنٍ
جلاَها الصَّقلُ أوْ صرْحٌ مُمَــرّدْ
إذَا طربــتْ علَيهِ الطيرُ غنــتْ
لإسْحــاقِ وَزِرْيــابٍ ومَعبــدْ

[1] جــذوة المقتبــس، ص: 279.

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: ((**كان أبو زيد ابن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذَاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة** [أداة لقطع الأشجار]؛ **فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه**)).[1] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

سمِعتُ الكنكَ يَصْرُخُ فِي الرَّبيعِ
عَلى مَا بِي مِنَ الصَّمَمِ الطبيعِي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: ((**وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها**)).[2] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: ((**وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا**

---

[1] **الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.**

[2] **نفسه، مج: 2، ص: 791.**

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

أَلبَرقٍ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافُهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبِينْ
ولِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وحَنِينْ
ولَقلبِي زَفَرَاتٌ وَأنِينْ
وَأنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قوْلَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَيْنُ العَاشِقِينْ

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.**

إلى أن يقــول:

وكـــأنَّ الطـــلَّ مِسْــكٌ فِي الثــرَى

وَكـــأنَّ النـــورَ دُرٌّ فِي الغصُـــونْ

وَالنـــدَى يَقطـــرُ مِـــنْ نرْجَسِـــهِ

كدُمُــــوعٍ أسْبلتهُـــــنَّ الجُفـــــونْ

وَالثريَـــا قـــدْ عَلــتْ فِي أفقِهَـــا

كقضِيـــبٍ زَاهِـــرٍ مِـــنْ يَاسَمِيـــنْ

وَانْبــرَى جُنـْـحُ الدُّجَى عَن أفقــهِ

كَغــرَابٍ طـَــارَ عَنْ بَيضٍ كَنِيـــنْ

وكَـــأنَّ الشَّمْــسَ لمـــا أشرَقــتْ

فَانثنــَتْ عَنْهَـــا عُيـــونُ النَّاظِريـــنْ

وَجْـــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَـــلِي

بْـــنِ حَمُّـــودٍ أمِيـــرِ المُؤمِنِيـــــنْ

خـــطَّ بِالمِسْـــكِ عَـــلَى أبوَابِــــهِ

ادْخلوهَـــــا بِسَـــــلاَمٍ آمِنِيـــــنْ

وَينـــــادِي الجـــوْدُ فِي آفاقــــهِ

يَمِّمُـــوا قَصْـــرَ أمِيـــرِ المُسْلِمِيـــنْ

مَلِـــــكٌ ذُو هَيبــــةٍ لكِنـــــهُ

خاشـــــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيـــــنْ

وَإِذَا مَـــــا رُفِعـــــتْ رَاياتـــــهُ

خفقــتْ بَيــنَ جَنــَاحَيْ جَبْرَئِيــنْ

وَإِذَا أشكــلَ خطــبٌ مُعضِـــــلٌ

صَـدَعَ الشــكَّ بمِصبْــاحِ اليَقِيــنْ

وَإِذَا رَاهـــــنَ فِي السبـــــقِ أتَى

وَبيمْنـــــاهُ لِـــــوَاءُ السابقِيـــــنْ

يَا بــنِي أحْمــدَ يَا خيــرَ الــورَى

لأبيكــمْ كــانَ رَفــدُ المُسْلِــمِيــنْ

نــزَلَ الــــوَحْيُ عَليـــهِ فاحْتـــبَى

فِي الــدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيــنْ

خلِقــوا مِــنْ مَــاءَ عَـدلٍ وَتــقى

وَجَمِيعُ النـــاسِ مِنْ مَـــاءٍ وَطِيــنْ

انظُرُونـــا نقتبــسْ مِــنْ نُورِكـُــم

إنـــهُ مِــنْ نــورِ رَبِّ العَالمِيــنْ

ولمــا خــرج مــن بلنسيــة قاصــدا طرطوشــة؛ لزيــارة صاحبهــا الفــتى العامــري المدعــو مقاتــلا؛ منــع مــن الجــواز إليهــا؛ فكتــب إلى مقاتــل هــذه الأبيــات:

إنْ كانَ وَاديــكَ نيــلاً لاَ يُجازُ بــهِ
فمَالنا قــدْ حُرِمْنــا النيْــلَ وَالنيــلاَ
إنْ كانَ ذنبِي خــرُجِي مِنْ بَلنسِيَـــةٍ
فمَــا كفــرْتُ وَلاَ بَدَّلــتُ تبدِيــلاَ
"هِيَ المَقادِيــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَــا"
لِيقــضِيَ اللـــهُ أمراً كانَ مَفعــولاَ

ولـــه أيضـــا في مجاهـــد العامـــري:
ولمـــا سَقتنـــا مِــنِ ابرِيقِهَـــا
لثمْنـــا يَدَيهَـــا وَخلخالهَـــا
وَبتنــا وَباتـــتْ عَـلَى سَاقِهَـــا
تصَفَــقُ لِلشــرْبِ جرْيالَهَــا
كأنَّ نجُــومَ الــدُّجَى رَوْضَــة
تَجُــرُّ بهَــا السُّحْــبُ أذْيالهَــا
كــأنَّ الثرَيـــا بهـــا رَايـــة
يقــودُ المُوَفـــقُ أبطالهـــا

ـ ثــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحــيى:

لــم تتكلــم جــل المصــادر عــن هــذا الوزيــر الشاعــر؛ ومــا عرفنــاه عنــه أتى في المغــرب؛ حيــث

قال عنه صاحبه: ((**من المسهب: كان له خلال توجب له الوزارة. أخبرت انه كان يوما في بيت وزارته؛ فدخل عليه غلام جميل بقل عذاره؛ فقال:**

أتَانِي وَقَدْ خطَّ العِذَارُ بخدِّهِ

كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرَا

فقلتُ لهُ: لمْ يَقتنِعْ بِحَيَائه

مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعرٍ سِترَا)).[1]

ـ ثم أبو علي الحسن بن حسون:[2]

هكذا ورد اسمه في بعض المصادر. وثمة غموض كبير يكتنف هذا الفقيه القاضي؛ حيث يوجد ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ اثنان ـ أو أكثر ـ وليا قضاء مالقة في فترة زمنية واحدة؛ أو متقاربة على الأقل؛ ولا يعرف إن كانا ـ في حقيقتهما ـ شخصا واحدا أم شخصين؛ إذ تسمي المصادر ذلك القاضي أحيانا باسم الحسن وأحيانا أخرى باسم الحسين أو باسم محمد بن الحسن؛ كما يكنيه بعضهم بأبي

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 425.

[2] قال فيه ابن سعيد: ((من المسهب: "عين مالقة. ورب حلِّها وعَقْدها، وعلم بُرْدِها وواسطة عِقْدِها، وكان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي)). نفسه، ص: 430.

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا – ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى – باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حلّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

---

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولّى حُسَيْنٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 – 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَيْن بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

بلــده)).[1] كمــا أورد لــه قطعــة شعريــة صغيــرة نسبهــا إليـــه؛ وهي:

خلعـــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِندَما
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ
وَثَنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إِلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبَـــرِي
وَأَصبَحْتُ لاَ أَبغِي سِوَى العِلمِ خُطَة
ففِيهِ الذِي أَرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشـــرِ
وَلوْلاَهُ مَا أَصبَحتُ أقضِي عَلَى الأَلَى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفـــوَانٍ مِـــنَ العُمرِ

وفي المقابــل ذكــر المقــري مــا دار بيــن المدعــو ابــن حَــسّــون وإدريــس بــن يحــيى؛ فقــال: ((**وحــكي أن العــالي إدريــس الحمــودي لمــا عــاد إلى ملكــه بمالقــة؛ وبَّــخ قاضيهــا الفقيــه أبــا عــلي بــن حَسُّــون؛ وقــال لــه: "كيــف بايعــت عــدوي مــن بعــدي وصحبتــه؟". فقــال: "وكيــف تركــت أنــت ملكــك لعــدوك؟". فقــال: "ضــرورة القــدرة حملتــني عــلى ذلــك". فقــال: "وأنــا أيضــا حصلــت في يــد مَــنْ لا يسعــني إلا طاعتــه"**)).[2]

---

[1] المغــرب، ج: 1، ص ص: 430 ــ 431.

[2] نفــح الطيــب، ج: 3، ص: 390.

ثـم أورد المقـري لهـذا القـاضي أبياتـا مـن الشعـر نسبهـا ليـه:

رُفِعـتُ مِنْ دَهرِي إلَى جَائِـرٍ
وَيبتـغِي العَـدلَ بأحْكـامِي
أضْحـتْ به أمْلاَكـهُ مِثلَ أشـْ
ـكَالِ خيـالٍ طـوْعَ أيـامِ
هـذَا وَلمـا أبـرَمَ ذَا ناقِـضٌ
كأنهـمْ فِي حُكـمِ أحـلاَمِ

غيـر أن صاحـب كتـاب تاريـخ قضـاة الأندلـس المدعـو أبـا الحسـن علـي بـن عبـد اللـه الجـذامي المالـقي النبـاهِيّ. يذكـر روايـة يمكـن أن تفـك الإشكـال بعـض الـشيء.[1] وذلـك أنـه تكلـم عـن قـاضٍ ولي قضـاء مالقـة في الفتـرة الزمنيـة الـتي حـددت للقـاضي المدعـو ابـن حسـون؛ غيـر أن الاسـم الـذي ذكـره صاحـب كتـاب تاريـخ قضـاة الأندلـس يختلـف عمـا ذكـر سابقـا. فالاسـم هنـا هـو: محمـد بـن الحَسَـن الجُـذاميّ النُّبـاهيّ. وقـال أنـه ولي ـ لأول مـرة ـ القضـاء في عهـد يحـيى بـن علـي بـن حمـود؛ حيـث أجبـره علـى تلـك المهمـة؛ وذلـك أنـه خيـره بيـن القبـول بخطـة القضـاء أو السيـف؛ فقبـل بهـا بشـروط.

[1] أنظـر كتـاب تاريـخ قضـاة الأندلـس المسمى بـ: كتـاب المراقبـة العليـا فيمـن يستحـق القضـاء والفتيـا. ص ص: 90 ـ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ــ أعلى اللهُ أثره وأعزَّ نصره ــ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ــ وفقه الله ــ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ــ حرسها الله ــ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَقٍ، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ**[1053م]؛ **وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] تاريخ قضاة الأندلس، ص: 91.

وممـا يبعـث علـى الاعتقـاد في احتمـال كـون هـذا الشخـص هـو نفسـه الـذي ورد ذكـره مـن طـرف كـل مـن: ابـن بسـام، وابـن سعيـد، والمقـري؛ مـا جـاء ذكـره في كتـاب قضـاة الأندلـس (المسـمى بكتـاب المرقبـة العليـا فيمـن يستحـق القضـاء والفتيـا)؛ حـول روايـة مقتـل القـاضي النبـاهي؛ إذ جـاء أنـه كـان رفقـة بعـض الفقهـاء ومنهـم الأديـب غانـم؛ الـذي تمكـن مـن النجـاة مـع الآخريـن. ويبـدو أن قصيـدة غانـم في رثـاء القـاضي الـذي سمـاه ابـن بسـام بابـن حسـون تتفـق مـع هـذا السيـاق؛ علمـا بـأن صاحـب القصيـدة يكنيـه فيهـا بـأبي عـلي ويسميـه بالحسيـن[1].

---

[1] وجـاء فيهـا:

((المَوْتُ أعربَ فِي أصحِ مَسَـاق   أنَّ المنِيـة شمـرَتْ عَنْ سـاق
المَوْتُ يُخبـرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِـهِ   وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْهـا سـاق
هـلاَّ توَاصَيْنـا بصـورَةِ حالِنـا   وَالنفـسُ ترقَى فِي لهًى وَتـرَاق
يَا آمِـلَ الدُّنيـا لبـاقِي عمـرِهِ   أقصِـرْ فما أمـلٌ عليهـا بـاق
حسنـاءُ زيٍ بِالنـهَى ممهـورَة   فـإذَا تعـرَّتْ مُتعـتْ بطـلاَق
مَعْشوقـة الحركـاتِ إلاَّ أنهـا   أفـعَى تـدُبُّ لأعشـق العشـاق
كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغـضٍّ شبيبـةٍ   كالغصْـنِ ماسَ بناضـرِ الأوْرَاق
وَموَقـرٍ لبسَ المَشيـبَ جَلاَلـة   بَحـر لباغِي العِلمِ عَـذبِ مَـذَاق
طرَقتـهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقـتْ   مِنـهُ الفضَائـلُ أيمَـا إطـرَاق
لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِمـاً   لـوَقى الحِمـامَ أبـا عـلِيّ وَاق
ولَى حسيـنٌ وَالمحامـدُ بعـدَهُ   كيـلاَ تقـاسِي جاحمَ الأشـوَاق
أسَفِي لرَيـة كنتَ عقدَ جَمَالِهـا   فابتـزَّ ذَاكَ العِقـد دُونَ وِفـاق
تزدَانُ مِنكَ بِحسـنِ مَا قدْ طوّقـت   زَيـنَ الحمامِ الـوُرق بِالأطـوَاق

هـذا مـا سمـح بـه المجـال فيمـا يخـص ذكـر الأدبـاء والعلمـاء الذيـن أظلتهـم الدولـة الحموديـة؛ عـلى أنـه مـن الضـروري الإشـارة إلى أن عهـد العـالي إدريـس بـن يحـيى كـان أكثـر ثـراء وازدهـارا مـن غيـره مـن العهـود الـتي حكـم فيهـا ملـوك آخـرون مـن بـني حمـود. وذلـك لأن الفتـرة الـتي حكـم خلالهـا العـالي تميـزت ـ عـلى الرغـم مـن قصرهـا وانقطاعهـا ـ بالحركـة الأدبيـة والثقافيـة النشيطـة؛ إذ كـان بـلاط تلـك الدولـة عبـارة عـن منتـدى أدبي؛ سمـح لكثيـر مـن الأدبـاء والشعـراء بعـرض إبداعهـم ونشـره وإذاعتـه. وكانـوا يجـدون كـل تشجيـع وتكريـم مـن قبـل أميـر الدولـة العـالي إدريـس بـن يحـيى بـن عـلي بـن حمـود.

عِلمٌ أعِيـنَ بفضلِ حِلـمٍ رَاجـحٍ   أخـذَ الأمـانَ لـهُ مِنَ الأخـلاَق

وَصبَاحَة وَسَمَاحَـة قسمـتْ لـهُ   رِزقـاً تبـارَك قاسـمُ الأرْزَاق

وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى   وَضياؤُهـا بـاقٍ عَـلى الآفـاق

أبقيـتَ فِي الدُّنيـا مآثـرَ ثـرَّةً   تبـلَى حُـلى الأيامِ وَهْيَ بـوَاق

قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُـارَكُ مَوْسمـاً   فأقامَ أوْحـشَ مِنْ غـدَاةِ فـرَاق

غيبـتَ عنهُ مَغِيـبَ بَدْرٍ كامـلٍ   وَالليـلُ أدْهـمُ ضـارِبٌ بـروَاق

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكسـوفُ مرتَـبٌ   قمـرٌ تـوَارَى فِي زَمانٍ محـاق

مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الـوَرَى   لـمْ يلقـنِي إلاَّ بِحزنـكَ لاَق

وَالنـاسُ مَحزُونـونَ فيـكَ كأنمـا   كـانَ اتفاقهـمْ عَـلى إصفـاق

الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866 -868.

وهكــذا ظلــت الحــال بيــن مــد وجــزر؛ حــتى انتــهى أمــر الحمودييــن نهائيــا في مالقــة سنــة 449هـ(1057م). وذلــك بعــد أن استــولى باديــس بــن حبــوس أميــر غرناطــة عليهــا؛ حيــث ضمهــا إلى مملكتــه. ثــم تــلا ذلــك خــروج آخــر أمــراء الدولــة الحموديــة محمــد بــن إدريــس (المستعــلي) منهــا؛ قاطعــا البحــر إلى مليلــة؛ أيــن بــقي بهــا أميــرا عليهــا حــتى حلــول تاريــخ وفاتــه سنــة 456هـ(1063م).

****

3)ـ دولــة بني سليمــان:

صاحــب هــذه الإمــارة هــو سليمــان بــن عبــد اللــه الكامــل ابــن الحســن المثــنى ابــن الحســن السبــط ابــن عــلي بــن أبي طالــب.[1] وعليــه فهــو أخــو إدريــس الأكبــر. هــذا وقــد تمكــن سليمــان مــن إنشــاء هــذه الدولــة في تلمســان ـ الــتي اعتبــرت قاعــدة للمغــرب الأوســط؛ وحاضــرة لهــذه الدولــة العلويــة ـ بفضــل عــون ومساعــدة بعــض القبائــل الزناتيــة المهيمنــة عــلى تلــك الربــوع. وتــم ذلــك عندمــا لجــأ إليهــا مؤســس الإمــارة (**سليمــان بــن عبــد اللــه**)؛ فــاراً مــن العباسييــن بالمشــرق.

---

[1] تضاربــت الأقــوال حــول الشخــص الــذي يمكــن أن تنســب إليــه إمــارة تلمســان؛ فــإن كــان معظــم المؤرخيــن والجغرافييــن يقولــون بأنــه سليمــان بــن عبــد اللــه؛ فــإن آخــرون يقولــون إنــه سليمــان بــن عبــد اللــه المنحــدر عــن الحسيــن بــن عــلي بــن أبي طالــب . مــن ذلــك مــا يقولــه الطبــري عــن سليمــان بــن عبــد اللــه؛ أنــه قتــل في وقعــة فــخ يــوم الترويــة في ســنة 169هــ. وفي المقابــل يــرى آخــرون أن الــذي تــولى إمــارة تلمســان هــو شخــص يــدعى محمــد؛ ولكنــه مــن أبنــاء الحسيــن وليــس مــن أبنــاء الحســن كمــا يتسلســل نســب بــني إدريــس بــن عبــد اللــه. ويقــول أيضــا آخــرون أنــه محمــد بــن سليمــان مــن ولــد الحســن بــن عــلي؛ وليــس سليمــان مــن قــدم إلى تلمســان. ويعتبــر البكــري أحــد القائليــن بهــذا القــول؛ الــذي يقــول عــن تلمســان: ((وهي دار مملكــة زناتــة، وموسطــة قبائــل البربــر، ومقصــد لتجــار الآفــاق؛ ونزلهــا محمــد بــن سليمــان بــن عبــد اللــه بــن حســن بــن عــلي بــن أبي طالــب)). أنظــر المغــرب، ص: 77. وللمزيــد مــن التوضيــح أنظــر كــل هــذه الخلافــات في كتــاب دولــة الأدارســة؛ لإسماعيــل العــربي، ص ص: 137 ـ 146. غيــر أن ابــن حــزم ـ وهــو مــن المحققيــن المدققيــن الثقــاة ـ يــرى أن الــذي أقــام الدولــة بتلمســان هــو سليمــان بــن عبــد اللــه بــن الحســن بــن الحســن بــن عــلي ابــن أبي طالــب. أنظــر جمهــرة أنســاب العــرب، ص: 48.

إذ تــم ذلــك عقــب مقتــل أخيــه إدريــس الأول؛[1] حيــث جــاء ــ هــو الآخــر ــ إلى هــذه الديــار بحثــا عــن الحمايــة والسلطــان. ولمــا وصــل إلى مشــارف إفريقيــة؛ عــرج جنوبــا؛ اتقــاء وخوفــا مــن عيــون أتبــاع العباسيــن وولاتهــم في القيــروان.

وتبعــا لذلــك فقــد وجــد في أراضي الرستميــن أمنــا وسلامــا؛ لا يمكــن توفرهمــا في شمــال البــلاد. وكــل مــا يمكــن قولــه في هــذا المجــال؛ هــو أن سليمــان بــن عبــد اللــه بعــد أن التحــق ببــلاد المغــرب؛ عقــب مــوت أخيــه إدريــس؛ كانــت محطتــه الأولى منطقــة تيهــرت؛ حيــث حــاول فيهــا كســب تأييــد القبائــل المتواجــدة بالمغــرب الأوســط؛ طمعــا في مناصرتهــم، ودعمهــم؛ غيــر أنهــم كذبــوه في بدايــة الأمــر، ولــم يصدقــوا خبــر انتسابــه لعــلي كــرم اللــه وجهــه. ولمــا لاحظــوا مــا يجــري مــن عمليــات مكثفــة للبحــث عنــه؛ مــن طــرف والي القيــروان؛ تيقنــت ــ عندئــذ ــ قبائــل المغــرب الأوســط مــن صدقــه، وصحــة نسبــه الهاشــمي.

---

[1] يقــول ابــن خلــدون: ((وأمــا سليمــان أخــو إدريــس الأكبــر؛ فإنــه فــر إلى المغــرب أيــام العباسيــن؛ فلحــق بجهــات تاهــرت بعــد مهلــك أخيــه إدريــس؛ وطلــب الأمــر هنــاك)). العبــر، مج: 4، ص: 34.

فتحقــق لـــه ــ حينهـــا ــ شـــرط أصحـــاب النصـــاب الملـــكي؛[1] واجتمعــت حولـــه قبائـــل زناتـــة؛ الـــتي كانـــت آنـــذاك في صـــراع مـــع أمـــراء الدولـــة الرستميـــة؛ بـــدءاً بفتنـــة ابـــن فنديـــن اليفـــرني الزنـــاتي، ومـــا تبعـــه مـــن وقائـــع دارت بيـــن الدولـــة الرستميـــة وشريحـــة عريضـــة مـــن قبيلـــة زناتـــة؛ ممـــن كانـــوا متمذهبيـــن بالواصليـــة. وعليـــه فقـــد اختـــارت شريحـــة عريضـــة مـــن القبائـــل الزناتيـــة مبايعـــة سليمـــان ابـــن عبـــد اللـــه، وإعـــلان الطاعـــة لـــه. وفي هـــذا يقـــول ابـــن خلـــدون: ((**وطلـــب الأمـــر هنـــاك** [أي سليمـــان]؛ **فاستنكـــره البرابـــر؛ وطلبـــه ولاة الأغالبـــة؛ فكـــان في طلبهـــم تصحيـــح نسبـــه. ولحـــق بتلمســـان فملكهـــا، وأذعنـــت لـــه زناتـــة وسائـــر قبائـــل البربـــر هنالـــك**)).[2] وبذلـــك تمكـــن سليمـــان مـــن إقامـــة ملكـــا ــ وإن كـــان محـــدود السيـــادة ــ بواسطـــة قبيلـــة زناتـــة في تلمســـان. ويمكـــن تحديـــد امتـــداد نفـــوذ هـــذه الدولـــة بمـــا كـــان يعـــرف في ذلـــك العهـــد بالمغـــرب الأوســـط.[3]

---

[1] أنظـــر في هـــذا مقدمـــة ابـــن خلـــدون، ((فصـــل في أنـــه يحـــدث لبعـــض أهـــل النصـــاب الملـــكي دولـــة تستغـــني عـــن العصبيـــة)). ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] العبـــر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقـــد ذكـــر عبـــد الرحمـــن الجيلالي بعـــض العلامـــات لحـــدود إمـــارة بـــني سليمـــان إذ قـــال: ((وإذا نظرنـــا إلى حـــدود الجزائـــر الإدريسيـــة وجدناهـــا لا تتعـــدى ــ مـــن جهـــة الشمـــال الشـــرقي ــ مدينـــة وهـــران ونهـــر الشلـــف، ومـــن جهـــة الجنـــوب سهـــول غريـــس بناحيـــة معسكـــر إلى جبـــال مديونـــة قبـــلي فـــاس؛ ولـــك أن تقـــول أنهـــا تمتـــد ــ عـــلى الساحـــل ــ مـــن الريـــف غربـــا إلى أرض الحضنـــة مـــن عمالـــة قسنطينـــة

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[1]

شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[1] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [إدريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة] ؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

وكان إدريس الثاني ـ قبل ذلك ـ قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين ـ آنئذ ـ كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته.

ومع هذا فلا بد من الاعتراف بأن هذا القول لا يخرج عن كونه قولا افتراضيا لا غير؛ وذلك بسبب اضطراب السند التاريخي إن وجد.. لأن الأحداث التاريخية لدولة سليمان بن عبد الله يكتنفها غموض كثيف؛ بسبب قلة المصادر التي يمكن أن تتكلم عنها بتوسع واستفاضة. وكل ما توفر لدينا حتى الآن؛ لا يتجاوز بعض المصادر الحاملة لمعلومات هزيلة؛ تشير إلى أمراء هذه الدولة، والمدن التي يحكمونها؛ بدون تفاصيل تذكر، ومن دون ذكر تواريخ يمكن الاعتماد عليها؛ في تحديد الفترات الزمنية التي حكم خلالها أمراء هذه الدولة.

هذا وتجمع المصادر المتوفرة على أن الذي خلف سليمان؛ على عرش تلمسان بعد وفاته هو ولده محمد. كما تقول المصادر أن محمدا هذا هو الذي استدعى ابن عمه إدريس الثاني إلى تلمسان؛ كي يساعده على إخضاع الأطراف الشرقية من مملكته، وتأديب الثائرين من القبائل الصفرية؛ وبالفعل لبى محمد بن إدريس طلب ابن عمه محمد بن سليمان وقدم إليه، كما سبقت الإشارة إليه؛ حيث ظل في تلك الربوع حتى استتب الأمر لبني سليمان بن عبد الله.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية**

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ـــ 36.

حاليا) غربا.[1] وكانوا بمثابة أمراء على مدن منعزلة؛ تقف كحصون في وجه منافسيهم: من بني الأغلب والرستميين. كما عرفت هذه الديار أيضا هجرات أخرى لأحفاد علي بن أبي طالب؛ وهو ما تؤكده الآثار الباقية بعدهم؛ ممثلة في أسماء الأماكن، والمدن الجزائرية؛ التي تنسب إليهم. كسوق حمزة **(البويرة حاليا)**، نسبة إلى أمير هاز حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان وفيه يقول ابن حزم: ((**ملك هاز من أرض المغرب،** [موقعها بالقرب من عين بوسيف الحالية] **وملك قطيعا من صنهاجة؛ وإليه ينسب سوق حمزة، وولده بها كثير؛ وكذلك أيضا ولد اخوته في تلك الجهة**)).[2] وحسبما يبدو فقد يكون السهل المعروف الآن بسهل بني سليمان منسوبا إلى سليمان بن عبد الله أيضا. ثم سوق إبراهيم؛ المنسوب كذلك إلى إبراهيم بن محمد بن سليمان؛ كما أن مدينة بوفريك الحالية؛ منسوبة إلى أبي فريك الكبير **[كتب في بعض المراجع خطأ ـ الكافر]**؛ وهو من نسل جعفر بن الحسن **(عم إدريس الأول)**؛ لأن منطقة متيجة ـ بقاعدتها قزرونة ـ كانت خاضعة لأبناء جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه.

---

[1] لمزيد من التدقيق أنظر إلى ما كتبه موسى لقبال عن بني سليمان في ديار الجزائر؛ في كتابه دور كتامة. ص ص: 209 ــ 213.

[2] جمهرة أنساب العرب، ص: 55.

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ـ بدورها ـ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ــ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ــ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ــ 146. 293 ــ 294.

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ــ كما سبق ذكره ــ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه
وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِـلِ

وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها
والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّـل

وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة
وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظَل)).

على أنه يستحسن التنبيه إلى دور البيئة القبلية المنغلقة التي كانت تحيط بهذه الدولة؛ الأمر الذي أبقاها محاطة بالغموض؛ الذي كان له تأثير حتى عندما اقتصر الأمر على مجرد السرد التاريخي للمظهر السياسي الخاص بها.

****

4)ـ الدولـــة الفاطميـــــة:[1]

ينتسـب حكـام هـذه الدولـة إلى فاطمـة بنـت محمـد صـلى اللـه عليـة وسلـم، وإلى جدهـم عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنـه. ويسـمى مؤسسهـا وأول ملوكهـا ـ حسبمـا ورد في كتـاب أخبـار ملـوك بـني عبيـد وسيرتهـم ـ هـو: عبيـد اللـه بـن أحمـد بـن الحسيـن ابـن محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد بـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي كـرم اللـه وجهـه.[2]

---

[1] ينحصـر البحـث هنـا في حـدود الدولـة الفاطميـة القائمـة ببـلاد المغـرب؛ وينتـهي الاهتمـام بهـا بـدءا بانتقـال الخليفـة المعـز إلى القاهـرة.

[2] تضاربـت الآقـوال حـول نسـب مؤسـس الدولـة الفاطميـة؛ ولـم تتفـق المصـادر عـلى سلسلـة واحـدة لآبائـه؛ وممـا يقولـه ابـن الأثيـر في هـذا البـاب: ((أول مـن ولي منهـم أبـو محمـد عبيـد اللـه؛ فقيـل: هـو محمـد بـن عبـد اللـه بـن ميمـون ابـن محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد بـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنهـم؛ ومـن ينسـب هـذا النسـب يجعلـه: عبـد اللـه بـن ميمـون القـداح الـذي ينسـب إليـه القداحيـة. وقيـل: هـو عبيـد اللـه بـن أحمـد بـن إسماعيـل الثـاني [ابـن] محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد ابـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي أبـن أبي طالـب رضي اللـه عنهـم. وقـد اختلـف العلمـاء في صحـة نسبـه؛ فقـال ـ هـو وأصحابـه القائلـون بإمامتـه إن نسبـه صحيـح عـلى مـا ذكرنـاه، ولـم يرتابـوا فيـه. وذهـب كثيـر مـن العلوييـن العالميـن بالأنسـاب إلى موافقتهـم أيضـا؛ ويشهـد بصحـة هـذا القـول مـا قالـه الشريـف الـرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَـوَانِ وَعِـنْدِي	مِقْـولٌ صـَارِمٌ وَانْـفٌ حـَمِيٌّ
ألبِـسُ الذلَّ فِي بـلاَدِ الأعـادِي	وَبِمِصْـرَ الخَلِيفَـةَ العَلـَوِيُّ
مَـنْ أبـُوهُ أبي، وَمَـوْلاَهُ مَوْلاَ	يَ إِذَا ضَامَنِي البَعِيدُ القَـصِيُّ
لَـفَّ عِـرْقِي بِعِرْقـِهِ سَيِّدَا النـَّا	سِ جَمِيعـاً: مُحَمـَّدٌ وَعَـلِيُّ
إنَّ ذُلِّـي بِذَلِـكَ الـْحَيِّ عِـزٌّ	وَأُوَامِي بِذَلِـكَ الرَّبْـعِ رِيُّ

هـذا وقـد اختلفـت المصـادر التاريخيـة في سـرد تسلسـل آبـاء هـذه الأسـرة الحاكمـة للدولـة الفاطمييـن؛ وحـتى نسبهـم الهاشـمي تضاربـت الآراء حولـه؛ فثمـة مـن أنكـره، وثمـة مـن صدقـه. ويبـدو أنهـم تعرضـوا لهجمـة إشاعـات، وحملـة تشويـه؛ نظمهـا ضدهـم أنصـار الدولـة العباسيـة المنافسـة لهـم؛[1] وقـد رأينـا أنهـم استعملـوا الأسلـوب نفسـه مـع إدريـس الثـاني؛ حيـث حاولـوا نشـر الشكـوك حـول انتسابـه لأبيـه إدريـس الأول؛ إذ كلفـوا مـن يطعـن في نسبـه.

ولكـن بعـض المحققيـن ــ مـن أهـل العلـم والمؤرخيـن المدققيـن ــ يميلـون إلى تصديـق نسبهـم الهاشـمي.[2]

وإنمـا لـم يودعهـا ديوانـه خوفـا)). الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص : 124 ــ 125.

[1] لمـن يريـد أن يستزيـد بخصـوص محاولـة التشهيـر بالفاطمييـن ــ مـن طـرف العباسييـن ــ ومـا نسـب إليهـم مـن تزويـر وانتحـال للنسـب النبـوي الشريـف؛ عليـه أن يراجـع مـا كتبـه ابـن الأثيـر في كتابـه الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص ص: 124 ــ 126. ومـا كتبـه المقريـزي في كتابـه اتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطمييـن الخلفـا، ص ص: 25 ــ 40.

[2] ومـن بينهـم ابـن خلـدون الـذي يقـول: ((ولا عبـرة بمـن أنكـر هـذا النسـب مـن أهـل القيـروان وغيرهـم؛ وبالمحضـر الـذي ثبـت ببغـداد ــ أيـام القـادر ــ بالطعـن في نسبهـم، وشهـد فيـه أعـلام الأئمـة ــ وقـد مـر ذكرهـم ــ فـإن كتـاب المعتضـد إلى ابـن الأغلـب بالقيـروان، وابـن مـدرار بسجلماسـة؛ يغريهـم بالقبـض عليـه؛ لمـا سـار إلى المغـرب شاهـد بصحـة نسبهـم. وشعـر الشريـف الـرضي مسجـل بذلـك. والذيـن شهـدوا في المحضـر؛ فشهادتهـم عـلى السمـاع؛ وهي مـا علمـت. وقـد كـان نسبهـم ببغـداد منكـرا عنـد أعـدائهـم شيعـة بـني العبـاس منـذ مائـة سنـة؛ فتلـون النـاس بمذهـب أهـل الدولـة؛ وجـاءت شهـادة عليـه؛ مـع أنهـا شهـادة عـلى النـفي. مـع أن طبيعـة الوجـود في الانقيـاد إليهـم؛ وظهـور كلمتهـم حـتى في

من ذلك ما قاله ابن الأثير: ((**ففي امتناع** [الشريف الرضيّ] **من الاعتذار، ومن أن يكتب طعنا في نسبهم مع الخوف؛ دليل قوي على صحة نسبهم؛ وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه** [أي نسب عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية] **فلم يرتابوا في صحته... وزعم القائلون بصحة نسبه؛ أن العلماء ممن كتب في المحضر** [الذي طلب منهم التوقيع عليه الخليفة العباسي القادر بالله] **إنما كتبوا خوفا وتقية، ومن لا علم عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله**)).[1]

ومما لا شك فيه؛ أن نجاح الأدارسة في بلاد المغرب جعل بقية العلويين بالمشرق يحسون بعطف سكان تلك الديار تجاه قضيتهم، وميلهم إليهم؛ بحكم النسب الذي يربطهم مع نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق أرسل سادس الأئمة العلويين؛ جعفر الصادق بن محمد الباقر داعيتين إلى المغرب هما: عبد الله بن علي بن أحمد المعروف باسم الحلواني، وأبو سفيان الحسن ابن القاسم. نزل الأول في أرض كتامة، والثاني في مرمجنة بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية الحديثة.

مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم. وأما من نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثما وسفسفة.)). العبر، مج: 4، ص: 64.

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 125.**

وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي ـ فيما بعد ـ إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف ـ كغيره ـ بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 ـ 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 ـ 54. ودور كتامة، ص ص: 216 ـ 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 ـ 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 ـ 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 ـ 76. ودور كتامة، ص ص: 231 ـ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه ـ في بداية الأمر ـ توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] **جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد ـ وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة ـ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ـ 610.**

العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ــ بعد انهزام الجميع عنه ــ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغتنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أمرائها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله، وزين له الشيطان التمادي على

الأخـــرى؛ فيظهـــر أن عشائـــر عجيســـة وزواوة تكـــون قـــد التحقـــت بالـــدعـــوة خـــلال عـــام 288هـ(900م).[1] أمـــا قـــبـــيـــلـــة تـــلـــكـــاتـــة الصنهاجيـــة ـ ذات القـــوة والنفـــوذ ـ فقـــد بقيـــت عـــلى الحيـــاد طيلـــة الفتـــرة الـــتي ناضـــل فيهـــا أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ في سبيـــل إقامـــة الدولـــة الفاطميـــة؛ كمـــا أن المصـــادر لـــم تذكـــر أي محاولـــة منـــه للتعـــرض لتلـــك الـــقـــبـــيـــلـــة الـــواسعـــة الانتشـــار. والـــذي بـــادر ـ حسبمـــا يبـــدو ـ إلى عقـــد صـــلات مـــع تلكاتـــة الصنهاجيـــة هـــو عبيـــد اللـــه المهـــدي نفســـه؛ وذلـــك لمـــا استتـــب الأمـــر في القيـــروان لعبيـــد لـــه، وظهـــرت أمامـــه الأخطـــار المحدقـــة بدولتـــه؛ تلـــك الأخطـــار الـــتي بـــدأت بوادرهـــا تبـــرز مـــن خـــلال تحركـــات القبائـــل الزناتيـــة؛ نتيجـــة لتحريـــض الأمويـيـــن بالأندلـــس؛ لـــذا فقـــد ســـعى ـ بكـــل جهـــده ـ لـــكي يكســـب ود خصـــوم الزناتييـــن التقليدييـــن؛ وهـــم بالطبـــع الصنهاجييـــن.

غيـــه وجهلـــه؛ وطوائـــف مـــن القبائـــل ممـــن قـــارب المدايـــن، وعاشـــر أهلهـــا، واستمالهـــم أمراؤهـــا؛ يدارونهـــم، ويكاتبونهـــم، ويتسللـــون إليهـــم في الســـر؛ وهـــم عـــلى ظاهـــر الطاعـــة، والوقـــوع تحـــت الدعـــوة في الجهـــر؛ تركـــوا عـــلى حالهـــم مستوريـــن؛ كمـــا تـــرك رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وعـــلى آلـــه مـــن كـــان بالمدينـــة وحولهـــا مـــن المنافقيـــن)). رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 121 ـ 122.

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 119 والعبـــر، مج: 4، ص: 69.

هذا وقد تضاعفت الحاجة إلى عونهم بعد استفحال أمر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ الذي كان على رأس القبائل الزناتية الثائرة على الدولة. ومن جهة أخرى فقد وجد المهدي نفسه في حاجة ماسة إلى التحالف مع عصبية أخرى ذات قوة تعادل قوة العصبية الكتامية؛ بغرض تحقيق شرط التوازن. وعليه فقد أخذ يفكر في هذا الأمر بعد أن بدأت فئات من قبيلة كتامة تلجأ إلى حركات فيها مشاغبة، وتمرد في بعض الأحيان. وهكذا شرع عبيد الله في إغراء قبيلة تلكاتة، والعمل على كسب ولائها. وبالفعل وجدت مساعيه أذنا صاغية لدى الصنهاجيين؛ نظرا لأنهم يميلون إلى أبناء علي بن أبي طالب من جهة؛ ونظرا ــ أيضا ــ لحاجتهم الماسة إلى حليف قوي يساعدهم على كبح جماح خصومهم الزناتيين من جهة أخرى. وهكذا توافقت مصالح الطرفين؛ فالتحمت قواهما، وتناسقت جهودهما في مواجهة العدو المشترك.[1]

---

[1] ويشير إلى هذا ابن خلدون بقوله: ((ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم [أي زيري بن مناد] للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم؛ واستطال بهم على عدوه من مغراوة؛ فكانوا ظهرا له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم؛ وتحيزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس؛ فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى ـ كما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولما كانت فتنة أبي يزيد؛ والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية؛ كان لزيري بن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ـ داعية الفاطميين ـ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ـ محمد بن خزر ـ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] وكان قد سقط ـ من قبل ـ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ـ 198.

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ـ حتما ـ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ـ بالدرجة الأولى ـ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

وهنا تصدق ــ أيضا ــ نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه ــ إلى جانب الدعوة الدينية ــ انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه ــ في هذه الحال ــ الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636، 638 ــ 642.

وهــذا هــو الــذي قصــده ابــن خلــدون؛ ضمــن: "**فصــل في أنــه يحــدث لبعــض أهــل النصــاب الملــكي دولــة؛ تستغــني عــن العصبيــة**".[1]

والدولــة الفاطميــة ـ مثلهــا مثــل الدولــة الإدريسيــة ـ جــاءت نشأتهــا نتيجــة لمــا وصلــت إليــه عصبيــة بــني هاشــم؛ مــن ضعــف وانقســام. فبعــد استفحــال أمــر بــني العبــاس، وسعيهــم لتصفيــة أبنــاء عــلي بــن أبي طالــب؛ التجــأ هــؤلاء إلى أقــاصي البــلاد وأطرافهــا؛ مستتريــن ـ خوفــا وتقيــة ـ مــن أذى أبنــاء عمومتهــم؛ بــني العبــاس. فوجــدوا في تلــك المناطــق النائيــة الأمــن والأنصــار معــا. وقــد عالــج ابــن خلــدون هــذه الظاهــرة ضمــن فصليــن في مقدمتــه: "**فصــل في انقســام الدولــة الواحــدة بدولتيــن**" و"**فصــل في كيفيــة طــروق الخلــل للدولــة**".[2] وكمــا سبقــت الإشــارة إليــه؛ فقــد تــم التوســع في شــرح رأي ابــن خلــدون في هــذا الموضــوع ضمــن دراســة مستقلــة وضعتهــا تحــت عنــوان "العصبيــة القبليــة ظاهــرة اجتماعيــة وتاريخيــة" حيــث تبــرز نظريــة ابــن خلــدون هــذه؛ الكيفيــة الــتي تسقــط بهــا الــدول؛ عندمــا يتســرب إليهــا الفســاد. وكيــف تبــدأ الدولــة بالتفكــك؛ حينمــا يتنكــر حاكمهــا لأهــل عصبيتــه؛ فيســعى لإذلالهــم، وتقليــم أظافرهــم.

---

[1] المقدمــة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

[2] نفســه، ص ص: 859 ـ 862. 863 ـ 867.

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعــد فتــرة تمكنــت مــن اكتســاح دولــة بــني الأغلــب. وهنــا فتــح البــاب عــلى مصراعيــه؛ أمــام قيــام دولــة الفاطميــين؛ عــلى أنقــاض دولــة الأغالبــة. وتــم هــذا ببيعــة عبيــد اللــه المهــدي عــام 297هـ(909م) بــرقــادة.

وجملــة القــول.. فقــد حققــت دولــة الفاطميــين مــا لــم تتمكــن دولــة الأدارســة مــن تحقيقــه. فالعصبيــة المناصــرة للدولــة الفاطميــة تفــوق العصبيــة المنحــازة للأدارســة بكثيــر. إذ كــان لدولــة الفاطميــين أتبــاع عددهــم لا يحــصى؛ مكنوهــا مــن التغلــب عــلى إفريقيــة والمغــرب كافــة؛ بــل مــدوا نفــوذ هــذه الدولــة إلى بلــدان المشــرق أيضــا؛ حيــث شمــل مصــر والشــام والحجــاز. وفي حــالات خاصــة؛ وصــل نفــوذ الدولــة الفاطميــة إلى بغــداد نفسهــا؛ إذ التهمــت الــدول المتواجــدة في تلــك الربــوع كلهــا. فغــدت الخلافــة الفاطميــة تزاحــم الخلافــة العباســية، وتهــدد وجودهــا في عقــر دارهــا. ومــرد هــذا ــ طبعــا ــ يعــود إلى مــا ذكــره ابــن خلــدون ضمــن: **"فصــل في أن عظــم الدولــة واتســاع نطاقهــا وطــول أمدهــا؛ على نسبــة القائميــن بهــا؛ مــن القلــة والكثــرة".**[1]

---

[1] المقدمــة، ج: 2، ص ص: 644 ــ 646.

ومـــن جهـــة أخـــرى يمكـــن ملاحظـــة صـــدق نظريـــة ابـــن خلـــدون؛ مـــن خـــلال مـــا قـــرره ضمـــن: "**فصـــل في أن الدولـــة المستجـدة إنمـــا تستـــولي عـــلى الدولـــة المستقـــرة بالمطاولـــة؛ لا بالمناجـــزة**".[1] حيـــث صنـــف الـــدول المستجـــدة إلى صنفيـــن: الصنـــف الأول؛ تنشـــأ الدولـــة فيـــه بالأطـــراف؛ الـــتي تكـــون الدولـــة المستقـــرة عاجـــزة عـــن حمايتهـــا. وهـــذا الصنـــف قاصـــر ومحـــدود الفعاليـــة. وإذا تأملنـــا في أحـــداث الدولـــة الإدريسيـــة يتبيـــن لنـــا بأنهـــا تمثـــل الصنـــف الأول هـــذا.

أمـــا الصنـــف الثـــاني؛ فهـــو الـــذي يعتمـــد عـــلى الدعـــوة والدعـــاة؛ بغـــرض التعبئـــة المعنويـــة الموجهـــة ســـواء إلى الحلفـــاء أو الخصـــوم. ويتـــم ذلـــك ــ عـــادة ــ بـــأن يقـــوم أولئـــك الدعـــاة بنشـــر مفاهيـــم وأفكـــار تستنـــد إلى أصـــول مذهـــب معيـــن بأساليـــب جذابـــة ومثيـــرة للعواطـــف؛ عامليـــن كـــل جهودهـــم لـــكي تحققـــون الغـــرض المطلـــوب مـــن خـــلال بـــث مؤثـــرات نفسيـــة تلهـــب قلـــوب العامـــة، ومـــن خـــلال طـــرح حجـــج منطقيـــة يمكنهـــا أن تستميـــل الخاصـــة؛ ثـــم العمـــل بكـــل القـــوى عـــلى شحـــذ الهمـــم وبعـــث روح التضحيـــة في النفـــوس، تشجيـــع المترددـيـــن وحثهـــم عـــلى العصيـــان والثـــورة؛ ضـــد كـــل مـــا هـــو قائـــم.

---

[1] **المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ـ طبعا ـ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ـ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد اللـه المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد (أو محمد في بعض الأقوال) بن الحسين؛ حيث بقي في (عَسْكر مُكرَم) والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف

[1] حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد اللـه الشيعي؛ ببني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغُج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين اللـه؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ـ 877.

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ــ عندئذ ــ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ــ أو ابن الأغلب ــ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]**...ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ــ 240.

[2] وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ـ أي يوم الجمعة ـ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نصِّ هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: ((**اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين**)).[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ـ 250.

غيـــر أن رأي ابـــن عـــذاري يخالـــف مـــا ذكـــره النعمـــان إذ يـــرى أن المهـــدي اتخـــذ بعـــض الإجـــراءات الـــتي توضـــح تشيـــع عبيـــد اللـــه بشكـــل متطـــرف، وينســـب إليـــه العـــداء لبقيـــة المذاهـــب السنيـــة.[1] كمـــا أن مـــا جـــاء في كتـــاب القـــاضي النعمـــان مـــن أشعـــار مـــدح بهـــا الشعـــراء المهـــدي؛ لا يؤخـــذ عليهـــا بمكـــره؛ إلا أن ابـــن عـــذاري لـــه نظـــرة أخـــرى إذ نســـب إلى بعضهـــم شعـــرا ــ في مـــدح المهـــدي ــ يدخـــل في عـــداد النصـــوص المارقـــة الداعيـــة للكفـــر.[2]

---

[1] يقـــول ابـــن عـــذاري: ((وأقـــر عـــلى عمالـــة القيـــروان الحســـن بـــن أبي خِنْزِيـــر، وعـــلى القضـــاء بهـــا المَـــرُّوذِي. وأمـــر أن تُقلـــع مـــن المساجـــد والمواجـــل والقصـــور والقناطـــر أسمـــاء الذيـــن بنوهـــا؛ وكتـــب عليهـــا اسمـــه. وأظهـــر عُبَيْـــد اللـــه التشيُّـــع القبيـــح، وســـب أصحـــاب النـــبي ــ صلعـــم ــ وأزواجـــه؛ حـــاشى عـــلي بـــن أبي طالـــب، والمقـــداد بـــن الأســـود، وعمـــار بـــن ياســـر، وسلمـــان الفـــارسي، وأبي ذر الغفـــاري؛ وزعـــم أن أصحـــاب النـــبي ــ عـــم ــ ارتـــدوا بعـــده غيـــر هـــؤلاء الذيـــن سميناهـــم. ومنـــع المـــروذي الفقهـــاء أن يفـــتي أحدهـــم إلا بمذهـــب زعـــم انـــه مذهـــب جعفـــر بـــن محمـــد؛ منـــه سُقُـــوطُ الحِنْـــث عمـــن طلـــق البَتَّـــةِ، وإحاطـــة البنـــات بالميـــراث، وأشيـــاء كثيـــرة يطـــول ذكرهـــا)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 159 ــ 160. ويقـــول محمـــد الصنهـــاجي أيضـــا في هـــذا البـــاب: ((وكـــان مـــن جملـــة مـــا أخـــذت عبيـــد اللـــه أن قطـــع صـــلاة التراويـــح في شهـــر رمضـــان، وأمـــر بصيـــام يوميـــن قبلـــه، وقنـــت في صـــلاة الجمعـــة قبـــل الركـــوع، وجهـــر بالبسملـــة في الصـــلاة المكتوبـــة، وأسقـــط مـــن أذان صـــلاة الصبـــح "الصـــلاة خيـــر مـــن النـــوم"، وزاد حي خيـــر، محمـــد وعـــلي خيـــر البشـــر العمـــل)). أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد وسيرتهـــم، ص: 27.

[2] مـــن ذلـــك مـــا زعمـــوا أنـــه لمحمـــد البديـــل الـــذي يقـــول (بسيـــط):

حَـلَّ برَقَّـــادَةَ المَسِيـــحُ   حَـلَّ بِهَـا آدَمُ وَنُـــوحُ
حـلَّ بِهَـا أَحْمَـد المُصَـفَّى   حـلَّ بهـا الكَبْـشُ وَالذَّبِيـحُ
حَـلَّ بِهَـا اللـَّهُ ذُو المَعَـالِي   وكُـلُّ شَـيْءٍ سِـوَاهُ رِيـحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: ((**هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده**)).[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا   لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَة
يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ   مَنْ كَاتِب البِطَاقَة؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.

وهنا يصدق رأي ابن خلدون أيضا حين كتب: "**فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد**"[1] إذ يرى أن ذلك يتم بعد أن يتحقق الملك لرئيس العصبية البارز بين الجميع؛ عندئذ يقتضي منه خلق الكبر والأنفة المسيطر عليه ـ وهذان الصفتان من خواص الطبيعة الحيوانية ـ إلى السقوط في الغيرة والحرص على الاستحواذ على ما اكتسبه؛ فلا يرضى بمشاركة غيره في ذلك المجد؛ الذي غدا بين يديه؛ وعليه يسعى إلى إبعاد الطامعين في المشاركة، والمزاحمين له في تحقيق المجد؛ ولما يصطدم بمقاومة ما أو أي اعتراض من طرف شركائه في الأمر؛ يحول اهتمامه إليهم، ويسلط آلة القمع والدمار ضدهم.

لذا فلا غرابة أن يكون أول ضحايا القمع المسلط من المهدي هو معاونه وداعيته، وصاحب الفضل عليه أبو عبد الله الشيعي؛ إذ وصل به حد الانتقام إلى قتله؛ بعد عام من بيعته؛ أي في سنة 298هـ(910م). وكان الذي نفذ أمر المهدي في أبي عبد الشيعي هو رفيقه وتلميذه القائد الكتامي عروبة بن يوسف.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 649 ـ 650.

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ـ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ـ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ـ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ـ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

[2] الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

أنـــه نـــبي.[1] ولـــم تـــدم هـــذه الثـــورة؛ إذ جـــرد المهـــدي جيشـــا بقيـــادة ولـــده أبي القاســـم محمـــد بـــن عبيـــد اللـــه، وكـــان جـــل أفـــراده مـــن قبيلـــة كتامـــة؛ فأخمـــدوا تلـــك الفتنـــة. وبهـــذا يتضـــح بـــأن قبيلـــة كتامـــة لـــم تتأثـــر بذلـــك الانقســـام؛ إذ سرعـــان مـــا عـــادت إلى الطاعـــة، وإلى خدمـــة الدولـــة الفاطميـــة. ويبـــدو أن المهـــدي قـــد شغلهـــم بالفتوحـــات شرقـــا وغربـــا؛ فتركـــوا المشاغبـــات؛ واتجهـــوا صـــوب الفوائـــد الـــتي تأتيهـــم مـــن الحـــروب الخارجيـــة. وقـــد كانـــت أيـــام الدولـــة الفاطميـــة بالمغـــرب مشحونـــة بالحـــروب والفتـــن والثـــورات؛ الأمـــر الـــذي جعلهـــا لا تهنـــأ بفتـــرة مـــن الاستقـــرار والهـــدوء. وأخطـــر الثـــورات عـــلى الإطـــلاق هي الـــتي نشبـــت في عهـــد أبي القاســـم القائـــم بأمـــر اللـــه؛ خليفـــة المهـــدي؛ وهي ثـــورة الخـــوارج؛[2] بقيـــادة أبي يزيـــد مخلـــد بـــن كيـــداد المعـــروف بصاحـــب الحمـــار؛ إذ كـــادت هـــذه الثـــورة أن تقـــضي عـــلى الدولـــة الفاطميـــة نهائيـــا؛ لـــولا الانقسامـــات الـــتي حدثـــت في صفـــوف القبائـــل الثائـــرة.

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص: 273. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 166 ــ 167.

[2] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 277 ــ 279. وأخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص ص: 29 ــ 34. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. والعبـــر، مج: 4، ص ص: 84 ــ 93. مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. واتعـــاظ الحنفـــا، ص ص: 109 ــ 125.

هــذا ولــم يهنــأ عبيــد اللـــه طويـــلا؛ إذ انشغــل بعــض الوقــت في إخمـــاد ثـــورات عديـــدة قامــت هنـــا وهنـــاك؛ مثـــل ثـــورة الكتاميـيـــن بالقيـــروان، وثورتهــم كذلـــك ببلادهـــم خلـــف الصـــبي المدعـــو كـــادو بـــن معـــارك، وثـــورة في صقليـــة بقيـــادة ابـــن وهـــب، وثـــورة أخـــرى بصقليـــة كذلـــك بقيـــادة أحمـــد بـــن زيـــادة اللـــه ابـــن قـــرْهـــب وثـــورة في تيهـــرت قامـــت بهـــا جماعـــة مـــن قبيلـــة زناتـــة، وثـــورة هـــوارة بطرابلـــس بقيـــادة أبي هـــارون الهـــواري، وثـــورة أهـــل طرابلـــس أيضـــا بقيـــادة محمـــد بـــن إسحـــاق المعـــروف بابـــن القرليـــن وعصيـــان مـــن طـــرف زناتـــة ولمايـــة. هـــذا بالإضافـــة إلى الحمـــلات العسكريـــة الـــتي قـــام بهـــا أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي المغـــرب الأوســـط، ومـــا قـــام بـــه أبـــو القاســـم بـــن المهـــدي مـــن حمـــلات أيضـــا ضـــد قبائـــل عديـــدة هنـــا وهنـــاك.

ولـــم يكـــن هـــدف الفاطمييـــن هـــو الاكتفـــاء بتشييـــد دولـــة لهـــم ببـــلاد المغـــرب فحســـب ـــ كمـــا كـــان الحـــال بالنسبـــة للأدارســـة ـــ بـــل كانـــوا يتخـــذون مـــن دولتهـــم بالمغـــرب خطـــوة تكتيكيـــة؛ في سبيـــل تحقيـــق هـــدف استراتيـــجي؛ وهـــو الإطاحـــة بالخلافـــة العباسيـــة، وقيـــام دولتهـــم بـــدلا منهـــا. لـــذا فقـــد شـــرع المهـــدي منـــذ سنـــة 301هــ(913م) في غـــزو مصـــر. وكانـــت أولى خطـــوات تمـــت في هـــذا السبيـــل؛ هـــي أوامـــره بخـــروج حباســـة ابـــن يوســـف في أسطـــول نحـــو مصـــر؛ حيـــث احتـــل المـــدن المتاخمـــة لمصـــر في برقـــة؛ مثـــل ســـرت

وإجدابية وبرقة؛ كما اشتبك مع جيش قدم من المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ فانتهى السجال بينهما أخيرا بهزيمة جيش مصر. ثم تقدم إلى الإسكندرية بحرا؛ حيث تغلب عليها. وبعد ذلك تقدم حباسة نحو مصر؛ أين فتح بعض الحصون هناك؛ إلى أن لحق به أبو القاسم بن عبيد الله في جيش عظيم؛ فاحتل الإسكندرية سنة 302هـ(914م)؛ ثم تقدم أبو القاسم إلى الفيوم؛ أين عسكر بها.[1] وهناك وصلته الأخبار بوصول القائد العباسي مؤنس الخادم إلى مصر بغرض محاربة جيش الفاطميين. عندها أرسل أبو القاسم إلى حباسة يطلب منه الالتحاق به، وتسليم أمر الجيش إلى أبي فريدن؛ فغضب حباسة بسبب ذلك؛ وقال: ((**لما أشرفت على أخذ البلد؛ يفوز أبو فريدن بخيره وذكره**)).[2]وكان رد فعله أنه عاد مع مجموعة صغيرة إلى المغرب.[3]

---

[1] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 147. واتعاظ الحنفا،، ص ص: 98 ـ 100. والنجوم الزاهرة، ج: 3، ص ص: 172 ـ 173. 186 ـ 187. 196.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 173.

[3] وكانت هذه الحادثة هي السبب في عصيان حباسة وأخيه عروبة؛ إذ خرجا عن طاعة الدولة ؛ فانتهى أمرهما إلى الإعدام.

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ـ في الوقت ذاته ـ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] **تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.**

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثـالاً لِطائِـرٍ

لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنـبُ

من بين أولئك المؤرخين المقريزي؛ الذي يكمل حديثه فيقول: ((**فحرك همته** [أي همة أبي القاسم] **هذا البيت؛ فقال: "والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه ـ إن قدرت ـ وإلاّ أهلك دونه". وكابد على ديار مصر من الحروب أهوالا، ومات ولم يظفر بها؛ وأوصى ابنه المنصور... وكان الظافر بها المعز**)).[1] وحتى أن صحت حكاية هذه القصيدة؛ فلا يمكن أن يقوم المهدي وولده أبو القاسم بشن حرب على دولة بني العباس امتدت زمنيا بعشرات السنين، وكلفت الدولة آلاف الأرواح، وأموالا لا تحصى؛ لا لشيء سوى أنه أصر ـ بعناد ونكاية في القادر العباسي ـ أن يستولي على صدر الطائر ورأسه..!! فهذا التعليل فيه كثير من الأصباغ الأسطورية ما يضحك. أما الحقيقة فتكمن في الرغبة الجامحة لدى الفاطميين للإطاحة بالخلافة العباسية ـ التي يرون فيها دولة مغتصبة لحقوق العلويين ـ حتى يتسنى لهم إقامة الخلافة الفاطمية العلوية الشرعية في نظرهم.

[1] اتعاظ الحنفا، ص: 99.

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 82.

وفي سنة 322هـ(933م) توفي عبيد الله المهدي؛ بعد أن حكم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب مدة أربع وعشرين سنة؛[1] فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته مدة من الزمن قيل أنها وصلت إلى السنة تقريبا؛ بينما يقول أبي عبيد الله محمد الصنهاجي أنها لم تتجاوز الشهر؛ وذلك خوفا من حدوث فتنة أو بعض الاضطرابات[2].

ـ حكومة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله:

ثمة من يقول أن اسمه عبد الرحمن أو نزار وليس محمدا. وتلقب من ألقاب الخلافة بلقب القائم بأمر الله. وولد هو الآخر في سلمية بأرض الشام؛ وقدم إلى المغرب رفقة والده؛ حيث تعرض لنفس الظروف التي عرفها والده؛ من خوف وتستر وسجن ..الخ. تولى شئون الدولة بعد ممات والده؛ دون أن يعلن موته في بداية الأمر؛ خوفا من حدوث فتن.

---

[1] قال محمد الصنهاجي: ((وتوفي عبيد الله يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322هـ؛ وكسف القمر في تلك الليلة كسوفا كليا (؟!). وعمره اثنتان وستون سنة ـ أو ثلاث وستون ـ وكانت وفاته من دواء سقاه إياه ابن الجزار؛ يقال أنه حب (السورنجان)؛ لنقرس كان يشكوه؛ وكان إسحاق الإسرائيلي نهاه عنه، وأعلمه أنه يجد على إثره إفاقة، ثم يشتد عليه. وقد يتسبب في هلاكه. فلم يقبل منه قوله؛ لشدة ما يجده؛ فوجد تلك الإفاقة ثم مات)) أخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 26 ـ 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 27. والكامل، ج: 6، ص: 238.

ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[1] وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[2] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ــ آنئذ ــ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس.

---

[1] قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

[2] يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ـ في الحقيقة ـ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ـ في نشاطه ـ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] الكامل، ج: 6، ص : 238.

[2] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 217.

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك للأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَـمَّ بِسُوسَةَ وَبَـغَى عَلَيْهَا وَلَكِـنَّ الإلَـهَ لَهَا نَصِيرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: ((**فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد**)).[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: 93.

[2] العبر، مج: 4، ص: 89.

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ	وَأبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ	قرْداً وَلَكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ	وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

ألَمَّ بِسُوسَة وَبَغَى عَلَيْهَا	وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَة سُوسَة لِلْمَغْرِب ثغْرٌ	يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا	كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَة وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلَّ شَيْءٍ	بِسُوسَة بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأُمُورُ

لرَأيتَ مَا عَقَـدَ اللعِيــ ـــنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقـــال أحدهـــم في أخـــرى:

... فَسَلَختهُ مِنْ جِلــدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْــوَ المَزَاوِدْ

وَضَرَبَتــــهُ مَثلاً يَسِيــ ـــر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ

وَرَدَتْ بــــهِ أطماعــــهُ وَظُنونــــهُ شرَّ المـــوَارِدْ

وزحـــف المنصـــور نحـــو تيهـــرت ــ بعـــد القبـــض عـــلى أبي يزيـــد ــ حيـــث ضبـــط الأمـــور بهـــا؛ وانتقـــم مـــن الخارجيـــن عـــن طاعـــة الدولـــة الفاطميـــة؛ الأمـــوات[1] منهـــم والأحيـــاء. وكذلـــك الحـــال في القيـــروان؛ إذ نقـــل ابـــن عـــذاري عـــن ابـــن حمـــادوه خبـــر عمليـــات التنكيـــل الـــتي سلطهـــا المنصـــور عـــلى بعـــض سكـــان القيـــروان.[2] ومـــن إنجـــازات المنصـــور العمرانيـــة تشييـــده لمدينـــة صبـــرة الـــتي سماهـــا المنصوريـــة؛ حيـــث أمـــر بالبـــدء في بنائهـــا سنـــة 336هــ(947م)؛ إذ انتقـــل إليهـــا تاركـــا المهديـــة، الـــتي تهدمـــت جـــل أحياؤهـــا.

---

[1] قـــال محمـــد الصنهـــاجي: ((ثـــم انصـــرف إسماعيـــل إلى المسيلـــة، وتوجـــه منهـــا إلى تاهـــرت يـــوم الثلاثـــاء، لســـت بقيـــن مـــن صفـــر مـــن هـــذه السنـــة؛ فلمـــا وصـــل إليهـــا أمـــر بنبـــش عظـــام مصالـــة وفضـــل بـــني حبـــوس، وأحرقهـــا بالنـــار، وأحـــرق منبـــر جامعهـــا؛ لكونـــه خطـــب عليـــه لعبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد (الخليفـــة الناصـــر الأمـــوي) وأقـــام بهـــا أيامـــا وولى عليهـــا)). أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص: 45.

[2] قال ابـــن عـــذاري: ((وقـــال ابـــن حمـــادوه: "ولمـــا ظفـــر بـــأبي يزيـــد؛ نهـــض إلى القيـــروان؛ فدخلهـــا في هـــذه السنـــة؛ فقتـــل مـــن أهلهـــا خلقـــا، وعـــذب آخريـــن؛ ولـــم يزالـــوا معـــه في الامتحـــان إلى أن هلـــك")). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 220.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي ــ لعنه الله ــ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ــ رحمه الله ــ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ــ لعنه الله ــ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.

ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:

خلف المعز لدين الله والده إسماعيل في سدة الملك بإفريقية وبلاد المغرب سنة 341هـ(952م) كما جاء في أشهر الأقوال. وكان مولد هذا الخليفة بالمهدية سنة 319هـ(931هـ) ولما ولي الخلافة كان عمره في حدود اثنين وعشرين سنة. ويعتبر المعز من أشهر الخلفاء الفاطميين على الإطلاق؛ إذ شاع ذكره في العالم الإسلامي؛ نظرا لكونه أول من تغلب على مصر بالكامل، ونقل مركز الخلافة الفاطمية إليها. وتقول المصادر التاريخية أنه بدأ عهده في سنة 342هـ(953م) بالخروج إلى جبل أوراس في جيش عظيم؛ بغرض تأديب وإخضاع من بقي متمردا عن الدولة؛ من أتباع أبي يزيد. فسلط غضبه على قبيلتي: هوارة ومليلة المنحازتين ـ سابقا ـ إلى أبي يزيد؛ ولم تثنهم موته عن مواصلة العصيان، والخروج عن طاعة الدولة الفاطمية. وبعد أن حقق المعز هدفه نحو الخوارج ـ من بقايا أنصار أبي يزيد ـ اتجه صوب المغرب الأقصى؛ حيث بعث إلى تلك الديار سنة 347هـ(958م) خادمه الوفي ـ الذي بدأ نجمه يسطع؛ جوهر الكاتب ـ قصد تطويع القبائل المتمردة من زناتة ومكناسة وغيرهما.[1]

---

[1] قال المقريزي في تلخيص لخبر ابن الأثير: ((وفي سنة سبع وأربعين عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة؛ فسيره في صفر منها على جيش كثيف؛ فيهم الأمير زيري بن مناد

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ـ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ـ 139.

وتحــرك الجيــش الفاتــح مــن القيــروان نحــو مصــر يــوم السبــت رابــع عشــر شهــر ربيــع الأول مــن سنــة ثمــان وخمسيــن وثلاثمائــة؛ فوصــل إلى مصــر في يــوم الثلاثــاء ثامــن عشــر شعبــان مــن السنــة نفسهــا.[1] وقــال محمــد بــن هــاني الأندلــسي مودعــا الجيــش ومادحــا جوهــر الكاتــب في قصيــدة طويلــة نذكــر منهــا:

رَأيتُ بِعيــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمــعُ
وَقدْ رَاعــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ

غــدَاة كــأنَّ الأفــقَ ســدَّ بمثلــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطــَعُ

فلــمْ أدْرِ إذْ سلمــتُ كيــفَ أشيــعُ
ولــمْ أدْرِ إذْ شيعــتُ كيــفَ أوَدِّعُ

وكيفَ أخُوضُ الجَيْشَ وَالجَيْشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قــادَهُ الدَّهــرُ مُولــعُ

وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسِيطــةِ مَوْضِــعُ

ألاَ إنَّ هذَا حَشــدُ مَنْ لمْ يــذُقْ لــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجــعُ

---

[1] النجــوم الزاهــرة، ج: 4، ص: 28.

نَصِيحَتـــهُ لِلمُلـــكِ سَدَّتْ مَذَاهِـــبِي

وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَـــعُ

فقدْ ضَرِعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأَتْ

فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْـــرَعُ

فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكـــرِ جَوْهَـــرٍ

تخبُّ المَطَايـــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِـــعُ

تَسيـــرُ الجبـــالُ الجامِـدَاتُ بسيـــرِهِ

وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَترْكَـــعُ

إذَا حَـــلَّ فِي أرْضٍ بَنَاهـــا مَدَائنـــاً

وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقـــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الـــدُّجَى

فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصرِ تَرْدِي وَتَمـــزَعُ

فلاَحَ لها مِنْ وَجْهـــهِ البدْرُ طَالِعـــاً

وَفِي خَـــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلُـــعُ

وَأضْـــحَى مُـــرَدًّى بِالنجـــادِ كأنـــهُ

هِزَبرُ عَرِينٍ ضَـــمَّ جَنبيـــهِ أشجَـــعُ

فكبـــرَتِ الفرْســـانُ للـــهِ إذْ بـــدَا

وَظـــلَّ السِّـــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقـــعُ

ثـــم أضـــاف:

فسِـــرْ أيها الملـــكُ المطاعُ مُؤَيـــداً

فلِدِّيــــــنِ وَالدُّنيـــا إليـــكَ تطلــــــعُ

وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقين خيفـــة

تَكادُ لَهـــا دَارُ السَّـــلاَمِ تضَعضـــعُ

وَأعطـــتْ فِلسْطِينُ القِيـــادَ وَأهلُهـــا

فلـــمْ يبـــقَ مِنهـــا جَانـــبٌ يَتمَنـــعُ

وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَـــا

بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنـــكَ مَفـــزَعُ

وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللـــهِ يَدْعوكَ وَحـــدَهُ

غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ

بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غَيْرَهُ

فـــلاَ أحـــدٌ إلاَّ يـــذِلُّ وَيَخضـــعُ

وَإنَّ بأهـــلِ الأرْضِ فقـــراً وَفاقـــة

إلَيـــكَ وَكلُّ الناسِ آتيـــكَ مهطـــعُ

ألاَ إنمَا البُرْهــانُ مَا أنتَ مُوضِــحٌ

مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِــعُ

رَحَلــتَ إلَى الفسْطاطِ أيمنَ رِحْلــةٍ

بأيمنِ فــالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِــعُ

وَلمَّا حَثَثــتَ الجَيــشَ لاَحَ لأهلِــهِ

طرِيــقٌ إلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثـم قــال:

وَمَا جهِلتْ مِصرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا

بِأنــكَ ذَاكَ الهبــرِزِيُّ السميــذَعُ

وَأنــكَ دُونَ النــاسِ فاتــحُ قفلِهــا

فأنــتَ لهــا المرْجــوُّ وَالمُتوَقــعُ

فإنْ يــكُ فِي مِصرٍ رِجالُ حلومِهــا

فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ

وَيممهــمْ مَــنْ لاَ يَغيــرُ بنِعمــةٍ

فيسْلبهــمْ لكِــنْ يَزِيــدُ فيوسِــــعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيذيين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم

---

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير ــ يومئذ ــ جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في= =حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصياديين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله"؛ فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 ــ 31.

الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي؛ كمـــا ألـــزم المؤذنيـــن بإتبـــاع نـــص الأذان المتبـــع عنـــد الشيعـــة؛ وأمـــر بتـــرك شعـــار الســـواد، ولبـــس الأبيـــض مـــن اللبـــاس. وبعدهـــا أرســـل بالبشـــرى إلى المعـــز يعلمـــه بما فتـــح اللـــه لـــه. فوصلـــت الأخبـــار إلى القيـــروان في رمضـــان مـــن سنـــة 358هــ(968م).

وبهـــذا يكـــون قـــد امتـــد الزمـــن بالخلفـــاء الفاطمييـــن ببـــلاد المغـــرب؛ حـــتى حـــل عهـــد المعـــز لديـــن اللـــه معـــد بـــن المنصـــور ــ وهـــو رابـــع ملوكهـــم ــ حيـــث استطاعـــت الدولـــة الفاطميـــة ــ في عهـــد هـــذا الخليفـــة ــ تحقيـــق أعظـــم إنجازاتهـــا السياسيـــة؛ إذ تمكنـــت مـــن نشـــر سلطانهـــا عـــلى ديـــار مصـــر كلهـــا؛ ثـــم الحجـــاز وبـــلاد الشـــام بعـــد ذلـــك؛ ومـــن ثمـــة أصبحـــت تهـــدد الخلافـــة العباسيـــة بحـــق. ومـــا أن وصلـــت البشائـــر بالفتـــح؛ حـــتى أنشـــد شاعـــر البـــلاط الفاطـــمي؛ محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي قصيدتـــه الشهيـــرة الـــتي قـــال فيهـــا مادحـــا الخليفـــة المعـــز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْـــرُ
فقلْ لِبنِي العبـــاسِ قدْ قضِيَ الأمـــرُ

وَقدْ جـــاوَزَ الإسكِندَريـــة جوْهـــرٌ
تُطالعـــهُ البشرَى وَيَقدُمـــهُ النصْـــرُ

وَقدْ أوفـدَتْ مِصـــرٌ إليهِ وُفودَهـــا
وَزيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ

وَأيدِيكــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صِفــرُ

فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خــلاَ

فذَلكَ عصرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْــرُ

أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكــمْ

فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ

وَقدْ أشرَفَــتْ خيلُ الإلـــهِ طوَالعــاً

علَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ

وَذَا ابنُ نبيِّ اللـــهِ يطلـــبُ وِتـــرَهُ

وَكانَ حـــرٍ أنْ لاَ يضيعَ لـــهُ وِتـــرُ

ذَرُوا الورْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِـــهِ

فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ

أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَـــا

تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهـــا سِتــرُ

وَمـــا هِيَ إلاَّ آيـــة بعـــدَ آيـــةٍ

وَنـــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكــمُ النـــذرُ

فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعـــوُوا

إلَى مَلِكٍ فِي كفــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعــوا إمامــاً للأئمــةِ فاضــلاً

كما كانتِ الأعمــالُ يفضُلهــا البــرُّ

رِدُوا سَاقيــاً لاَ تنزِفــونَ حِياضــهُ

جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الــذَّرُّ

فإنْ تتبعــوهُ فهوَ موْلاَكــمُ الــذِي

لهُ برَســولِ اللــهِ دُونكــمُ الفخــرُ

وَإلاَّ فبعـــداً لِلبعِيـــدِ فبينـــهُ

وَبينكــمُ مــا لاَ يقرِّبــهُ الدَّهـــرُ

أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ

تنزَّلــتِ الآيــاتُ وَالســوَرُ الغــرُّ؟

ومــا أن استقــر جوهــر في مصــر؛ حــتى بــادر إلى بنــاء جامــع الأزهــر، وبعــض الأحيــاء مــن المدينــة الــتي سماهــا القاهــرة؛ حســب وصيــة المعــز. ثــم جــرد في سنــة 359هــ(969م) جيشــا بقيــادة جعفــر بــن فــلاح الكتــامي لفتــح بــلاد الشــام؛ فكــان لــه ذلــك؛ إذ تمكــن ذلــك القائــد الكتــامي مــن أســر الحســن بــن عبــد اللــه ابــن طغــج بالرملــة؛ ثــم زحــف عــلى طبريــة ودمشــق؛ فصالــح الأولى وتغلــب عــلى الثانيــة بسيــف القــوة والقهــر. وفي سنــة 361هــ(971م) تحــرك المعــز لديــن اللــه نحــو مصــر؛ تاركــا بــلاد المغــرب بيــن أيــدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمـــو إلا عندمـــا تكـــون الظـــروف الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة في وضـــع جيـــد. لـــذا فقـــد كانـــت منجـــزات الدولـــة الفاطميـــة: العمرانيـــة والثقافيـــة في بـــلاد المغـــرب؛ تتـــم في محيـــط قبـــلي ضيـــق، ومنغلـــق عـــلى نفســـه؛ وقـــد ازداد تضييقـــا وانغلاقـــا بسبـــب التوجـــه المذهـــبي المتعصـــب لأصحـــاب الدولـــة الفاطميـــة؛ ذلـــك التوجـــه المبـــني عـــلى أســـاس أن الدولـــة الفاطميـــة كانـــت تستخـــدم الثقافـــة باستمـــرار لتحقيـــق أغـــراض سياسيـــة وعسكريـــة ومذهبيـــة؛ تلـــك الأغـــراض الـــتي حرصـــت الدولـــة الفاطميـــة عـــلى ترسيخهـــا وتمتيـــن أسسهـــا؛ لـــكي تحقـــق سيطـــرة وهيمنـــة مذهبهـــا الشيـــعي في كامـــل أقطـــار المغـــرب.

ويتضـــح هـــذا التوجـــه مـــن خـــلال مـــا استحـــدث وأنجـــز مـــن منشـــآت عمرانيـــة في هـــذه الربـــوع؛ إذ كـــل مـــا أنجـــز في ظـــل الدولـــة الفاطميـــة ببـــلاد المغـــرب؛ يخـــدم بالأســـاس أهدافـــا عسكريـــة وسياسيـــة قبـــل كـــل شـــيء؛ فالمـــدن ــ مثـــلا ــ الـــتي بنيـــت في تلـــك الفتـــرة كـــ: المهديـــة والمحمديـــة والمنصوريـــة؛ كلهـــا تدخـــل في هـــذا المعـــنى. ومـــا أستحـــدِث أيضـــاً مـــن أعمـــال ثقافيـــة؛ كانـــت كلهـــا تخـــدم المذهـــب الشيـــعي فقـــط؛ بـــل كـــان القائمـــون عـــلى هـــذه الدولـــة يقمعـــون كـــل إنجـــاز ثقـــافي يخالـــف تعاليـــم مذهبهـــم. إذ وصـــل بهـــم الحـــد إلى إتـــلاف كـــل الأعمـــال الـــتي كانـــت قائمـــة قبـــل دولتهـــم، تلـــك الأعمـــال الـــتي تتعـــارض مـــع معتقداتهـــم المذهبيـــة؛ مـــن ذلـــك مثـــلا مـــا قامـــوا بـــه تجـــاه مكتبـــة المعصومـــة

بتيهرت؛ التي يقال – إن صح الخبر – أن أبا عبد الله – الداعية الشيعي – أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي – في السابق – إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي ابن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد ابن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدارس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقمْ لِصَلاَحكمْ

وَإنْ تعدِلوا عنّي أرَى قتلكم عدْلاَ

وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم

وَأدْخلها عفواً وَأملؤُها قتلاَ

ثم إن الداعية أبا عبد الله الشيعي ـ أيضا ـ كان من العلماء المتفقهين في المذهب الإسماعيلي؛ وقد عرف بالقدرة على الإقناع؛ والتمكن من فنون الخطابة؛ وحب الآداب. وكان ولده أبو القاسم يقرض الشعر أيضا. كما اشتهر كذلك إسماعيل المنصور بالفصاحة والبيان، وبالتفنن في الخطابة، والقدرة على اختراع الخطبة ارتجالا في حينها. أما المعز لدين الله فقد كان يحسن عدة لغات؛ منها: العربية والأمازيغية واللاتينية والصقلبية والإسبانية والسودانية؛ وكان يقول: ((**والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة**)). ويقول فيه القاضي النعمان: ((**نظر في كل فن وبرع في كل علم**)). وهو إلى جانب كل ذلك يقرض الشعر؛ ومن شعره:

أطلعَ الحسنُ مِنْ جبينكَ شمسا
فوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيك أظلاَّ
وَكأنَّ الجمالَ خافَ عَلَى الوَرْ
دِ جفافاً فمدَّ بالشعرِ ظلاَّ

وتنسب إليه هذه الأبيات أيضا:

لِلهِ مَا صَنعتْ بنا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجرْ

أمضَى وَأَقــضَى فِي النفــو

سِ مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ

وَلَقــدْ تعبــــتُ ببينكـــــمْ

تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكان أيضاً يجيد قول الشعر؛ ومن شعره هذه الأبيات التي نظمها في يوم عيد؛ جلس فيه للعزاء بسبب موت ولد له:

نحنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحنٍ
جرِّعها فِي الحياةِ كاظِمنا
عجيبة فِي الأنامِ محنتنا
أوّلنا مبتلى وَآخرُنا
يفرَحَ هذَا الوَرَى بعيدِهمْ
طراً وَأفرَاحنا مآتما

واشتهر أيضا ـ من بين أبناء المعز ـ ولده تميم الذي برع في الآداب وتفنن في قرض الشعر؛ وهو من مواليد المنصورية سنة 337هـ(948م). ولكنه انغمس في اللهو والمجون؛ وقد تعددت الأغراض التي تناولها في شعره؛ ومن شعره:

مَا بانَ عذْرِي فيهِ حتَّى عذِّرَا
وَمشَى الدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَرا
همتْ تقبلهُ عقاربُ صُدْغِهِ
فاسْتلَّ ناظِرُهُ عليها خِنجرا
وَاللهِ لوْلاَ أنْ يقالَ تغيرَا
وَصَبا وَإنْ كانَ التصَابِي أجدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخــدُودِ بنفسَجــاً

لثمــاً وكافــورَ الترَائــبِ عنبــرَا

ومــن شعــره أيضــا:

أما وَالذِي لاَ يملــكُ الأمــرَ غيــرُهُ

وَمنْ هــوَ بالســرِّ المكتــمِ أعلــمُ

لئــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلمــاً

لإعلاَنهــا عنــدِي أشــدُّ وَآلــــمَ

وَبي كلُّ مَا يبــكِي العيــونَ أقلــهُ

وَإنْ كنــتُ منــهُ دَائمــاً أتبســـمُ

ولــه كذلــك:

وَمَا أمُّ خشفٍ ظــلَّ يوْمــاً وَليلــةٍ

ببلقعــةٍ بيــدَاءَ ظمــآنَ صاديــا

تَهيــمُ فلاَ تــدرِي إلَى أينَ تنتــهِي

مُوَلهــة حيــرَى تجوبُ الفيافيــا

أضَــرَّ بها حرُّ الهجيــرِ فلمْ تجــدْ

لغلتهــا مِــنْ بــاردِ المــاءِ شافيــا

فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفــتْ لــهُ

فَألفتــهُ ملهــوفَ الجوَانــحِ طاوِيــا

بأوْجــعَ منِّي يوْمَ شــدَّتْ حمولهــمْ

وَنـــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيـــا

ومــن شعــره أيضــا هــذه الأبيــات:

يــومٌ لنا فِي النيــلِ مختصــرٌ

ولَكــلِّ يــوْم مســرَّةٍ قصــرُ

وَالسفــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنـــا

فيـــهِ وَجيــشُ المـــاءِ ينحــدِرُ

فكأنمـــــا أموَاجـــهُ عكــــنٌ

وكَأنمـــــا دَارَاتـــــهُ ســـــرَرُ

وممـــا قـــال أيضـــا:

اشرَبْ علَى غيمٍ كصبِغِ الــدُّجَى

أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بــكَى

وَانظــرْ لماءِ النيــلِ فِي مــدِّهِ

كأنمـــا صنـــدل أوْ مسكـــــا

ومــن شعــره الــذي يفتخــر فيــه:

أنا ابنُ المعــزِّ سليــل العـــلا

وَصِنــوُ العزِيــزِ إمام الهــدَى

سمـــا بي معــدٌ إِلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجــدِ مَا فوقهـــا مرتـــقَى
فرُحـــتُ بها فاطِـــمِيٌّ النجـــارِ
حسينيـــهُ علـــــوِيٌّ الجــنى
وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إِلَى ناصِـــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القـــوَى

وقـــد بـــرز فـــي هـــذه الدولـــة كذلـــك شعـــراء محترفـــون، وآخـــرون جعلـــوا مـــن الشعـــر وسيلـــة للترويـــح عـــن النفـــس، والتعبيـــر عمـــا تنطـــوي عليـــه صـــدورهـــم مـــن مشاعـــر وأفكـــار. وضمـــت أيضـــا إليهـــا عـــددا كبيـــرا مـــن العلمـــاء في الديـــن واللغـــة، وقـــادة عسكرييـــن وأمـــراء يهتمـــون بالعلـــم والثقافـــة. وفي هـــذا السيـــاق نذكـــر أهـــم علمـــاء الدولـــة الفاطمييـــن في الفتـــرة المغربيـــة؛ وأولهـــم بالطبـــع هـــو:

ــ أبـــو عبـــد اللـــه الحسيـــن بن أحمـــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيـــعي: ويعتبـــر هـــذا الداعيـــة المتميـــز هـــو المؤســـس الحقيـــقي للدولـــة الفاطميـــة. وكـــان أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي ــ كمـــا لا يخـــفى ــ مـــن العلمـــاء البارزيـــن في المذهـــب الشيـــعي؛ كمـــا كـــان خطيبـــا قـــوي الحجـــة. وقـــد وصفـــه ابـــن الأثيـــر بقولـــه: ((**وكـــان لـــه علـــم وفهـــم ودهـــاء**

ومكر)).[1] ويقول المقريزي أن أصله من رَامَ هُرْمُزْ بخراسان؛ وولد بالكوفة؛ غير أن بعضهم كابن الأثير ينسبه إلى اليمن؛ إذ يسميه الصنعاني نسبة إلى صنعاء. وثمة من يقول أنه اشتغل ـ في بداية الأمر ـ في التعليم؛ حيث كان من العلماء المعلمين في مذهب الإمامية الباطنية. بينما يقول آخرون أنه كان محتسبا في سوق الغزل بالبصرة.[2] ويقول عنه القاضي النعمان بن محمد: **((كان أبو عبد الله هذا من الكوفة؛ واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة؛ وكان أكثر علمه الباطن؛ ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه)).**[3] ويقال أنه اتصل بالإمام محمد بن جعفر؛ فأعجب به، وبعثه إلى أبي القاسم بن حوشب داعية الشيعة في اليمن؛ حيث أكمل أعداده هناك للقيام بالمهمة التي تنتظره؛ وذلك ما تجلى من خلال تكليفه بأمر الدعوة في بلاد المغرب.

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 127.

[2] اتعاظ الحنفا، ص: 68.

[3] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 59.

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ـ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ـ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتِيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البِرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ـ 125.

اللـــه؛ حـــتى انتـــهى الأمـــر بسقـــوط الدولـــة الأغلبيـــة السنيـــة وإعـــلان قيـــام الدولـــة الفاطميـــة الشيعيـــة.

ــ ثـــم أبـــو جعفـــر محمـــد بـــن عمـــر بـــن يحـــيى بـــن عبـــد الأعـــلى المَـــرْورُذي أو مـــرُّوذي: وهـــو منســـوب إلى مَـــرْو الـــروذ في خراســـان. وقـــد اختلفـــت المصـــادر في رســـم اسمـــه وفي تسلســـل آبائـــه؛ ويقـــال أنـــه كـــان مـــن جنـــد خراســـان. وقـــد كـــان مـــن علمـــاء المذهـــب الحنـــفي في القيـــروان[1] قبـــل ظهـــور الفاطميـــين؛ إلا أنـــه أصبـــح مـــن المتعصبيـــن للمذهـــب الشيـــعي؛ عندمـــا تغلـــب الفاطميـــون عـــلى القيـــروان؛ خاصـــة وأن لـــه ــ مـــن قبـــل ــ ميـــلا للشيعـــة. ولمـــا دخـــل أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي للقيـــروان مسقطـــا بذلـــك دولـــة الأغالبـــة؛ ولاه ــ مؤقتـــا ــ قضـــاء القيـــروان؛ ثـــم أقـــره في منصبـــه عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ ولكنـــه انقلـــب عليـــه فيمـــا بعـــد؛ خاصـــة بعـــد مقتـــل عبيـــد اللـــه الشيـــعي؛ وذلـــك بعـــد اتهامـــه بانتقـــاد الدولـــة ومعارضـــة المهـــدي؛ لـــذا فقـــد قبـــض عليـــه ورمي في إسطبـــل مقيـــد الأيـــدي والأرجـــل؛ فقتلتـــه الـــدواب بحوافرهـــا. وهكـــذا مـــات تحـــت العـــذاب في محبســـه برقـــادة سنـــة 303هــ(919م) عـــلى الرغـــم مـــن ولائـــه وإخلاصـــه وتفانيـــه في نشـــر المذهـــب الشيـــعي. ويقـــول فيـــه ابـــن عـــذاري: ((**ولَّى أبـــو عبـــد اللـــه عـــلى قضـــاء مدينـــة القيـــروان محمـــد بـــن عمـــر بـــن يحـــيى بـــن عبـــد**

---

[1] تراجـم أغلبيـة، ص: **516.**

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ــ أصلحك الله ــ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتَلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنِّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

---

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ــ 152.

ـ **ثم إسحاق بن أبي المنهال:** وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه وعودته إليه؛ فقال: **((وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرِّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه)).**[1]

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص: 188.

أمـــا عودتـــه إلى منصبـــه فيقـــول ابـــن عـــذاري عنـــه: **((وفي هـــذه السنـــة [سنـــة 312هـــ] مـــات بالقيـــروان القـــاضي محمـــد بـــن عمـــران النفـــطي؛ في شهـــر ربيـــع الأول؛ وكـــان يرتـــشي عـــلى الأحكـــام، ويستهتـــر في ضـــروب المنكـــر. فـــولى عبيـــد اللـــه القضـــاء مكانـــه إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال مـــرة ثانيـــة؛ وكتـــب في عهـــده: "وإنمـــا كنـــا عزلنـــاك للينـــك ومهانتـــك؛ ورددنـــاك لدينـــك وأمانتـــك"))**.[1] وتجمـــع جـــل المصـــادر عـــلى أن إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال هـــذا قـــد ســـار عـــلى نهـــج المـــروذي في اضطهـــاد فقهـــاء المالكيـــة والتنكيـــل بهـــم.

ـ ثـــم أبـــو حنيفـــة القـــاضي النعمـــان بـــن محمـــد بـــن حيـــون المغـــربي: ولـــد هـــذا الفقيـــه بالقيـــروان سنـــة 302هـــ(914م) ضمـــن أســـرة تنتهـــج المذهـــب المالـــكي؛ ولنكـــه اختـــار ـ عندمـــا كبـــر ـ المذهـــب الإسماعيـــلي؛ حيـــث أصبـــح أبـــرز فقيـــه إسماعيـــلي بالمغـــرب؛ بـــل أهـــم منظـــر في أصولـــه؛ إذ كـــان المجتهـــد الأول في الفقـــه الإسماعيـــلي أيـــام الدولـــة الفاطميـــة؛ حيـــث يعتبـــر هـــو الواضـــع الحقيـــقي لأســـس الفقـــه الإسماعيـــلي؛ وذلـــك ضمـــن كتابـــه دعائـــم الإســـلام. هـــذا وقـــد شغـــل في الدولـــة الفاطميـــة وظيفـــة قـــاضي القضـــاة في عهـــد الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه؛ علمـــا بأنـــه عمـــل في مياديـــن علميـــة عديـــدة خـــلال الفتـــرة المغربيـــة مـــن حكـــم آبـــاء

---

[1] البيـــان المغـــرب،، ج: 1، ص: 189.

المعـز. ومـن مؤلفاتـه: رسالـة افتتـاح الدعـوة، وكتـاب دعائـم الإسـلام في ذكـر الحـلال والحـرام والقضايـا والأحكـام، وشـرح الأخبـار في فضائـل الأئمـة الأطهـار، وتأويـل دعائـم الإسـلام، وتأويـل الشريعـة، وكتـاب الهمـة في آداب أتبـاع الأئمـة، وكتـاب المجالـس والمسايـرات. هـذا وكانـت وفاتـه بمصـر سنـة 363هـ(973م).

ـ ثـم أبـو اليَسـر إبراهيـم بـن محمـد الشيبـاني البغـدادي المعـروف بالريـاضي: وهـو مـن الأدبـاء البارزيـن في القيـروان. ويرجـع في أصولـه إلى بغـداد. وكـان مكلفـا ـ في زمـن الأغالبـة ـ بديـوان الرسائـل؛ ثـم وأسندت إليـه مهمـة الإشـراف عـلى بيـت الحكمـة؛ وذلـك إلى جانـب ديـوان الإنشـاء. وذكـر ابـن عـذاري حكايـة طريفـة وقعـت لـه عندمـا ذهـب إلى الأندلـس؛ قـال فيهـا: ((**وكـان** [أي أبـو اليسـر] **ظريفـا، أديبـا، مُرَسـلاً، شاعـرا، حسـن التأليـف؛ وقـدم الأندلـس عـلى الإمـام محمـد بـن عبـد الرحمـن** [الأمـوي] **ـ رحمـه اللـه ـ بكتـاب اخترقـه إليـه عـلى ألسِنـةِ أهـل الشـام؛ فتقبلـه الإمـام محمـد، وأنزلـه، ووسـع عليـه، ووصلـه؛ وأطلـع عـلى أن الكتـاب مختـرَقٌ مصنـوع؛ فلمـا أراد أبـو اليسـر الانصـراف؛ دُفـع إليـه كتـابٌ مختـومٌ؛ جوابـاً عـن كتـاب أهـل الشـام فيمـا أرى.**

فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاَّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.

البداية ـ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ـ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ـ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ـ بدهائه ـ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ـ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ـ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ـ **أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني:** وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((**وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قِفْ بالمطِيِّ عَلَى مرَابعِ دُورِ
لبِسَتْ مَعالمِهنَّ ثوبَ دُثورِ
لَعِبتْ بِها حتَّى مَحَتْ آثارَها
رِيحانُ: رِيحِ صَبا وَرِيحِ دُبورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهةٍ هبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيدُ النوَى مَلَكتْ عَنانَ مَسِيرِي
خافتْ عَليَّ مِنَ الخطوبِ لأنني
مِنْ قبلُ غِبتُ فأبتُ بَعدَ دُهورِ
ثمَّ اجتمَعنا بَعدَ ذَاكَ فيَالها
مأسورَةَ جمعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدِّينَ امرءاً
بنتِ النبيِّ وَعترَةِ التطهيرِ

كــفِّي عَــنِ التثبيــطِ إنِّيَ زَائـــرٌ

مِنْ أهلِ بَيــتِ الوَحْيِ خيرَ مُــزُورِ

فقــال لـــه أبــو عبــد اللـــه ــ وكـــان بيـــن يـــدي المهــدي ــ صدقــت هــو افضــل العالميــن؛ فقبــل سعــدون الأرض بيــن يــدي المهــدي عليـــه الســـلام، ومــرّ فيهـــا حـــتى انتـــهى إلى قولـــه:

هذَا أميــرُ المُؤمنيــنَ تَضَعْضَعــتْ

لقدُومِــهِ أركـــانُ كــلّ أميـــــرِ

هذَا الإمـــامُ الفاطــميُّ وَمَـــنْ بـــهِ

أمنــتْ مغاربهـــا مِـــنَ المَحـــذُورِ

وَالشـــرقُ ليسَ لشَامِـــهِ وَعِرَاقـــهِ

مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِـــهِ المَنصُــورِ

حَتَّى يَفــوزَ مِنَ الخِلاَفـــةِ بالمـــنَى

وَيفـــازَ مِنـــهُ بعدلـــهِ المَنشـــورِ

فقـــال أميـــر المؤمنيـــن: "مـــا شـــاء اللـــه"؛ ومـــرّ فيهـــا إلى أن ذكـــر أبـــا عبـــد اللـــه فقـــال:

يا مَنْ تَخيـــرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتـــهِ

أرْجاهــمُ لِلعسْــرِ وَالميســـــورِ

حتَّى استمـــالَ إليـــهِ كـــلَّ قَبيلـــةٍ

ورَمَى إليـــهِ قيـــادَ كـــلِّ عشـــورِ

أشْبَهـــتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ الـــتِّي

تلـــقَى فتلقـــفُ كلَّ إفـــكِ سُحـــورِ

فنظـــر المهـــدي إلى أبي عبـــد اللـــه وتبســـم؛ فقبـــل أبـــو عبـــد اللـــه الأرض؛ قـــال للورجيـــني: "أنـــا دون ذلـــك بعـــد مـــا بيـــن السمـــاء والأرض". فأمـــر لـــه [أي للشاعـــر] **أميـــر المؤمنيـــن بصلـــة جزيلـــة، وبـــأن يجـــرى عليـــه لكـــل عـــام؛ ووصلـــه أبـــو عبـــد اللـــه أيضـــا))**.[1]

وكـــان سعـــدون الورجيـــني هـــذا قـــد تعـــرض ــ أيـــام الأغالبـــة ــ للأســـر مـــن طـــرف النصـــارى؛ ثـــم وجـــد مـــن افتـــداه. فلمـــا وصـــل إلى صقليـــة مـــن القسطنطينيـــة؛ وهـــو في حـــال يـــرثى لهـــا؛ تمكـــن مـــن الدخـــول عـــلى والي صقليـــة أبي الحسيـــن محمـــد بـــن الفضـــل؛ وكـــان هـــذا الـــوالي مـــن أفاضـــل القـــوم ومـــن أدبائهـــم وشعرائهـــم المجيديـــن؛ فواتتـــه فرصـــة ذهبيـــة حيـــن عـــرض كاتـــب ابـــن الفضـــل بيتيـــن قالهمـــا سيـــده عـــلى الشعـــراء الجالسيـــن؛ طالبـــا منهـــم الزيـــادة عليهمـــا بأبيـــات تناسبهمـــا. والبيتـــان همـــا:

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 254 ــ 256.

تَثــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنــهُ تعلمــا

وَأَزْرَى بِحُسنِ البــدْرِ حينَ تبَسَّمــا

هــلاَلٌ كأنَّ اللــه نــاجَى جمالــهُ

بتصويِــرهِ إيــاهُ لمــا تجسمــا

فبــادر سعــدون الورجيــني فــورا قائــلا:

تناثــرَ مِنــهُ الــدُّرُّ لمــا تكلمــا

وَأبصــرَهُ بــدْرُ السمــاءِ فأظلمــا

هــلاَلٌ كستــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهــهِ

وَأهــدَى إليهِ الغصْــنُ قداً منعمــا

سقــَانِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابــةٍ

وَوَكــلَ بِي قلبــاً عليــلاً متيمــا

فما زِلــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهــهِ

بخطِّ يدِي حتَّى بــكَى قلــبِي دَمــا

وَمسمعــة لمــا رَأتْ ذُلَّ موقــفِي

لدَيــهِ تغنــتْ كَيْ يــرَقَّ وَيرْحمــا

((تثــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعَلَّمــا

وَأَزْرَى بِحسنِ البــدْرِ حينَ تبسمــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالــتْ مُجيبــة

وَأوْميــت بعينيهــا إلي ليفهمــا

((هلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصويِــرِهِ إيــاهُ لمــا تجسمـــــا))

فأعجــب كاتــب محمــد بــن الفضــل ببديهتــه وحســن طريقتــه؛ فكافــأه بصــرة مــن الدنانيــر؛ أصلحــت حالــه، وفكــت حاجتــه.

ويبــدو أن سعــدون الورجيــني هــذا كــان مــن الشعــراء المعروفيــن في الدولــة الأغلبيــة؛ وقــد ورد ذكــره في ريــاض النفــوس للمالــكي، وفي مــدارك القــاضي عيــاض؛ حيــث نشــرت فيهمــا قصيــدة لــه رثــا بهــا العالــم الصالــح الزاهــد يحــيى بــن عمــر بــن يوســف الأندلــسي؛ جــاء فيهــا:

عيــنُ ألــمَّ بهــا وَجــدٌ فلــمْ تنــمِ

تبكِي بدَمْــعٍ كنظمِ الــدرِّ منسَجــمِ

مدَامع الصَّــبِّ أقــلاَمٌ تخــطٌّ بهــا

أيدِي الصَّبابةِ مَا بِالقلــبِ مِنْ سَــدَمِ

لفــظُ الضَّميرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَــهُ

حَتَّى بَــدَا كلٌّ سِــرٍّ فِيــهِ مُنكتِــمِ

لوْلاَ المَدَامِــعُ لــمْ يعْلــمْ بلوْعتــهِ

يُخفِي تبارِيحَ وَجدٍ غيــر مُنْصــرمِ

وَهلْ تلــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلــة مَــنْ

كستــهُ كــفُّ الرَّزَايــا حلة السَّقــمِ

وَكلُّ جَارِحَــةٍ مِنْ جسْمِــهِ قدَحــتْ

فِيها يــدُ البــثِّ نيرَانــاً مِنَ الألــمِ

لمْ يعــدَمِ الحــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتــهُ

قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيشِ بِالعَــدَم

تأبَى الليالِي عَلينا أنْ تــدُومَ عَــلَى

جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَــدٍّ مِنَ الثلــمِ

لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكــلِ لمْ أنــمِ

لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقــتُ لمْ ينــمِ

أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُــلٌ

قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِــنْ ذَوِي الرَّحِــمِ

عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنــتْ

كفَايَ فِي الترب أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ

يا مَــوْتُ أثكلتِنــا يَحيَى وكانَ لنــا

فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنـــا وَمَــتَى

نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ

مَا كانَ إلاَّ سرَاجاً يُستضـــاءُ بـــهِ

فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلُــمِ

وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً

نلجَأ إليهِ، فقــدْ صِرنا بـــلاَ حَـــرَمِ

وَكانَ يَحيَى لنا سَيفـــاً يُعــزُّ بهِ الــ

ــدِّينُ الحَنِيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضـــمِ

وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائِغيــنَ إذَا

ضَلوا لِسانـــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمٍ

وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وَكانَ لنـــا

كنـــزاً، وَكانَ لنا كالغيـــثِ فِي الأزَمِ

لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمـــعِ فـــإنْ

غاضــتْ مَدَامِعهـــا فلتبكـــهِ بـــدَمِ

أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بِهِ اجْتمَعـــَا

وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّممِ

أبكِي عَلَى الحِلمِ ثـــوْبٌ كانَ يَلبَسُـــهُ

أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخـــلاَقِ وَالشيـــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حِجَى

أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ

مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنُــون لنا خلفــاً

مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثْلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:

مَا كانَ أشجعـــهُ، مَا كانَ أوْرَعـــهُ

مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ

مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنـــةِ درَســـتْ

يُشيِدُهـــا ببنـــاءِ الحـــاذِقِ الفهــمِ

مَا كانَ أفقهـــهُ، مَـــا كـــانَ أعلمـــهُ

مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخـــوْفِ لِلحـــرَمِ

مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَـــبٍ

مَا كانَ أكتـــبَ تِلكَ الكـــفّ بِالقلـــمِ

سَقَاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَـــارِضٌ لجـــبٌ

سمحُ الـــرَّذَاذِ كرِيمُ الوَبَـــلِ وَالدِّيـــم

مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيـــةٍ

كالوَشْيِ يُلقَى علَى القِيعَانِ وَالأكـــمِ

يا رَبِّ! صَاحِبُ هذَا القبـــرِ خادِمـــ

ــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ

أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعــلْ قــرَاهُ سِــوَ

ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كرَمِ

ـ **ثـم محمـد بـن رمضـان النفـطي:** كـان يعتنـق المذهـب الشيـعي قبـل ظهـور أبي عبـد اللـه داعيـة الفاطميين بالمغـرب. ويبـدو أنـه كـان مـن المتأثريـن بالدعـوة الـتي بثها أبـو سفيـان؛ الـذي استقـر في تالـة أو (**تـالا**) جنـوب الكـاف. وتقـول المصـادر أن أهـل نفطـة تشيعـوا بتأثيـر منـه.[1] وكـان محمـد بـن رمضـان شاعـراً؛ فاتخـذ مـن شعـره وسيلـة للدعـوة ونشـر مـا يتناقلـه أهـل الحدثـان عـن المهـدي المنتظـر. ومـن شعـره في هـذا البـاب قولـه:

ســلاَ ظبيــة القنــاصِ أينَ احتلاَلَهــا

فقـدْ هاجـنِي تفتِيرُهــا وَامذِلاَلَهــا

لعــلَّ الــتِي عنهــا تفــرّقَ أهلهــا

فبــادَتْ مَغانيهــا وَطــالَ احتيَالهــا

أرَقــتُ لها مِــنْ بعدِ أنْ نــامَ إنسهــا

خناطِيــلُ آرَامِ الظبــــاءِ جمالهــــا

---

[1] **رسالـة افتتـاح الدعـوة، ص ص: 54 ـ 55.**

فعـــدِّ عنِ الـــدَّارِ الـــتِي بـــانَ أهلهـــا
وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَـــا
فهـــذَا أوَانُ الحـــقِّ قـــدْ حـــانَ حِينـــهُ
وَدَوْلـــة أهـــلِ البـــغْيِ آنَ زَوَالهـــــا
كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعـــتْ لنـــا
مِنَ الغـــرْبِ مقرُونـــاً إليهـــا هِلاَلهـــا
فيمـــلأ أرْضَ اللـــهِ قسطـــاً بعدْلـــهِ
بمـــا ضـــمَّ مِنهـــا سَهلهـــا وَجبالهـــا
وَآمـــنُ فيهـــا مـــا أخـــافُ وَأتـــقِي
وَأظفـــرُ بالزُّلـــــفَى بـــه وَأنالهـــــا

ويقـــول القـــاضي النعمـــان أن محمـــد بـــن رمضـــان هـــذا أدرك أيـــام عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ بعـــد أن وصـــل مـــن العمـــر عتيـــا؛ وبعـــد أن خـــرف؛ ومـــع هـــذا فقـــد ولاه المهـــدي قضـــاء ميلـــة؛ وبـــقي في منصبـــه حـــتى مـــات. كمـــا أورد القـــاضي النعمـــان ــ أيضـــا ــ حكايتـــه مـــع الأميـــر الأغلـــبي إبراهيـــم بـــن أحمـــد؛ حيـــث هجـــاه محمـــد بـــن رمضـــان؛ بعـــد المجـــزرة الـــتي قـــام بهـــا في حـــق أهـــل بلزمـــة؛ إذ غـــدر بهـــم وقتـــل منهـــم ألـــف رجـــل ببـــرودة وبشاعـــة؛ وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان في تلـــك الأثنـــاء ببلزمـــة في جـــوار أهلهـــا وفي ضيافتهـــم؛ فقـــال:[1]

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة ، ص ص: 88 ــ 90.

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكــرُوا

مِمــا أتتنــا بــهِ الأنبــاءُ وَالخبــرُ

عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســادِ قدْ قتلــوا

لِساعَــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غــدِرُوا

لوْ كانَ مَنْ بيــتَ الآســادَ أيقظهــمْ

حلــتْ بــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيــرُ

قلْ لابــنِ أحمــدَ ابرَاهِيــم مألكــة

عَنِ الخبيــرِ بما يــأتِي وَما يــذَرُ

عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمــةِ مِــنْ

آلِ النبيِّ وَخيــرِ الناسِ إنْ ذُكِــرُوا

اعلمْ بأنَّ شِــرَارَ النــاسِ أطوَلهــمْ

يداً بمكرُوههــمْ يوْمــاً إذَا قــدِرُوا

لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ

أعطــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفــرُوا

فما اعْتــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصــةٍ

أتيتهــا عامِــداً إنْ قــامَ مُعتــذِرُ

جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهــا

عمــا قليــلٍ وَأمــرُ اللــهِ ينتظِــرُ

فدَوْلة القائمِ المهــدِيِّ قــدْ أزِفــتْ
أيامُهــا وَالــذِي أنبــا بــهِ الأثــرُ

عنِ النــبيِّ، وَفيهــا قطــعُ مدَّتكــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِــرُوا

وَقطــعُ أمرِ بنِي العَبَــاسِ بعدَكــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَــرْوَانَ إذْ بطــرُوا

ولمــا علــم إبراهيــم بــن أحمــد بالقصيــدة؛ أراد خداعــه واستدراجــه؛ إذ قــال: ((**لعــن اللــه مــن طلبــه وشــرده؛ فمــا مثــل هــذا يــؤذى؛ ولــو أتانــا لصفحنــا عنــه وأحسنــا إليــه؛ ولقــد أحســن في الوفــاء لمــن أجــاره، وصنــع المعــروف إليــه؛ ومثــل هــذا تزكــو عنــده الصنائــع، ومــا ينتقــم عليــه تشيعــه؛ بــل ذلــك مــا يقربــه منــا ويدنيــه عندنــا؛ فأبلغــوه عنــا ذلــك؛ فــإن أحــبَّ القــدوم إلينــا فهــو آمــن، ولــه عندنــا ــ مــع ذلــك ــ الحبــاء والإكــرام**)). ولمــا وصــل قولــه إلى محمــد بــن رمضــان؛ لــم تنطــل عليــه الخدعــة؛ وعلــم بالفــخ الــذي نصبــه لــه إبراهيــم؛ فقــال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصِيــدُ بِحبــهِ للقطتُ حبــهْ
مَنْ ذَا يغــرُّ بغــادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ ثم علي بن محمد الإيادي: كان من شعراء بني الأغلب قبل أن يتغلب عليهم الفاطميون؛ ثم أصبح من شعراء البلاط الفاطمي بعد ذلك. وله قصائد في مدح عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، ثم إسماعيل المنصور بن أبي القاسم. وتوفي الإيادي في سنة 365هـ(975م). ومن شعره في وصف قصر صبرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاستَولَتِ العلاَ
عَلَى النَّجمِ وَامتدَّ الرِّوَاقُ المروَّقُ

بنَى قبةً للمُلكِ فِي وَسطِ جنةٍ
لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونقُ

وَإنْ صَافَحتها لاَحتْ كأنها
فرندٌ عَلَى تاجِ المعزِّ وَرَونقُ

كأنَّ شرُفاتِ المقاصرِ حولْها
عذَارَى عَليهنَّ مِلاء الممنطق

ومن شعره في وصف الأسطول الفاطمي في عهد إسماعيل المنصور:

أعجب لأسطولِ الإمامِ محمدٍ
ولَحسنهِ وزَمانهِ المستغربِ

لبسَــتْ بهِ الأموَاجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ

يبـــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ

مِنْ كـــلِّ مُشرِفـــةٍ عَلَى مَا قابلــتْ

اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ

دَهمـــاء قدْ لبســتْ ثيــابَ تصَنــعٍ

تســبِي العقولَ عَلَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ــ **ثــم أيــوب بــن إبراهيــم:** يبــدو أنــه كــان مــن أعــوان الدولــة الفاطميــة وأتباعهــا المخلصيــن. ولــم نعثــر علــى مــا يفيــد عنــه؛ أكثــر مــن هــذه الأبيــات الشعريــة الــتي مــدح بهــا أبــا طاهــر إسماعيــل المنصــور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ

المُصْطَــفَى وَابنِ النــبيِّ المرْســلِ

اللـــهُ أعطـــاكَ الخلاَفـــة وَاهبـاً

وَرَآكَ للإســلاَمِ أمنــعَ معقـــلِ

نلتَ الخِلاَفـــة وَهْيَ أعظــمُ رُتبـــةٍ

نِيلتْ، وَليسَــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَــلِ

فمَنَعتَ حوْزَتَهَــا وَحطــتَ حَرِيمَهَــا

بالمَشرَفيـــةِ وَالوَشيــــجِ الذُبـــلِ

ـ ثم أبو العباس خليل بن إسحاق: وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: ((**وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حَضَرَهُ جماعة من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمور شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إنِّي قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقللُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤَدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك".**

وكـــان خليـــل هـــذا يكـــنى أبـــا العبـــاس؛ وكـــان عبيـــد اللـــه الشيـــعي يصرفـــه في الأعمـــال وجبايـــات الأمـــوال ومحاسبـــة الدواويـــن والعمـــال؛ ثـــم وقعـــت فيـــه أقـــوال فكرهـــه عبيـــد اللـــه وأبغضـــه؛ ولـــولا ابنـــه أبـــو القاســـم لأهلكـــه)).[1] ومـــن شعـــره الـــذي قالـــه في عبيـــد اللـــه المهـــدي:

إنَّ الإمـــامَ أقـــامَ سنـــة جـــدِّهِ

للمسلمينَ كما حـــذَوْتَ نِعالهـــا

أحيَى شرَائعـــهُ وَقـــوَّمَ كتبهـــا

وَفرُوضها وَحرَامهـــا وَحلاَلهـــا

وقـــال أيضـــا هـــذه الأبيـــات الشعريـــة عندمـــا بعثـــه إسماعيـــل المنصـــور لقتـــال أبي يزيـــد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعـــتُ خيـــرَ الخلـــق طـــراً

وَلاَ فارَقتـــهُ عَـــنْ طِيـــبِ نفـــسِ

وَلَكِـــنِّي طلبـــتُ بـــهِ رِضَـــاهُ

وَعَفـــوَ اللـــهِ يوْمَ حُلـــولِ رَمـــسِ

فعـــاشَ مُلكـــاً مَـــا لاَحَ نجـــمٌ

عَـــلَى الثقليـــنِ مِـــنْ جـــنٍّ وَإنـــسِ

[1] البيـــان المغـــرب، ج:1، ص: 215. والمكتبـــة العربيـــة الصقليـــة (نصـــوص في التاريـــخ والبلـــدان والتراجـــم والمراجـــع)، جمـــع: المستشـــرق الإيطـــالي ميخائيـــل أمـــاري، ص ص: 368 ـــ 369.

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي:

على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصـــول إسماعيـــل المنصـــور بجيشـــه إلى مدينـــة المحمديـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد؛ قولـــه:

ثمَّ إلَى مَدِينـــةٍ مرْضِيـــهْ
أسَّتْ عَلى التقوَى محَمدِيهْ
أقبل حتّى حَلهـــا عَشِيـــهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلـــهْ
فِي هيـــأةٍ كامِلةٍ جَميلـــهْ

وقـــال أيضـــا في أخـــرى عـــن حركـــة إسماعيـــل ومطاردتـــه لأبي يزيـــد:

لقدْ تَاهـــتْ بِطلعتِـــكَ الغـــرُوبُ
كما ابتهجتْ بدَوْلتِـــكَ القلـــوبُ
لقدْ زَهتِ الخِلاَفـــة إذْ حدَاهـــا
نَجيـــبٌ رَاحَ بِحملِـــهِ النَّجيـــبُ

وقــال عنــد الوصــول إلى طبنــة أثنــاء مطــاردة أبي يزيــد أيضــا:

سِرنــا وَقدْ حلَّ بقــرْبِ طبنــهْ

وَصَـَــارَ مِنها أهلها فِي مِحنــهْ

فأعظــمَ اللـــهُ العزِيــزُ المنــهْ

وَبدَّلــوا مِنْ بعــدِ نــارٍ جنــهْ

ـ ثــم محمــد بــن المنيــب: كــان في جيــش إسماعيــل المنصــور؛ عندمــا طــارد أبــا يزيــد في المغــرب الأوســط؛ ولــم نعثــر في المصــادر أكثــر مــن اسمــه وقصيدتــه هــذه:

حَــلَّ البَــلاَءُ بمخلــــدٍ

وَجَمِيعِ شِيعتِــهِ النوَاكِــرْ

أمـــسَى بـــأرْضِ كيانـــةٍ

قدْ بانَ مِنـــهُ كلُّ ناظِــرْ

يرنـــو بطــرفٍ خاشِــعٍ

نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ

يرنو إِلَى عــدَدِ الحَــصَى

وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِــرْ

يـــا مُخلـــدُ بـــنِ سَبيكـــةٍ

يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِـــرْ

ذُقْ مَا جَنتـــهُ يَدَاكَ قـــبـــ

ـــلُ مِنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغائِرْ

ذُقْ هَـــولَ شقـــكَ لِلبطـــو

نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ

يـــا شـــرَّ مَـــنْ بكيانـــةٍ

وكَيَانـــة شـــرُّ البرَابـــرْ

أنظرْ إلَى القفـــصِ الـــذِي

لاَ بدَّ فِيـــهِ أنتَ صَائِـــرْ

أنظـــرْ إلَى يَدَيـــكَ فيـــ

ـــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ

قدْ طـــالَ شوقِهمَـــا إليْـــ

ـــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ **ثـم أبـو القاسـم محمـد بـن هـاني بـن سعـدون الأندلـسي:** ولـد بإشبيلية ـ في عهد الخليفة الأموي الناصر لدين الله بين سنتي: 322هـ و 326هـ ـ من أسرة كانت تسكن المهدية بإفريقية. وينسب ابن هاني في أصوله الأولى إلى قبيلة الأزد اليمنية

العربيــة. ويقــال أنــه منحــدر مــن أســرة يزيــد بــن حاتــم بــن قبيصــة. كمــا تذكــر المصــادر أنــه تأثــر بالمذهــب الشيــعي منــذ صبــاه في الأندلــس؛ إذ تشبــع بالأفكــار الفلسيــة ذات المنطلــق العقــلاني المعتــزلي.

ويكــون ابــن هــاني قــد تــرك الأندلــس، وانتقــل إلى الضفــة المغربيــة سنــة 347هـ(958م)؛ حيــث التحــق ببــني بــني علــي بــن حمــدون: جعفــر ويحــيى؛ أمــراء المسيلــة؛ فلمــا علــم بــه المعــز لديــن اللــه الفاطــمي بعــث يطلبــه؛ جاعــلا منــه شاعــر البــلاط الفاطــمي الأول. فقــدم غليــه حيــث حــلاه بأفضــل مــا قيــل في مــدح الملــوك؛ مــن غــرر الأشعــار؛ لــولا بعــض الغلــو الــذي نســب إليــه، والــذي يدخــل في سيــاق الكفــر وكبائــر القــول. أمــا خبــر وفاتــه فقــد اكتنفــه غمــوض كبيــر؛ ســواء مــن حيــث المضمــون والتفاصيــل أو في تحديــد تاريــخ وقوعهــا. وكــل مــا يمكــن قولــه هنــا أنــه قتــل، أو مــات في برقــة بينمــا كــان متوجهــا إلى مصــر ليلحــق بالمعــز هنــاك. وقــال عنــه ابــن خلكــان: **((ولمــا بلــغ المعــز وفاتــه وهــو بمصــر تأســف عليــه كثيــرا وقــال: "هــذا الرجــل كنــا نرجــو أن نفاخــر بــه شعــراء المشــرق؛ فلــم يقــدر لنــا ذلــك". ولــه في المعــز المذكــور غــرر المدائــح ونخــب الشعــر... وفي هــذا الأنمــوذج دلالــة عــلى علــو درجتــه وحســن طريقتــه. وديوانــه كبيــر؛ ولــولا مــا فيــه مــن الغلــو في المــدح المفــضي إلى الكفــر لكــان مــن أحســن الدواويــن؛ وليــس في المغاربــة مــن هــو في طبقتــه: لا مــن متقدميهــم ولا**

من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق؛ وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛ وكانا متعاصرين؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه...

ويقال أن أبا العلا المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء يقول: "ما أشبهه إلاّ برَحَى تطحن قرونا"؛ لأجل القعقعة التي في ألفاظه؛ ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ؛ ولعمري ما أنصفه في هذا القول؛ وما حمله على هذا إلاّ فرط تعصبه للمتنبي؛ وبالجملة فما كان إلاّ من المحسنين في النظم)).[1]

ومن شعر ابن هاني هذه القصيدة؛ وهي أولى القصائد التي مدح بها المعز؛ فور قدومه من المحمدية. ويقال أنه كافأه عليها بدست ثمنه ستة آلاف دينار؛ فقال ابن هاني: "يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط"؛ فأمر له ببناء قصر؛ فغرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أثبت معظم أبياتها هنا؛ نظرا لما تشتمل عليه من أفكار ومعان توضح ما يتضمنه المعتقد الشيعي الفاطمي آنئذ؛ وقد بدأها بهذا المطلع:

---

[1] وفيات الأعيان، ج: 4، ص ص: 423 ــ 424.

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ

أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العيــنُ[1]

وَلمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا

مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]

المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكـــبٌ

وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصـــونُ

بيــضٌ وَمَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا

بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]

أدْمَى لَها المَرْجَــانُ صَفحَــة خَــدِّهِ

وَبَــكَى عليْهــا اللؤْلُــؤُ المَكنُــونُ

أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا

فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيـــنُ

بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَةَ

ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيـــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في الباديــة. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكأنَّمَا صَبَغُوا الضُّحَى بِقبَابِهِمْ

أوْ عَصْفَرَتْ فِيها الخدُودَ جُفُونُ[1]

مَاذَا عَلى حُلَلِ الشَّقِيقِ لَوْ انَّها

عَنْ لاَبِسِيها فِي الخدُودِ تبينُ[2]

وهنا يشرع في مدح المعز بطريقته المستفزة؛ المليئة بالمبالغة الغريبة، والغلو الفاضح؛ وهو ما رفضه معظم المسلمين من أهل السنة ونددوا به؛ وفي ذلك يقول:

هذَا معدٌ وَالخلاَئقُ كلها

هذَا المعِزٌّ متوَّجاً وَالدِّينُ

هذا ضَمِيرُ النشأةِ الأولَى التِي

بدَأ الإلهُ وَغيبها المكنونُ

مِنْ أجلِ هذَا قدِّرَ المقدُورُ فِي

أمِّ الكتابِ وَكوِّنَ التكوِينُ

[1] أي احمر الضحى من احمرار قبابهم. وصبغت دموعهم الدامية خدودهم.

[2] حلل الشقيق: الثياب الحمر التي تشبه شقائق النعمان.

وَبـــذَا تلـــــقى آدَمٌ مِـــنْ رَبـــــهِ

عفـــواً وَفـــاءَ لِيونـــسَ اليقطِيـــنُ

يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِـــنْيَ نِجَـــادِهِ

وَالنَّصـْــرُ أعظــمُ مِنـــكِ وَالتمْكِيـــنُ[1]

حَاشـــا لِمَا حُمِّلــتِ تَحمِــلُ مِثلـــهُ

أرْضٌ وَلكـــنَّ السمـــاءَ تعيــــــنُ

وَلوْ يَلتـــقِي الطُّوفانُ قَبْــلُ وَجُـــودُهُ

لمْ يُنــجِ نوحـــاً فلكـــهُ المَشحُـــونُ

لوْ أنَّ هَذَا الدَّهـــرَ يَبْطـــشُ بَطشَـــهُ

لمْ يَعْقـــبِ الحَركـــاتِ مِنهُ سُكـــونُ

الـــرَّوْضُ ما قـــدْ قيـــلَ فِي أيامـــهِ

لاَ أنـــــهُ وَرْدٌ وَلاَ نسْرِيـــــنُ

وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِـــنْ ذِكـــرِهِ

لاَ أنَّ كـــلَّ قـــــرَارَةٍ دَارَيـــــنِ[2]

---

[1] الثـــني: الطـــي. تقـــول: "أرسلتـــه ثـــني كتـــابي" أي طي كتـــابي. النجـــاد: حمائـــل السيـــف؛ لأنـــه يعلـــو العاتـــق. يقـــال: "هـــو طويـــل النجـــاد" كنايـــة عـــن انـــه طويـــل القامـــة.

[2] داريـــن: موضـــع بالبحريـــن؛ وهـــو همـــزة وصـــل لجلـــب المســـك مـــن الهنـــد.

مَلِـكٌ كمـا حُدِّثْـتَ عنـهُ رَأفـةً
فالخمـرُ مـاءٌ وَالشرَاسـة ليـنُ
شِيـمٌ لوْ أنَّ اليـمَّ أعـطِيَ رِفقها
لمْ يَلْتقـمْ ذَا النـونِ فِيـهِ النـونُ[1]
تاللـهِ لاَ ظلـلُ الغمـامِ معاقِـلٌ
تـأبَى عليهِ وَلاَ النُّجـومُ حُصُـونُ
وَوَرَاء حَقِّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغـمٌ
أسْـدٌ وَشَهبـاءُ السِّـلاَحِ منـونُ
الطالبـانِ: المِشرَفيـة وَالقنـا
المدْرِكـانِ: النصْـرُ وَالتمكِيـنُ

ثـم يضيـف قائـلا:

أنظـرْ إلى الدُّنيـا بإشفـاقٍ فقـدْ
أرْخَصْـتَ هذَا العِلـقَ وَهوَ ثمِيـنُ
لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاستَعْـدَى عَـلى
جـدْوَى يَدَيـكَ وَإنـهُ لقميـنُ

---

[1] ذا النـون: النـبي يونـس عليـه السـلام. والنـون الحـوت الـذي التهمـه.

أمـــددهُ أوْ فاصْفــحْ لـــهُ عنْ نيلِـــهِ

فلقـــدْ تَخـــوَّفَ أنْ يقـــالَ ضَنَيـــنُ

وَأذَنْ لـــهُ يغـــرِقْ أميـــة معلِنـــاً

مـــا كـــلُّ مـــأذُونٍ لـــهُ مـــأذُونُ

وَاعـــذِرْ أميـــة أنْ تغـــصَّ بريقهـــا

فالمهـــلُ مَـــا سُقِيتـــهُ وَالغِسْلِيـــنُ[1]

ألقـــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلْـــقَى عَمْرِهَـــا

بِالثـــوْبِ إذْ فغـــرَتْ لـــهُ صِفِيـــنُ[2]

قـــدْ قـــادَ أمْرَهـــمُ وقَلـــدَ ثغرَهـــمُ

مِنهـــمْ مهيـــنٌ لاَ يكـــادُ يبيـــنُ

ويقـــول أيضـــا:

وَرَمَى إِلَى البلـــدِ الأميـــنِ بِطرفـــهِ

ملـــكٌ عَـــلَى ســـرِّ الإلـــهِ أمِيـــنُ

لمْ يَـــدْرِ مَا رَجـــمُ الظنـــونِ وَإنمَـــا

دُفِـــعَ القضَـــاءُ إليـــهِ وَهـــوَ يقيـــنُ

---

[1] المهـــل: الصديـــد والقيـــح. الغسليـــن: مـــا يسيـــل مـــن جلـــود أهـــل جهنـــم.

[2] عمرهـــا: المقصـــود هنـــا عمـــرو بـــن العـــاص؛ وأراد بعبـــارة ملـــقى: مـــا جـــرى لـــه حيـــن طعنـــه عـــلي بـــن أبي طالـــب فألقـــاه أرضـــا في موقعـــة صفيـــن.

كذبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَــتْ مِنْ حَقكُــمْ

وَمِــنَ المقــالِ كأهلــهِ مأفــونُ

أبــنِي لــؤَيٍّ أينَ فضــلُ قدِيمكــمْ

بلْ أيــنَ حِلــمٌ كَالجبــالِ رَصِيــنُ[1]

نازَعتــمُ حــقَّ الــوَصِيِّ وَدُونــهُ

حــرَمٌ وَحِجــرٌ مانــعٌ وَحجـــونُ[2]

نَاضَلتمُــوهُ عَــلَى الخِلاَفــةِ بِالــتِي

رُدَّتْ وَفِيكــمْ حَدُّهــا المسْنــونُ

حَرَّفتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْــنِ عَــنْ

زَمَــعٍ ولَيــسَ مِنَ الهجــانِ هجيــنُ[3]

لــوْ تتقــونَ اللهَ لــمْ يَطمــحْ لَهــا

طــرَفٌ ولَمْ يَشمــخْ لَهــا عرنِيــنُ[4]

---

[1] بنــو لــؤي: قريــش.

[2] الــوصي: عــلي بــن أبي طالــب.

[3] السبطيــن: الحســن والحسيــن. عــن زمــع: أي عــن إصــرار ومضــاء في الأمــر. الهجــان مــن كــل شــيء: خيــاره. والهجيــن: مــن كــان أبــوه عــربي وأمــه أمــة.

[4] العرنيــن: الأنــف كلــه؛ جمعــه عرانيــن.

لكِنكــمْ كنتــمْ كَأهــلِ العِجْــلِ لــمْ

يُحفــظْ لمــوسَى فِيهــمُ هــارُونُ[1]

لوْ تَسْألُــونَ القبــرَ يَــومَ فرِحتــمُ

لأجــابَ أنَّ محمــداً محـــــزُونُ

مَاذَا ترِيــدُ مِنَ الكِتــابِ نوَاصِــبٌ

ولَــهُ ظهــورٌ دُونهــا وَبطــونُ[2]

هِيَ بُغيَــة أضَلَلتمُوهَــا فَارْجِعُــوا

فِي آلِ يَاسيــنٍ ثــوَتْ ياسِيــــنُ

رُدُّوا عليْهــمْ حكمَهــمْ فَعَليهــــمُ

نــزَلَ البيــانُ وَفِيهــمُ التبييــــنُ

البَيْــتُ بَيْــتُ اللـــهِ وَهــوَ معَظــمٌ

وَالنــورُ نــورُ اللـــهِ وَهــوَ مبيــنُ

وَالسِّترُ سِترُ الغيْــبِ وَهْوَ مُحَجَّــبٌ

وَالسِّــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُــونُ

النــورُ أنــتَ وَكــلُّ نــورٍ ظلمــة

وَالفــوقُ أنــتَ وَكــلُّ فــوقٍ دُونُ

---

[1] أهــل العجــل: بنــو إسرائيــل.

[2] النواصــب: الذيــن ينصبــون لعــلي بــن أبي طالــب العــداء.

لــــوْ كانَ رَأيــكَ شائِعــاً فِي أمـــةٍ

علِمُـــوا بما سَيَكـــونُ قبْــلَ يَكـــونُ

أوْ كَانَ بِشْرُكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لـــمْ

يُكْسَفْ لَهَا عِنـــدَ الشُّــرُوقِ جَبيــنُ

أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لـــمْ

يَحْمِلــهُ دُونَ لَهاتــــهِ التنيـــــنُ

لــمْ تسْكــنِ الدُّنيَـــا فــوَاقَ بَكيـــةٍ

إلاَّ وَأنــتَ لِخوفهــــا تأميــــنُ

اللـــهُ يَقبَـــلُ نُسكنـــا عنـــا بمـــا

يُرْضيـــكَ مِنْ هـــدْيٍ وَأنتَ مُعيـــنُ

فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكــرِ خلِيفــةٍ

هــذَا بهــذَا عِندَنـــــا مَقـــــرُونُ

فَارزُقْ عِبَـــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَـــةٍ

وَاقــرُبْ بهمْ زُلُــفَى فأنـــت مَكيـــنُ

لـــكَ حمْدُنـــا لاَ أنــهُ لــكَ مَفخـــرٌ

مَـــا قـــدْرُكَ المَنثـــورُ وَالمَـــوزُونُ

قْد قالَ فِيـــكَ اللـــهُ مَـــا أنـــا قائِـــلٌ

فكـــأنَّ كـــلَّ قصيـــدَةٍ تَضْمِيـــــنُ

اللـــهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيــكَ فِي الـــوَرَى

مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ

وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ

تحْـــتَ المِظلَـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللـــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــرــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هـ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطمييـــن. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ علـــى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

ـ **آراء الخوارج الكلامية:** (تحقيق وتقديم عمار طالبي لكتاب الموجز لأبي عبد الله الكافي التناوتي الإباضي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

ـ **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى:** صالح باجية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976م.

ـ **الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا):** علي يحيى معمر، مكتبة وهبه، القاهرة.

ـ **ابن هاني:** أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

ـ **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،** أحمد بن عمر بن أبي الضياف، (ت: 1291هـ/1845م): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

ـ **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء:** أحمد ابن علي المقريزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.

ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة:** لسان الدين ابن الخطيب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.

ـ **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة):** فلهوزن؛ بوليوس: ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.

ـ **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم:** لمجهول، مكتبة المثني، بغداد، طبع بمطبعة رِبَدَنَيرَ Rivadeneyra بمدريد 1867م.

ـ **أخبار ملوك بني عبيد:** محمد بن علي بن حماد الصنهاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفِي):** أحمد بن محمد السِّلفِي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ـ **الأدب المغـربي:** محمـد بـن تاويـت، و محمـد عفيـفي، دار الكتـاب اللبنـاني، بيـروت، 1969م.

أزهـار الريـاض في أخبـار عيـاض: أحمـد بـن محمـد التلمسـاني المقـري (ت:1041هـ/1631م)؛ تحقيـق مصطـفى السقـا، وإبراهيـم الأبيـاري، وعبـد الحفيـظ شلـبي، مطبعـة التأليـف والترجمـة والنشـر، القاهـرة، 1892م ـ 1942م.

ـ **الإستقصـاء لأخبـار دول المغـرب الأقـصى:** أحمـد بـن خالـد الناصـري السـلاوي، (ت: 1315هـ/1897م)؛ تحقيـق جعفـر الناصـري، ومحمـد الناصـري، دار الكتـاب بالمغـرب، الـدار البيضـاء، 1954 ـ 1956م.

ـ **الإسـلام في إسبانيـا:** لطـفي عبـد البديـع، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة، ط: 1، 1958م.

ـ **الأعـلام (قامـوس تراجـم لأشهـر الرجـال والنسـاء مـن العـب والمستعربيـن والمستشرقيـن):** خيـر الديـن الزركـلي، مطبعـة كوستـا تسومـاس وشركـاه، 1954م ـ 1959م).

ـ **أعمـال الأعـلام في مـن بويـع قبـل الاحتلام مـن ملـوك الإسـلام**: لسـان الديـن محمـد بـن الخطيـب السلمـاني (ت: 776هـ/1374م)، (القسـم المخصـص لتاريـخ إسبانيـا الإسلاميـة)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال، دار المكشـوف، بيـروت، 1956م.

- **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
- **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي:** محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.
- **أنموذج الزمان في شعراء القيروان:** حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- **الأنيس المطرب بروض القرطاس:** علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.
- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:** يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغـوثي أبـو عـلي، مطبعـة فنطانـة الشرقيـة، الجزائـر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخـة المحققـة للجـزء الأول مـن طـرف عبـد الحميـد حاجيـات، المكتبـة الوطنيـة، الجزائـر، 1980م.

ــ **بغيـة الملتمـس في تاريـخ رجـال أهـل الأندلـس**: أحمـد بـن يحـيى بـن عميـرة الضـبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبـة المثـنى، بغـداد، وطبـع بمطبعـة روخـس، مدريـد، 1884م.

ــ **بـلاد الجزائـر تكوينهـا الإسـلامي والعـربي:** إبراهيـم العـدوي، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، القاهـرة، 1970م.

ــ **البيـان المغـرب في أخبـار الأندلـس والمغـرب:** محمـد بـن عـذاري المراكـشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال، وكـولان، وإحسـان عبـاس، دار الثقافـة، بيـروت، 1967م.

ــ **تـاريـخ الأدب الأندلـسي (عصـر سيـادة قرطبـة)**: إحسـان عبـاس؛ دار الثقافـة، بيـروت، 1978م.

ــ **تاريـخ الإسـلام السيـاسي والديـني والثقـافي والاجتمـاعي:** حسـن إبراهيـم حسـن، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة، ج: 1 ــ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريـــخ افريقيـــة والمغـــرب:** إبراهيـــم بـــن القاســـم المعـــروف بالرقيـــق القيـــرواني (ت: بعـــد 417هـــ/1026م)؛ تحقيـــق المنـــجي الكعـــبي، نشـــر رفيـــق السقـــطي، تونـــس، 1968م.

ـ **تاريـــخ الأمـــم والملـــوك:** محمـــد بـــن جريـــر الطبـــري (ت: 310هـــ/923م)، مكتبـــة خيـــاط، بيـــروت.

ـ **تاريـــخ الجزائـــر العـــام:** عبـــد الرحمـــن الجيـــلالي، دار الثقافـــة، بيـــروت، 1980م.

ـ **تاريـــخ الجزائـــر في القديـــم والحديـــث:** مبـــارك بـــن محـــمد الميـــلي، الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1976م.

ـ **تاريـــخ الدولـــة الفاطميـــة في المغـــرب ومصـــر وسوريـــة وبـــلاد العـــرب:** حســـن إبراهيـــم حســـن، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهـــرة، ط: 3، 1964م.

ـ **تاريـــخ صقليـــة الإسلاميـــة:** عزيـــز أحمـــد، الـــدار العربيـــة للكتـــاب، طرابلـــس، ليبيـــا، 1980م.

ـ **تاريـــخ علمـــاء الأندلـــس:** عبـــد اللـــه بـــن محمـــد الأزدي بـــن الفـــرضي (ت: 403هـــ/1012م)، الـــدار المصريـــة للتأليـــف والترجمـــة، 1966م.

ـ **تاريـــخ الفـــرق الإسلاميـــة ونشـــأة علـــم الكـــلام عنـــد المسلميـــن:** عـــلي مصطـــفى الغـــزالي، مكتبـــة ومطبعـــة محمـــد عـــلي صبيـــح وأولاده، القاهـــرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**: علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية)**: دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **تاريخ المغرب الكبير**: محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ـــ 1974م.

ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**: محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض)**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.

ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية):** خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.

ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس:** محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ـ **جمهرة أنساب العرب:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول:** شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.

ـ **حضارة العرب في الأندلس:** خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.

ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية:** محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.

ـ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس):** محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.

ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا):** محمود إسماعيل.

ـ **دائرة المعارف الإسلامية:** محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.

ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي:** جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.

ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى:** عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.

ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي:** محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية:** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ـ **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة:** إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع):** محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م ـ 1969م.

ـ **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي):** محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

ـ **الدولة العربية في إسبانيا:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **ديوان ابن هاني الأندلسي:** دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م ـ 1979م.

ـ **رسالة افتتاح الدعوة:** القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام):** محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

ـ **السجلات المستنصرية:** تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي:** محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب:** عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء:** أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية:** عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

ـ **صلة الصلة:** أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.

ـ **ضحى الإسلام:** أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.

ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس**: أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.

ـ **طبقات المشائخ بالمغرب:** أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.

ـ **ظهر الإسلام:** أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك:** عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.
ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية:** عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب:** عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
ـ **فتوح مصر والمغرب:** عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.
ـ **فجر الإسلام:** أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجر الأندلس:** حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.
ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم:** ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.
ـ **فوات الوفيات والذيل عليها:** محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية:** بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان:** الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي:** الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ:** علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
ـ **كتاب الجغرافيا:** علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية:** عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد

العـروسي المطـوي، دار الغـرب الإسـلامي للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1981م ـ 1983م.

ـ **كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم:** أبـو زكريـاء يـحي بـن أبي بكـر الورجـلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيـق إسماعيـل العـربي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1984م.

ـ **كتـاب الصلـة:** خلـف بـن عبـد الملـك بـن بشكـوال (ت: 578هـ/1182م)، الـدار المصريـة للتأليـف والترجمـة.

ـ **كتـاب فتـوح البلـدان:** أحمـد بـن يـحي البـلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيـق صـلاح الديـن المنجـد، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة.

ـ **كتـاب المفصـل في الملـل والأهـواء والنحـل:** عـلي بـن أحمـد بـن حـزم الأندلـسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ـ 3، 1320هـ، المطبعـة الأدبيـة بمصـر، ج: 4، 1321هـ، مطبعـة التمـدن بمصـر، ج: 5، 1321هـ، مطبعـة الموسوعـات بمصـر.

ـ **المجتمعـات الإسلاميـة في القـرن الأول (نشأتهـا، مقوماتهـا، تطورهـا اللغـوي والأدبي):** شكـري فيصـل، دار العلـم للملاييـن، بيـروت، 1966م.

ـ **مجموعـة الوثائـق الفاطميـة:** جمـال الديـن الشيـال، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية:** سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).
ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا:** أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية:** محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.
ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر:** عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.
ـ **معجم البلدان:** أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.
ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:** عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم):** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
ـ **المغرب في حلى المغرب**: أبو محمد الحجاري، وعبد الملك بن سعيد، وآخرون؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م.
ـ **المغرب عبر التاريخ:** إبراهيم حركات، مطبعة دار السلمي بالمغرب، الدار البيضاء 1965م
ـ **المغرب العربي تاريخه وثقافته:** رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك):** عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق، بباريس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.
ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعة التي حققها عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس):** محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **مقدمة ابن خلدون:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.

ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع):** أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio .Della Societa LIPSIA. 1857.

ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملـل والنحـل:** محمـد بـن عبـد الكريـم الشهرستـاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفـة للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1975م.

ـ **المهـدي المنتظـر بيـن العقيـدة الدينيـة والمضمـون السيـاسي:** حجـاب؛ محمـد فريـد؛ المؤسسة الوطنية للكتـاب بالجزائـر 1984م.

ـ **نبـذ تاريخيـة في أخبـار البربـر في القـرون الوسـطى (منتخبـة مـن المجمـوع المسـمى بكتـاب مفاخـر البربـر:** لمجهـول عـاش في سنـة 712هـ (وربمـا كـان لأبي عـلي صالـح بـن عبـد الحليـم؛ حسـب تحقيـق مـوسى لقبـال)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال 1934م.

ـ **النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهـرة:** أبـو المحاسـن يوسـف الأتابـكي ابـن تـغَـرِي بَـرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسـة المصريـة العامـة للتأليـف والترجمـة والطباعـة والنشـر، 1963م.

ـ **نظـم الحكـم والرسـوم في دولـة بـني عبـد الـواد الزيانيـة:** بوزيـاني؛ الـدراجي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1993م.

ـ **نظـم الـدر والعقيـان في بيـان شـرف بـني زيـان وذكـر ملوكهـم الأعيـان ومـن ملـك مـن أسلافهـم ممـا مـضى**

من الزمان: محمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

ـ **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر:** عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.

ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**: أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،

ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب:** أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 733هـ/1332م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر، 1954م.

ـ **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**؛ أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)؛ تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959م.

ـ **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي:** محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1974م.

ـ **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية:** حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1966 ـ 1972م.

ـ **الـوزارة والـوزراء في العصـر الفاطـمي:** محمـد حمـدي المنـاوي، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، 1970م.
ـ **وصـف إفريقيـا:** الحسـن بـن محمـد الـوزان الفـاسي الشهيـر بليـون الأفريـقي (ت: بعـد 957هـ/1550م)؛ ترجمـه عـن الفرنسيـة: محمـد حـجي، و محمـد الأخضـر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت 1983م.
ـ **وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان**: أحمـد بـن محمـد بـن خلكـان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر ببيـروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971،7م، ج: 8، 1972م.

المـراجـع بالـلـغـة الأجـنـبـيـة:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات